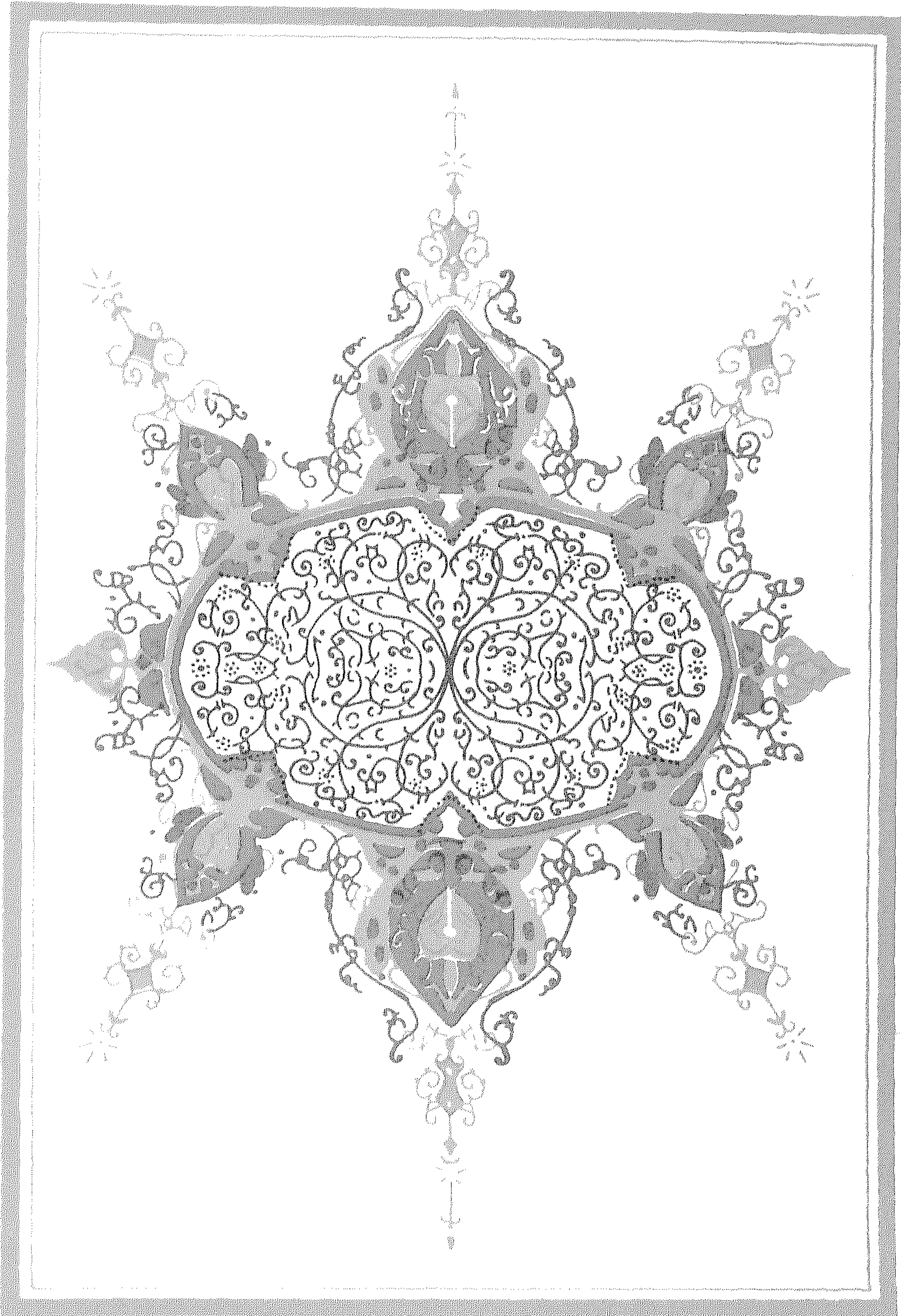


مجلة مجمع اللغة العربية



الجزء السابع والسبعون

جمادى الأولى سنة ١٤١٦ هـ

نوفمبر سنة ١٩٩٥ م



مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١٥ شارع عزيز أباظة
(المعهد السويسري سابقا) بالزمالك

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين في السنة)

الجزء السابع والسبعون

جمادى الأولى ١٤١٦ هـ - نوفمبر ١٩٩٥ م

رئيس التحرير :

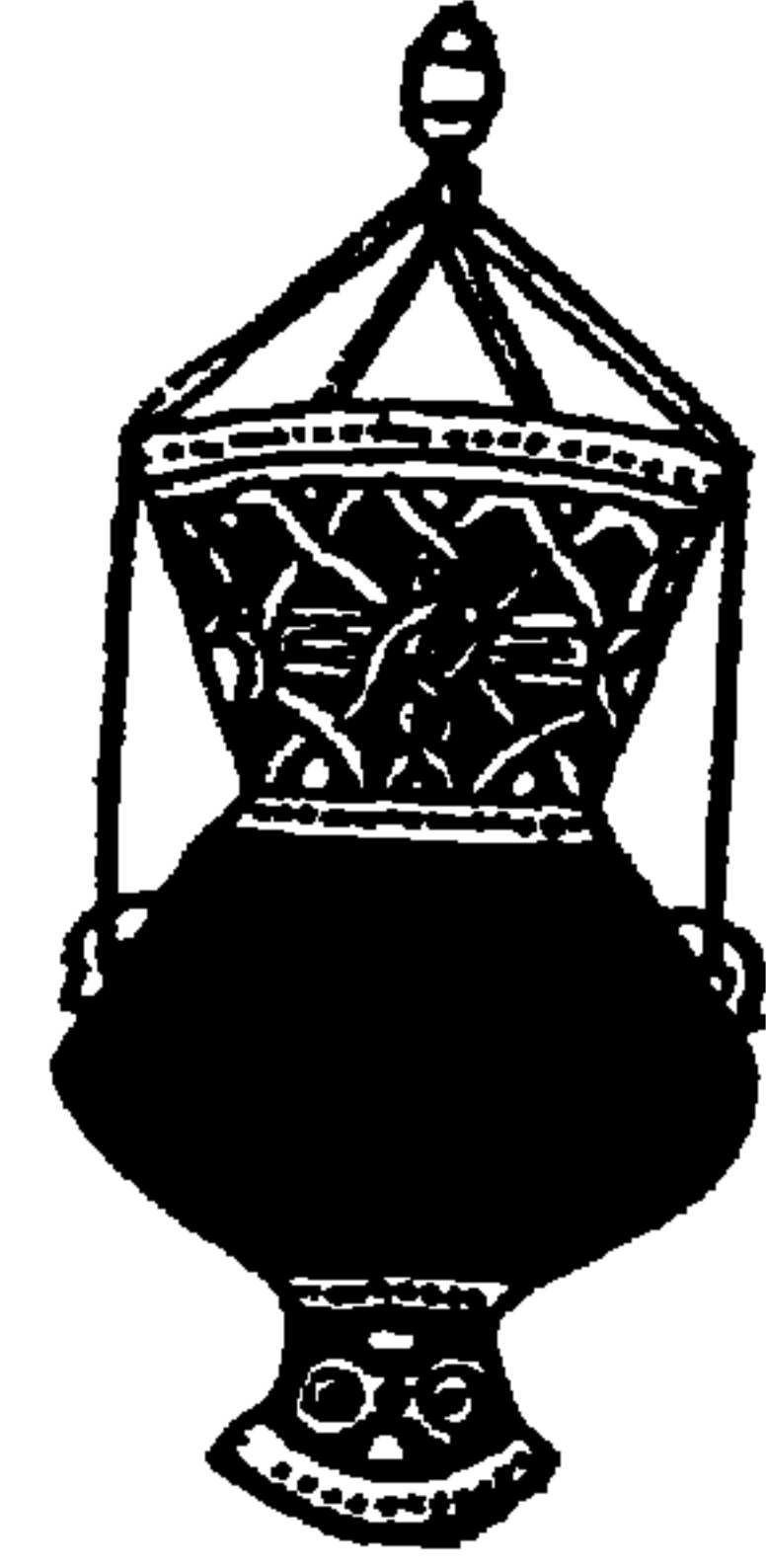
إبراهيم التريزى

أمين التحرير :

مسعد توفيق

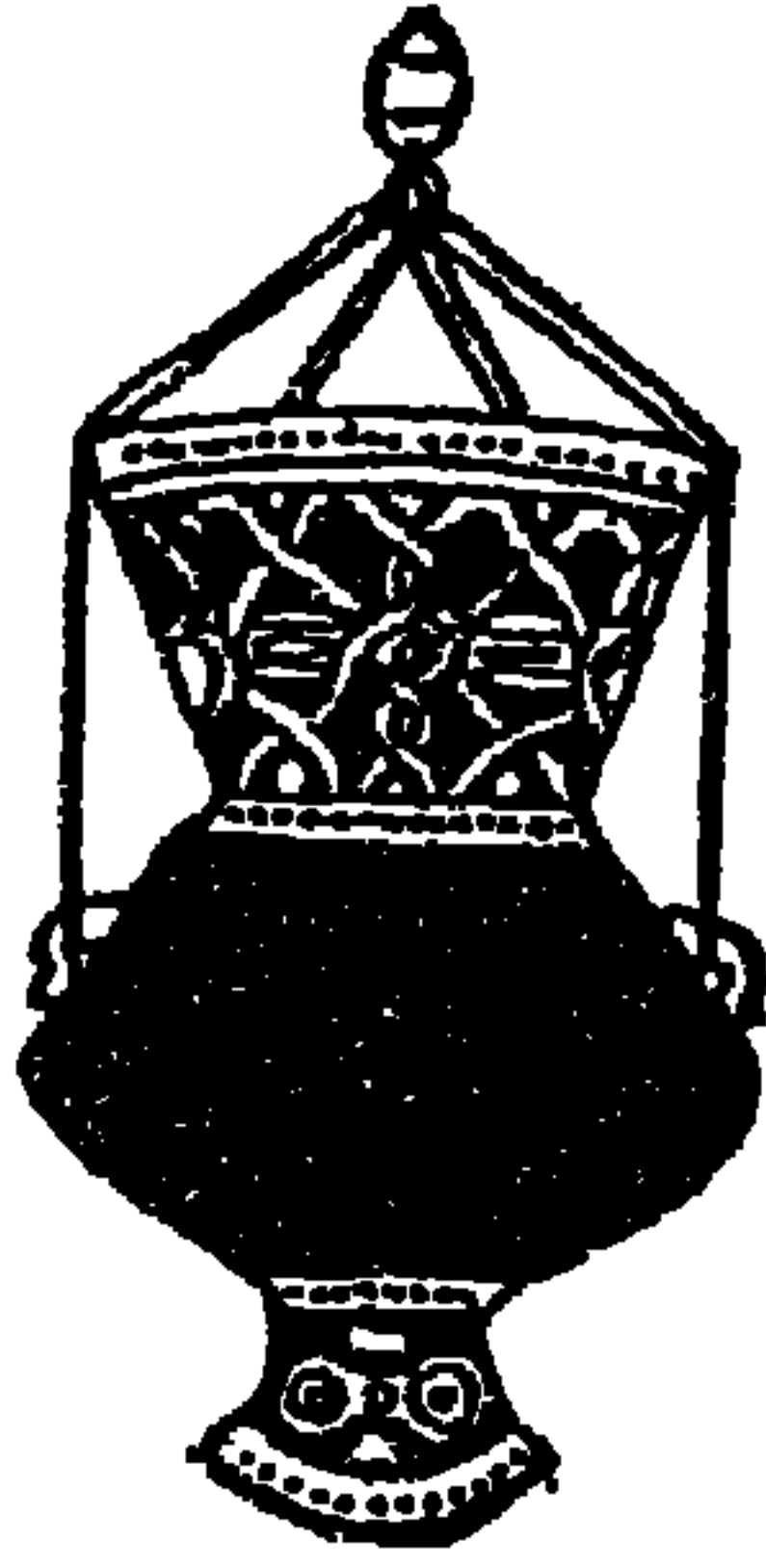
مساعدة أمين التحرير :

سميرة شعلان



الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
بحوث ومقالات		• الموريسكيون فى الفكر الإسبانى .	
• بواكير حركة التجديد فى الشعر العربى .		• للأسفاذ الدكتور/ الطاهر أحمد مكى	٦٨
• للأستاذ الدكتور/ بدوى طبانة ٩		• أبو الحسن الديلمى وكتابه « عطف الألف المألوف على اللام المعطوف » .	
• الجيولوجيا فى الشعر		• للأسفاذ الدكتور / حسن محمود	
• للأسفاذ الدكتور/ محمد يوسف حسن ٢٣		• عبد اللطيف الشافعى	١٠٤
• الأساس الإسلامى للعلم العالى		• الجملة الاسمية بين الإطلاق والتقييد « رأى وتصنيف » .	
• حضارة سداها الإسلام ولحمتها العلم .		• للأسفاذ الدكتور / محمد حماسة	
• للأسفاذ الدكتور/ عبد الحافظ حلمى محمد ٤٤		• عبد اللطيف	١٥٤



الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	● كلمة العضو الجديد الأستاذ الدكتور/ سيد رمضان هدارة في حفل استقباله عضوا بالمجمع .		تعريف ونقد : قراءة متأنية في كتاب (معجز أحمد) لأبي العلاء المعري . تحقيق الأستاذ الدكتور/ عبد المجيد دياب عرض وتعليق .
٢٠٤	● كلمة المجمع في استقبال العضو الجديد .	١٨١	للفريق / يحيى العلمي شخصيات هجمية : الاستقبال :
	الأستاذ الدكتور/ عبد الحافظ حلمي محمد للأستاذ الدكتور/ محمد يوسف حسن عضو المجمع .	١٩٧	استقبال ثلاثة أعضاء علميين جدد ● كلمة المجمع في استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور/ سيد رمضان هدارة للأستاذ الدكتور/ محمود مختار عضو المجمع .
٢٠٧	● كلمة العضو الجديد الأستاذ الدكتور/ عبد الحافظ حلمي محمد في حفل استقباله عضوا بالمجمع .	١٩٨	
٢١٣			



الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	• كلمة المجمع في استقبال العضو الجديد	٢٢١	• كلمة الأستاذ الدكتور / إبراهيم
	البسيوني في حفل استقباله عضوا بالمجمع .		٢٤٨
	• كلمة الأستاذ الدكتور / محمود حافظ .	٢٢١	• كلمة الأستاذ الدكتور/بدوى طبانة في حفل استقباله عضوا بالمجمع .
	• كلمة المجمع .		٢٥١
	• كلمة العضو الجديد الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز صالح		• كلمة الأستاذ الدكتور/عبد السميع محمد أحمد في حفل استقباله عضوا بالمجمع .
	في حفل استقباله عضوا بالمجمع	٢٢٦	٢٦٠
	استقبال أربعة أعضاء لغويين جدد	٢٣٠	• كلمة الأستاذ / مصطفى عوضين حجازي في حفل استقباله عضوا بالمجمع .
	• كلمة المجمع في استقبال الأعضاء اللغويين الأربعة الجدد		٢٦٥
	للأستاذ / إبراهيم التري عضو المجمع	٢٣١	٢٧٥
	من أبناء المجمع .		

بحوث ومقالات

بين القديم والجديد

بواكير حركة التجديد

فى الشعر العربى

للأستاذ الدكتور / بدوى طبانة

لا أعرف قضية من قضايا الأدب
شغلت الناس فى هذا القرن العشرين كما
شغلتهم قضية التجديد فى قوالب الشعر
وأشكاله الموروثة حتى أصبحت هذه
القضية الشغل الشاغل للشعراء والكتاب
والنقاد الذين ملأت كتاباتهم جداول
الصحف وصفحات المجلات ، وألفت فيها
كتب مستقلة كثيرة ، كما كانت موضوعاً
لبحوث ورسائل جامعية عنيت بها
الجامعات فى أرجاء الوطن العربى .
وقد أفاضت تلك الكتابات والبحوث
والدراسات فى تناول أبعاد تلك القضية
وسبر أغوارها ، وشرح أهدافها .
ونشبت معارك قلمية شعواء بين
المجددين وأنصارهم والرافضين ومن
يشايهم من أهل الحفاظ على المثل الماثورة
الذين لم يجدوا سبباً يدعو إلى العدول عن
ذلك القديم ، أو النفور منه ، أو الخروج
على سنته وتقاليده .
وليت ذلك الحوار وقف عند الأبعاد
الفنية التى تقتضيها طبيعة الفن الأدبى
والخصائص التى يتميز بها كل جنس من
أجناسه كما يعرفها الخبراء العليمون بهذه
الصناعة ، ويمدى تقبلها للتعديل
أو التجديد . ولكن ذلك الحوار تطاول وامتدّ
واتسع ، حتى تجاوز حدود الحوار الفنى
حول قضية أدبية إلى سباب ومهاترات عمد
أصحابها إلى النيل من كرامات مخالفيهم
فى السرائى ، وحسبوا أن المخالفة عداوة
يجب أن يشهر فى وجهها كل سلاح !
ولو أن واحداً من المتبعين استطاع أن
يحصى ما كتب حول هذا الموضوع لملا به

مجلدات ضخاما تنوء بها مكتبة الأدب فى
العصر الحديث
وفن الشعر هو أبرز الفنون الإنسانية
عند العرب ، وهو أصلها وأعرقها ،
حتى لو أن فائلا قال إن الشعر هو فنهم
الأوحد لم يبعد عن الصواب ، فقد احتفوا
به وبقائليه احتفاء منقطع النظير ، وهو
السجل الباقي الذى نقرأ فيه تاريخهم
البعيد ، ونعرف منه أحوال بيئاتهم
وأسلوب حياتهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ،
فقد وصفوا فيه ما وقعت عليه أعينهم ،
وما يجيش فى صدورهم من الأمانى
والآمال ، وما يشغل عقولهم من الأفكار
وما يملأ قلوبهم من المشاعر والعواطف
إذ كان الشعر كما يرى فلاسفة اليونان
الأقدمون فن المحاكاة الذى يحاكي الطبيعة
الخارجية أو طبيعة الوجود كما يتمثلها
الشاعر ، والطبيعة الداخلية كما تتفاعل فى
أعماق الشاعر .

وليس يعنينا فى هذا المجال الحديث
عن منزلة الشعر وأثره فى نفوسهم
وتصويره لحياتهم أو مشاعرهم ، ولا يتسع

المجال لشرح فكرة المحاكاة أو نظرية
المحاكاة واختلافها بين أفلاطون وأرسطو ،
ولا الإشارة إلى اختلاف النقاد فى إدراك
مراميها .

وإنما الذى يعنينا فى هذا السياق أن
نقرر أن فن الشعر جنس من أجناس الأدب
يتوافر فيه ما ينبغى أن يتوافر فى سائر
الأجناس الأدبية من جودة العبارة وأناقة
التعبير التى تحيل الكلام إلى تعبير فنى ،
ويتميز بها من لغة التخاطب بين أصحاب
اللسان الواحد . ولكن فن الشعر يمتاز من
بين هذه الأجناس الأدبية بخضوعه لأنساق
موسيقية توارثتها الشعراء وتمثل تلك
الأنساق فى أوزانه وبحوره المعروفة التى
اهتدى إليها الشعراء بفطرتهم أو بفنيتهم ،
واجتمعوا عليها بعد محاولات وتجارب
كثيرة قبل أن يبلغوا بها هذا المبلغ من
الوحدة والإحكام الذى ارتضته أذواق صنّاع
الشعر ومنشئيه . على أن النثر الفنى قد لا
يعدم هذه الموسيقى التى تأخذ بالألباب
وتنشأ عن افتنان الكتاب وتأنقهم فى صوغ

الألفاظ ، ولكنها موسيقى غير ملتزمة
التزامها فى الفن الشعرى التى تتميز
موسيقاه بجريانها وفق نظام خاص
محدود .

وتجمل "القافية" فى مفهوم الشعر
العربى مكاناً ملحوظاً ، ونرى منزلتها فى
هذا الشعر فى اقتران القافية بالوزن فى جلّ
ما أثر من حدود للشعر عند العروضيين
والنقاد العرب منذ أقدم العصور ، والشعر
عندهم جميعاً هو «الكلام الموزون المقفى»
وأضاف قدامة بن جعفر إلى هذه
الخصائص المميزة للشعر عبارة "يدل على
معنى " والمقصود بالتقفية عندهم الالتزام
بروى واحد .

وعرف ابن خلدون الشعر بذلك
التعريف «الكلام الموزون المقفى» وفسر
"المقفى" بأنه الذى تكون أوزانه كلّها على
روى واحد ، وهو القافية .

وقال ابن رشيق فى "العمدة" :

إن الوزن أعظم أركان حدّ الشعر
وأولاها به خصوصية ، وهو مشتمل على

القافية ، وجالب لها ضرورة ، إلا أن
تختلف القوافى فىكون ذلك عيباً فى
التقفية لا فى الوزن . وقد لا يكون ذلك
عيباً فى نحو الخمسات وما شاكلها .

وقال فى موضع آخر « إن القافية
شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر ،
ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية
.. والمصرّع أدخل فى الشعر ، وأقوى من
غيره » .

وقال على بن عثمان الإربلى فى كتابه
"القوافى" :

« اعلم أن العروض مرتبط بالقوافى
كارتباط البدن بالقدمين » ويستفاد من هذا
وأمثاله التى لا تحصى أن القافية الموحدة
داخلة فى مفهوم الشعر العربى ، وأنها
لازمة فى كل أبيات القصيدة حتى إنهم
لا يسمعون الكلام شعراً إلا إذا بنيت جميع
أبياته على روى واحد ، أو قافية واحدة .

ولذلك وضعوا لكل ما خرج على هذا

النسق من وحدة الوزن ووحدة القافية اسما
خاصاً به ، فكانت هنالك الموشحات
والمربعات والمخمسات والمسمطات وغيرها
مما يختلف فيه نظام القوافي ، أو يخرج
عن النسق المعروف .

وإنما تحدثت في هذا السياق هذا
الحديث الموجز عن القافية ومنزلتها في
عالم الشعر العربي لأن محاولات التمرد
على نظام هذا الشعر وأنساقه المعروفة
كانت أولى محاولات التجديد أو التحلل
من القيود في الفن الشعري في نظام
القوافي .

ولم يكن الشاعر الفيلسوف جميل
صدقى الزهاوى كما زعم أول من
استحدث القافية المرسله أى غير المقيدة
أو الملتزمة في الشعر العربي .

ذلك أن " الشعر المرسل " فيما نعلم ،
وفيما سجلناه في كتابنا " نظرات في
أصول الأدب والنقد " قد بدأت تجربته
والدعوة إليه في النصف الثاني من القرن

التاسع عشر الميلادي . وقد قلنا في ذلك
الكتاب ما نصه : « وربما كان رزق الله
حسون الحلبي الأرمني الأصل (١٨٢٥ -
١٨٨٠ م) أسبق صانعى هذا " الشعر
المرسل " وأقدم الدعاة إليه ، وذلك في
ترجمته المنظومة للفصل الثامن عشر من
سفر أيوب الذى سماه " أشعر الشعر "
" Poems of Poems " وقد طبعت الطبعة
الأولى من هذا الكتاب في لندن سنة
١٨٦٩ م ، مع مقدمة باللغة الإنجليزية .
وقد أهداه إلى « صاحب الجلالة
الإمبراطور الإسكندر الثانى إمبراطور
الروسيا » ثم أعيد طبع ذلك الكتاب بعد
ذلك في بيروت سنة ١٨٧٠ م .

وقال رزق الله حسون في مقدمة
ترجمته « وقد سئح لى أن أنظم الفصل
الثامن عشر من سفر أيوب على أسلوب
الشعر القديم بلا قافية ، لأن حدّ الشعر
عندى " نظم موزون " ، وليست القافية
تشرط إلا لتحسينه ، فقد كان الشعر شعراً
قبل أن تعرف القافية ، كما هو عند سائر

الأمم ، ولم يسمع للعرب بسبعة أبيات
على قافية واحدة قبل امرئ القيس ، لأنه
أول من أحكم قوافيها !

وليس يعنينا الآن التعقيب على هذه
المقالة ، وإنما الذى يعنينا فى هذا المجال أن
هذه الدعوة إلى " الشعر المرسل " كانت
فيما نعلم أسبق الدعوات إلى التخلص من
القافية الرتبية فى الشعر العربى ، وأن
دعوة رزق الله حسون الحلبي الأرمنى
وجدت استجابة لدى بعض شعراء هذا
العصر ، إذ كان جوهر هذه الدعوة
وغايتها التخفف من نظام القوافى الذى
يقتضى ثقافة لغوية واسعة عميقة ، تعين
على تخير الألفاظ الملائمة للمعانى ،
والملائمة لبناء القوافى بما يتوافر لها من
وحدة الإيقاع الصوتى والموسيقى الذى
يتكرر فى آخر كل بيت من أبيات القصيدة .

وكان الهدف الحقيقى لهذه الدعوة هو
التيسير على من يحاولون صناعة الشعر
قبل أن تستوى عندهم الملكة ، وقبل أن
يستكملوا العدة اللازمة لها ، وهى الثروة

اللغوية الواسعة ، فإن اللغظة هى أداة
المحاكاة الشعرية ، كما أن الألوان هى أداة
المحاكاة فى الرسم ، والألحان والأنغام هى
أدوات المحاكاة فى الموسيقى . . .

★ ★ ★
ثم كانت دعوة الشاعر الفيلسوف
جميل صدقى الزهاوى ، الذى بدأ دعوته
بتأليف عدد من القصائد التى لم يلتزم فيها
بما التزمه شعراء العرب من القافية الموحدة
فى سائر أبيات القصيدة ، ولكنه أرسلها
" مرسلة " متحررة من ذلك القيد .

ومن أطرف ما ساقه الزهاوى ليؤيد به
رأيه أو دعوته إلى الشعر المرسل الذى
يتحلل من قيد وحدة القافية فى القصيدة
العربية تشبيهه القوافى فى الشعر بالخلاخيل
التي كان النساء إلى عهد قريب يتزين بها فى
أرجلهن ، وقد يضرين بها ليعلم ما يخفين من
زيتتهن . وكان النساء يتنافسن فى اقتناء
الخلاخيل وتخير مادتها بحسب اختلاف
قدراتهن المادية ، ومنزلتهن فى الحياة ،
فقد تتخذ تلك الخلاخيل من الذهب
الجبالص المحلى بالأججار الكريمة ، وقد

تتدلى من تلك الخلائيل جلاجل
أو أجراس صغيرة تفتن بواساسها
أو بجلجاتها السامعين ، وقد تكون من
الفضة أو من النحاس أو مما دون ذلك من
المعادن ذات الزين .

وإذا كانت المرأة المتحضرة قد عزفت
عن " الخلخال " أو تحررت منه لأنه كان
في رأى بعض الناس رمزاً لعبودية المرأة
للرجل ، أو لأنه كان يشغل الناظر إليها
عن التأمل فى محاسنها ، فإن الزهاوى
كان يخشى أن تشغل موسيقى القافية
الموحدة المستلقى للشعر عن التأمل فيه ،
وعن الاستمتاع بصوره ومعانيه ، وسحر
إيقاعه الموسيقى الذى يتجلى فى أوزانه
العروضية .

ولذلك أرسل الزهاوى بعض شعره
مطلقاً إياه من قيد الالتزام بالقوافى
الموحدة . وقال إنه هو الذى استحدث هذا
الشعر المرسل فى الشعر العربى . وقد تبين
مما سبق ومما سيأتى بطلان تلك الدعوى .

ووصف الزهاوى القوافى فى الشعر

العربى بأنها قيد ثقيل ، طالما تبرم به
الشاعر ، وقال إنه لم يحب هذا القيد
الثقيل إلى الأسماع إلا ألفتها إياه ، وعده
من " نكد " الشعر العربى ، إذ أن قيد
القافية أثقل فى الشعر العربى لضرورة
مراعاة الإعراب ، ومقدار الحركات قبله ،
وتمائلها فوق التزام الروى وحركته .

وذلك فى رأى الزهاوى هو السبب
الذى جعل الشعر العربى بطيء التطور ،
عاجزاً عن تلبية متطلبات العصر ، لأنه -
كما يقول - لا يمنح الشاعر الحرية الكاملة
لإيراد القصص ، وبث الآراء ، والافتنان
فى الوصف كما ينبغى ، ولأن هذا القيد -
أى قيد القافية - لا أثر له فى الموسيقى
التي تجعل الشعر شعراً ، ألا وهى الوزن .
قال : وحسبك دليلاً أن البيت الواحد
يتمثل به الكاتب ، فيلذه القارئ ، عارفاً
أنه شعر ، من غير أن يسأل عن موافقته
لرديفه فى القافية !

ثم يقول الزهاوى :

« ما أغنى أرجل قوافى الشعر عم

خلاخيل القافية ، وما أغنى السامع عن
سماع وسوستها التي تشوش عليها موسيقى
الوزن » .

على أن الزهاوى مع ذلك لا يرى رفع
القافية أو إلغاءها فى كل أقسام الشعر ،
لأن ذلك المطلب عسير على الأذواق
العربية التي عرفت القافية وألفتها منذ
عصور طويلة وأحقاب بعيدة .

وأى بأسٍ فى أن يوجد نوع من
" الشعر المرسل " كما يوجد " المقيد " ، وأن
يكون هذا النوع المرسل خاصاً بالقصص
والوصف والجدل والحكم ؛ حيث ينبغى
أن يسير على موسيقى الوزن حراً طليقاً فى
أوسع المجالات ؛ ولا يرسف فى قيوده
مثقلاً بأعباء القافية .

وقد يستطيع الشاعر العربى التخفف
من عبء القافية ؛ بأن يحافظ فى قصيدته
على البحر أو الموسيقى التي تخضع فى
إيقاعها للنسق العروضى الموروث ، ويتنقل
بعد بضعة أبيات إلى روى جديد ، فإن
القصيدة لا تخلو من مطالب متعددة

يتناسب بعضها مع بعض ، فيجعل الشاعر
لكل مطلب من تلك المطالب رويًا يختلف
عن سابقه ولاحقه .

ويبدو من هذا العرض لرأى الزهاوى
فى قوافى الشعر أنه لم يصنح فى أمرها
برأى واحد يؤمن به ، ويصر عليه ، ثم
يدعو إليه . ولكنه يتردد كما ذكرنا بين
اتجاهات ثلاثة :

أولها - (القافية المرسله) التي صاغ
عليها بعض شعره ، وهى القافية التي تحرر
فيها الشاعر من الالتزام بالقافية الموحدة .

وثانيها - (القافية المتنقلة) من روى
إلى روى بعد كل مجموعة من الأبيات
تناسب فى غرضها .

وثالثها - (القافية الموحدة) فى جميع
أبيات القصيدة الواحدة ، وقد صاغ أكثر
شعره عليها ، والتزمها الشعر فى جل
ما أثر من الشعر العربى .

وفى رأيسى أن الشاعر الفيلسوف قد
سجل فيما أسلفنا مجموعة من خواطره

الشاردة في فن الشعر ، وأنه لم يأت
بجديد يحسب له في مجالات التجديد ..
حتى القوافي « المرسلات » التي زعم أنه
استحدثها في الشعر العربي سبقه إليها
بعض الشعراء المعاصرين .

وكان عبد الرحمن شكري ، واحداً
من فرسان حركة التجديد في الأدب ،
وركنا من أركان المدرسة الحديثة في الشعر
العربي التي سميت خطأ «مدرسة الديوان» ،
وقد سبق أن رفضت هذه التسمية ،
وفندت حجة القائلين بها ، والمروجين لها،
وشرحت أسباب اعتراضى عليها مما لا
يتسع المجال لتكراره وإعادة أسباب
التحرر أو التجاوز في ذلك الإطلاق .
وقد آثرت تسميتها بالمدرسة الإنجليزية في
الأدب العربي التي تزعمها عباس محمود
العقاد ، وإبراهيم عبد القادر المازني ،
وعبد الرحمن شكري .

وما أريد أن استطرده إلى أكثر من
ذلك ، مع اعتقادي أنها استطرادات مفيدة ،
ولكننى أريد ألا أتجاوز حدود الموضوع

الذي أنا بصدد البحث فيه .

ولقد جمع شكري في ديوانه خمس
قصائد من الشعر المرسل ، وهذه القصائد
هي :

- (١) كلمات العواطف (ص ٨٥)
- (٢) الجنة الخراب (ص ٢٠٠) ،
- (٣) عتاب الملك حجر لابنه أمرئ القيس
(ص ٢٠١) ، (٤) واقعة أبو قير
(ص ٢٠٣) ، (٥) نابليون والساحر المصري
(ص ٢٠٥) ،

والحقيقة أن عبد الرحمن شكري لم
يلتزم الترسُّل في هذه القصائد ، بل إننا قد
نجد في القصيدة البيتين يتواليان على قافية
واحدة . وقد يزيد عدد الأبيات المتوالية
المقفاة على عشرة أبيات .

وللمازني قليل من ذلك الشعر المرسل ،
ومنه قصيدة عنوانها " إلى صديق " ،
وفيها يقول :

لا تَزُرْ إن قضيتُ قبرى ولا تب

بكِ عليه كسائر الأصحاب

من الظلّ في أكنافه الظلّ يُسَمُّ

أسائل نفسي أين أنت ؟ ومن أنا ؟

وأعجبُ مما أجتلي وأشاهدُ

وقد أحدث صنيع شكري والمازني

صدى في أعماق العقاد ، فيصفق

لصنيعهما تصفيقًا حارًا ، وإن لم يفعل

ما فعلا كما سنعرض لذلك بعد قليل .

ولا غروَ في ذلك ، فهما صديقاها الأثيران ،

وشريكاه في الحماسة لدعوة التجديد في

الشعر العربي ..

وقد وصف العقاد نفسه وزمليه بأنهم

« فتية لاعهد لهم بالجيل الماضي نقلتهم

التربية والمطالعة أجيالا بعد جيلهم ، فهم

يشعرون شعور الشرقى ويمثلون العالم

كما يتمثله الغربى . وهذا مزاج أول

ما ظهر من ثمراته أن نزعنا الأقلام إلى

الاستقلال ، ورفع غشاوة الرياء ، والتحرر

من القيود الصناعية ؛ هذا من جهة

الأغراض والأنساق . وأما من الروح

والهوى فلا يعسر على البصير أن يلمح

خلّ عنك الوفاء واسمعُ لد

اعى العذر فينا فلات حين وفاء

وقبيح أن تسحبَ الذيلَ مختا

لأً وتمشى على رقاب الصحابِ

مزعجًا بالسلام رُوحَ كريم

أنت غيَّته بجوف العراءِ

قد نضتْ منكم الليالى هواناً

ونفضنا أكنفا من غرامكُ

فدع السحبُ تسحبُ الذيلَ فينا

وتروى ثراى ، وامض لسانكُ

وللمازنى قصيدة أخرى عنوانها :

« لثمتُه » ، وقد جعل فيها لكل بيت

قافية ، وله قصيدة ثالثة مرسله القوافى

وعنوانها : « حواء والمرأة » وقد ترجمها

عن « الفردوس المفقود » للشاعر الإنجليزى

« ملتون » وفي أولها يقول :

وما أنسَ ذلك اليومَ لا أنسَ طيبهُ

وقد بعثتني من منامى المقادرُ

فالفيتنى وسنانهُ تحت وارفِ

مسحة القطوب للحياة في أسارير الشاعر
العصرى الحديث ، ويتفرد هذا القطوب
حتى في الابتسامة المستكرهه التى تردّد
أحياناً بين شفّته .

ويستطرد العقاد فيقول : وحسبُ
الأدب العصرى الحديث من روح
الاستقلال فى شعرائه أنهم رفعوه من
مراغة الامتهان التى عفرتُ جيئنه زمنا ،
فلن تجد اليوم شاعراً حديثاً يهنئ بالمولود
وما نفض يديه من تراب الميت ، ولن تراه
يطرى من هو أول ذامئيه فى خلوته ،
ويقذع فى هَجْوٍ مَن يكبره فى سريره ،
ولا واقفاً على المرائئ يودع الذهب
ويستقبل الأيب ، ولا متعرضاً للعطاء يبيع
من شعره كما يبيع التاجر من بضاعته ،
وما بالقليل من هذه الروح الشماء فى
الأدب أن تجهز على آداب المواربة والتزلف
بيننا ، أو تردّها إلى ما وراء الأستار ؟ بعد أن
كانت تنشد فى الأشعار ، وينادى بها فى
صحوة النهار !

وينتقل العقاد من الحديث عن أغراض

الشعر ومعانيه إلى بيت القصيد فيسبط رأيه
فى ضرورة تجديد قوالب الشعر وأشكاله
فيقول :

« ولا مكان للريب فى أن القيود
الصناعية ستجرى عليها أحكام التغيير
والتنقيح ، فإن أوزاننا وقوافينا أضيق من
أن تنفسح لأغراض شاعر انفتحت مغالِق
نفسه ، وقرأ الشعر الغربى فرأى كيف
ترحب أوزانهم بالأقاصيص المطوَّلة
والمقاصد المختلفة ، وكيف تلين فى أيديهم
القوالب الشعرية ، فيودعونها ما لا قدرة
لشاعر عربى على وضعه فى غير النثر .

ألا يرى القارئ كيف سهل على
العامّة نظم القصص المسهبة والملاحم
الضافية الصعبة فى قوالبهم المطلقة ؟ ولت
شعري بِمَ يفضل الشعر العامى الشعر
الفصيح إلا بهذه المزية ؟ !

ويشير العقاد بعد ذلك إلى صنيع
زميليه شكرى والمازنى فى إطلاق بعض
شعرهما من قيد القافية ، وهو تجديد
محدود ، فيرى أن صنيعهما ليس الغاية

المرتقبة التي يطمح الثلاثة إليها من وراء
تعديل الأوزان والقوافي وتنقيحها ، ولكنه
يعدُّ ما كان منهما بمثابة تهيئة المكان
لاستقبال المذهب الجديد ؛ إذ ليس بين
الشعر العربي وبين التفرع والنماء سوى
ذلك الحائل ، فإذا اتسعت القوافي لشتى
المعاني والمقاصد ، وانفرج مجال القول
بزغت المواهب الشعرية على اختلافها ،
ورأينا بيننا شعراء الرواية ، وشعراء
الوصف ، وشعراء التمثيل ، ثم لا تطول
نفرة الأذان من هذه القوافي ، لا سيما في
الشعر الذي يناجى الروح والخيال أكثر مما
يخاطب الحسّ والأذان ، فتألفها بعد حين ،
وتجتزئ بموسيقية الوزن عن موسيقية القافية
الواحدة ..

ويحاول العقاد أن يستظهر لرأيه بدليل
يدل على أن العرب لم تكن تنكر القافية
المرسلة في الشعر كما يتوهم المعاصرون ،
بل كان شعراؤهم يتساهلون في التزام
القافية ، ويورد لذلك مثالا من قول
الشاعر :

ألاهل ترى إن لم تكن أم مالك
بملك يدي أن الكفاء قليل
رأى من رفيقيه جفاءً وغلظةً
إذا قام يبتاع القلوص ذميم
فقال أقلاً واركبا الرحل إننى
بمهلكة والعاقبات تدور
فبيناه يشرى رحله قال قائل
لمن جمل رخو الملائم نجيب
ويقول إن بعض هذه القوافي ، كما
يراهنا ، قريبة مخارج الروى وبعضها
تتباعد مخارج حروفه ، ولو أتيح لهم
لتوسّعوا في القافية المرسلة وطرقوا في
موضوعات الشعر ما تتسع له هذه القافية
الفسيحة ، غير أنهم كانوا على حالة من
البداءة والفترة لا تسمح لغير الشعر
الغنائي بالظهور والانتشار ، وكانوا
لا يعانون مشقة في صوغ هذه الأشعار في
قوالبهم فلم يلجئوا إلى إطلاق القافية
ولاسيما في شعر يعتمد في تأثيره على
رنته الموسيقية ..

الطبع والتقليد فى الشعر العصرى " ، ثم سجله فى كتابه "مطالعات فى الكتب والحياة" ، الذى طبع سنة ١٩٢٤م .

وقد أبدى العقاد كما رأينا حماسة شديدة فى الدفاع عن ذلك الاتجاه والانتصار له ، والتمس له الأدلة المنطقية المقنعة من شعر القدماء ، ومن أحدث الآراء لِنُقَادِ الغرب ، وقد تنبأ العقاد لهذا الاتجاه بالبقاء والتفرع والنماء .

ولا بأس بهذا سواء أكان دافعه الرغبة فى نصره الصديق ، أم كان رأياً يؤمن به ، أو أملاً فى مستقبل الشعر العربى .

ولكن العقاد يفاجئنا فى عام ١٩٤٤م . أى بعد ثلاثين عاماً كاملة ، من نشر هذا الرأى ، فى مقدمة ديوان المازنى ، عام ١٩١٤م بنكوصه عن هذا الرأى وعدوله عنه ، بعد معاناة وتجارب أخفق فيها ، ولم يصل إلى ماكان يرجو ، فقد صرح أنه هو وصديقه المازنى كانا يشايعان زميلهما شكرى بالرأى فى إهمال القافية ، دون استطابة إهمال القافية بالأذان ، وأنه

ثم يقول إن مراعاة القافية والنغمة الموسيقية فى غير الشعر المعروف عند الإفرنج بشعر الغناء فضول وتقيّد لا فائدة منه ، ونعتقد أنه لا بد أن ينقسم الشعر على التدرج إلى أقسام ، يكون الشعر فى بعضها أكثر من الموسيقى ، فتزول أو تضعف هذه القيود اللفظية التى هى من بقايا الموسيقى الأولى فى الشعر . .

ذلك رأى العقاد الذى كتبه انتصاراً لصاحبه أو دفاعاً عنهما وقد رأى صنيعهما فى القليل من شعرهما الذى جنحاً فيه إلى إرسال القافية ، لا يمثل الهدف المنشود من التجديد الذى كان يطمح إليه الثلاثة الأنصار ، ولكنه يراه تمهيداً يفسح الطريق إلى ذلك الهدف من التحرر من قيود القوالب والأشكال التقليدية .

وقد نشر رأى العقاد كاملاً فى صدر الجزء الأول من ديوان الشاعر : إبراهيم عبد القادر المازنى ، الذى طبع سنة ١٩١٤م . تحت عنوان : "خواطر عن

هو نظم القصائد الكثر من شتى القوافى ، ولكنه طواها كلها لأنه لم يستسغها ، ولم يطق تلاوتها بصوت مموع ، وإن قل نفوره من قراءتها صامتة .

ولكنه - كما يقول - أراد إفساح الفرصة للتجربة ، عسى أن نكون النفرة عارضة لقلة الألفة ، وطول العهد بسماع القافية .

وأشار إلى أنه ، يوم كتب هذه المقدمة سنة ١٩١٤ م ، كان يحسب أن المهلة لانتشار القصائد المرسله لا تطول حتى تألفها الأذان وما هي إلا سنوات عشر أو عشرون ، ثم نستغنى عن القافية ، حيث نريد فى الملاحم والمطولات والمعانى الروحية التى لا تتوقف عن الإيقاع ، ثم ذكر أنه اليوم - سنة ١٩٤٤ م - بعد انقضاء ثلاثين سنة على كتابة تلك المقدمة لا يزال ينقبض لاختلاف القوافى بين البيت والبيت عن الاسترسال فى السماع ، ويفقد لذة القراءة الشعرية والثرية على السواء ، إذ هي لا تطرب بالموسيقى ولا بالبلاغة

المشورة التى لا تترقب فيها القافية بين موقف وموقف ، ولسهونا عنها بمتابعة القراءة .

ثم يقرر العقاد رايه الاخير فى التقفية الشعرية ، وهو رأى يقضى برفضه النهائى لما كان قد ارتضاه ودافع عنه بحرارة منذ عهد بعيد ، فيرى أن سلبقة الشعر العربى تنفر من إلغاء القافية ، كل الإلغاء ، وأن الأبيات الأربعة التى نقلها عن الشاعر القديم اختلف فيها حرف الروى ، ولم تختلف فيها الحركة فى جميع الأبيات للزوم الضمّ فيها جميعاً ، والضم حركة كالحرف فى الأذان ، وإن لم تكن مثله عند العروضيين والنحاة .

ثم يشرح العقاد أثر الألفة والارتياح إلى سماع القافية ، فيجعله يتفاوت بين مراتب ثلاث :

فالقافية تطرب حين تأتى فى مكانها المتوقع ، وإهمال القافية يصدّم السمع بخلاف ما ينتظر حين يفاجأ بالنعمة التى تشدّ عن النعمة السابقة . والمرتبة المتوسطة بينهما هي التى لا تطرب ولا تصدم ، بل

تلاقى السمع بين بين ، لا إلى الشوق
ولا إلى النفور . فانتظام القافية متعة موسيقية
تخف إليها الأذان .

وانقطاع القافية بين بيت وبيت شذوذ
يحيد بالسمع عن طريقه الذى اطرده عليه ،
ويلوى به لما يقبضه ويؤذيه .

إنما التوسط بين المتعة والإيذاء ، هو
ملاحظة القافية فى مقطوعة بعد مقطوعة
تتألف من جملة أبيات على استواء فى
الوزن والعدد ، أو هو ملاحظة الأزواج
والتسميط وما إليهما من النغمات التى تتطلبها
الأذان فى مواقعها ، ولو بعد فجوة وانقطاع .

وربما زاد هذا التصرف فى متعتنا
الموسيقية بالقافية ، ولم ينقص منها إلى
حد التوسط بين الطرب والإيذاء ، فالأذن
تملّ النغمة الواحدة حين تتكرر عليها
عشرات المرات فى قصيدة واحدة ، فإذا
تجددت القافية على نمط منسوق ذهبت
بالمثل من التكرار ، ونشطت بالسمع إلى
الإصغاء الطويل ، ولو تمادى عدد الأبيات
إلى المئات والألوف .

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن
القافية ومنزلتها فى الشعر العربى ، وهو
كما رأينا حديث مستنير يكشف عن المعرفة
الواعية ، وينم على الإدراك العميق لأصول
الفن الأدبى وأثره فى الإثارة والإمتاع .

وكان بوسع العقاد أن يركب الموجة
التي تتعلق بها المبحرون عن غير وعى
أو بصيرة ، يتبعون كل ناعق ، ويقلدون كل
من زعم أنه من المجددين ، ولا يدرون ما
إذا كانت هذه الموجة تسلك سبيل النجاة ،
أم تؤدى بهم إلى الغرق والهلاك !

ولكننا رأينا يسعى ويتأمل ويناقش
ويستثير ملكاته الأدبية ، ومواهبه الفنية ،
وحسه المرهف ، ويفلسف الأدب ويكشف
عن طبيعته وخصائصه ، وعن أهدافه
ومراميه فى مثل ذلك البيان الرائع ، وذلك
الأسلوب العلمى التحليلى الذى يبحث
عن الجذور ، ولا يتعلق بالفروع .

وما رأيت واحداً من العالمين بالشعر أو
بالعروض تكلم عن القافية فى الشعر العربى
بمثل ما رأينا من السعة والتفصيل ، واستكناه
الأصول الفنية ، وشرح أثر الحسّ والذوق فى
دعم الرأى الحرّ بالمنطق العلمى السليم .

وذلك ما نراه واضحاً فى جلّ كتابات
العقاد التى تناول فيها الحياة الأدبية والفنية ،
وموضوعات السياسة والاجتماع ، وأصول
العقائد والأديان ، وسير النابهين فى كل
مجال ، واستحق بذلك أن يكون فى طليعة
الأدباء والنقاد والمفكرين فى عالمنا الحديث .

بدوى طبانة

عضو المجمع

الجيولوجيا في الشعر

للأستاذ الدكتور / محمد يوسف حسن

* مقدمة :

ترك لنا في سجلاته الصخرية إلا هياكلها
أو حطام هياكلها لتتخيل منها كيف كانت
أشكالها ، وكيف كانت حياتها وعاداتها
في الأزمنة الغابرة .

وأما ما يصدر عن الأرض من ظواهر
وأنشطة هائلة تنم عما يعتدل في جوفها
وما يجيش فيه من قوى وأسرار دفينة
حُبست فيه من سالف الدهور ، وكيف
تنبعث هذه « التعبيرات » الماردة إن صحَّ
الاصطلاح ، كيف تنبعث على هيئة زلازل
وبراكين وتصدع للجبال وطى للصخور
كطى السجل للكتاب ، فذلك ما أخذ
بأنفاس الإنسان ، منذ وعى ما يدور حوله
في الطبيعة ، وما زال يأخذ بأنفاسه حتى
الآن فيعجز عن صدِّ أخطاره والاحتياط له ،
ويستحوذ على فكره وعواطفه جميعا ،
فينطلق عقله بالدرس لتفهم كنه هذه

الشعر وثيق الصلة بكل ما هو رائع
وفخم وجميل . والحق أنه ما من علم من
العلوم ، أو فن من الفنون إلا وله في عالم
الشعر آثار قلَّت أو كثرت من التجليات
والإبداعات التي تصوِّره وتحسن التعبير
عنه وتخلِّد روعته . والجيولوجيا
أو (علم الأرض) من أكثر العلوم الطبيعية
اتصالا بملكة الخيال والتصوير ، ذلك بحكم
دراستها للردح اللانهائي من الزمن أو التاريخ
الذي هو : عُمر الأرض ، والذي يبلغ
حسب أحدث الطرائق والحسابات
العلمية نحو أربعة آلاف وخمسمئة من
ملايين السنين (٠٠٠,٠٠٠,٤٥٠٠ سنة) ؛
وأيضا بحكم دراستها لتلك الأمم
اللانهائية من الأحياء التي كانت تعيش في
ثنايا ذلك التاريخ الفادح الطول ، ولم

الأنشطة والظواهر ، ويسبح خياله في تأملها وتسجيلها في إطار فنى يعبر فيه عما يكتنفها من أسرار وغموض ، وما تثير في نفسه من عواطف وتأملات وخيالات .

وهذا العالم الواسع الساحر من مهرجانات الصخور ذات الألوان والأشكال التى تنافس بل تفوق أحيانا فى عظمتها وجلالها وحبك هندستها ما عند عالم الطيور والفرشات والزهور من أشكال وألوان وزخارف ؛ دع جانبا ما تكتزه تلك الصخور فى ثناياها الخفية من أحجار كريمة وجواهر تُفتتن بها الجميلات الساحرات من بنات حواء فيستعرنها حلية يزددن بها جمالا وسحرا يفتن به الرجال .

وتلك الجزر المتفردة المنعزلة فى متاهات المحيط ، منها البركانية الناتئة من أغوار القاع ، ماتفتا بين الحين والحين تقذف بالحُمم والدخان إلى عنان السماء ، أو ترُجّ الأرض بالزلازل . ومنها ما هبط به القاع أو غمره الماء فكسته مراجين البحر حُللا وزخارف تنمو على شواطئه بنفس

معدّل الهبوط أو الغمر ، آيات من السحر والجمال والإعجاز . ومن هذه الجزر البركانية الهابطة ما تحلّق وشى المرجان حول رؤوسها المستديرة وحصر بداخلها بحيرات تامة الاستدارة كأنها أحواض سباحة مرده آيات فى الروعة والجمال ، وزينة وجاذبية لبحار الجنوب الدافئة تجعلها مزاراتٍ ومنتجعاتٍ مفضلةً عند السياح من عشاق جمال الطبيعة .

وهياكل الجليد الطافياتُ فى البحر كالأعلام ، وقارات الجليد البيضاء ، وأنهار الثلوج ، وأنهار الماء ، بل وأنهار الصخور التى تنساب فيها الصخور بدلا من المياه ! وتلك العيون والفوارات الباردة والحارة والشفافية بإذن الله . كل تلك معالم خلابة وجميلة وغامضة وساحرة تثير الخيال وتطلق أعتته بقدر ما تتحدى الفكر وتطلق أدواته للتحليل والتفسير .

هذا قلٌّ من كُثر ، بل لمحة خاطفة فقط من مظاهر عظمة الأرض ؛ فظواهرها وكنوزها وتاريخها عوالم غنية بمقومات

المتعة الفكرية والمتعة العاطفية جميعاً .
 فهل ربيّة بعد ذلك إذا قيل إن الجيولوجيا -
 من بين كل العلوم الطبيعية - أوثقها اتصالاً
 بعالم الجمال والسحر والخيال ؟ وأقدرها
 إيهاء وإلهاماً لبعض علمائها من محبي
 الجمال وعشاق الخيال ببدايع المعاني الفنية
 التي تعبر عن جوانب تلك العظمة التي
 تنطلق على ألسنتهم شعراً يضم العلم
 والفن آيات في الوصف والحكمة والتعليم
 والتسبيح وغيرها من الأغراض مما يمتع
 القلوب ويعجب العقول في آن واحد ؟

وقد اصطلح الأوربيون على تسمية ما

كتب من شعر في مجال علم الجيولوجيا
 بـ « الشعر الجيولوجي » (Geopoetry) ،
 والذي يتناوله هذا الحديث تحت عنوان
 « الجيولوجيا في الشعر » . والشعر
 الجيولوجي من أجمل المحاولات في
 وصف العالم الطبيعي وأكثرها تشويقاً
 وإمتاعاً لمتذوقي الفنون . وهو يمثل أكمل
 تفاعل حتى بين عالم العلوم الطبيعية وعالم
 العلوم الإنسانية . وهو موضوع على جدته

- ضخم فخم ، ومجاله حافل لا تمكن
 الإحاطة بكل جوانبه في مقال حدوده عدة
 صفحات . لذلك فحسبنا منه لمحات
 خاطفة ونماذج مختارة ؛ وحسبى منه أن
 أكون أول من يفتح أبواب البحث فيه
 للناطقين بالضاد ، فأغرى به من أصحاب
 الجيولوجيا منهم ، من يواصل البحث فيما
 بدأته ، ومن أصحاب الخيال والموهبة
 الشعرية من هؤلاء من يدلى بدلوه فيه حتى
 يكون لنا في هذا المجال تراث كما لغيرنا
 من الأمم فيه تراث .

** تصنيف الشعر العلمي وتعريفه

وقبل أن نبدأ في عرض النماذج
 وتحليل بعضها ، يحق لنا أن نتساءل : ما
 الشعر أولاً ؟ حتى نستطيع تحت مظلة
 التعريف أن نحكم على ما نسمعه من
 النماذج : أشعر هو أم لا ؟ وأنى لشخصي
 المتواضع والذي كتّب عليه القدر أن يتورع
 قلبه طوال حياته بين حيين في آن واحد :
 حب العلم وحب الفن ، فيقسم عمره
 كقلبه نصفين : نصف لهذا ، ونصف لذلك

على ما فى هذا من ظلم لكليهما وظلم
لنفسه وقلبه جميعا ؟ أتى لصاحب هذا
القلب والعقل الموزعين الحائرين أن يسعفه
التحصيل بصياغة تعريف موجز مناسب
لهذا المقام يكون فى الوقت نفسه شاملا
وشافيا ؟ والموضوع أصلا يتنافس فيه
المتنافسون من المختصين ويختلفون وحتى
فهم يتخاصمون ؟ لكنه يجرؤ أن يقول فى
بساطة وتواضع ورجاءٍ حار لصفح
المتخصصين يقول ، « إن الشعر كلام منظوم
بموسيقى متناسقة متناسبة ، يصدر عن
إحساس صادق وانفعال وجدانى بموضوع
ما ويخدم غرضا إنسانيا نبيلًا » .
وإذا كان النظم هو أول هذه العناصر
المطلوب توافرها فى الشعر ، فبدونه
لا يكون الكلام شعرا ، لكنه مع تحقيق
ذلك يتفاوت فى درجاته ، ولا يتكامل إلا
إذا تكاملت فيه العناصر التى سبق ذكرها ،
ويزيد فيه الإبداع مع كل زيادة من غير هذه
العناصر مما يتضمنه ما أسماه المختصون
بعمود الشعر . ومن الشعر الجيولوجى

درجات فى هذا المعراج تختلف مع موهبة
قائله ومع الغرض الذى عمل الشعر من
أجله .
والنظم - وهو أولى القواعد التى بنى
عليها الشعر - قد تبدت فائدته
للإنسان منذ القدم ، فاستغله وسيلة
لتثبيت المعرفة بالحفظ . وعلى حد تعبير
الدكتور طه حسين ، « فإن للشعر صفات
تعصمه من الموت القريب ، لا لمجدها فى
النثر ، وتلك هى الدروع المتقنة التى نسميها
الوزن والقافية والموسيقى والصور » .
لذلك فقد بدأ الإنسان منذ فجر التاريخ
ينظم من أفكاره وأحاسيسه ما يرجو له
طول البقاء وسعة الانتشار من أمثال
وحكم وأغانى للمهد وطلاسم وتعاويد
وغيرها ليسهل حفظها فى ذاكرة
الناس . ومن هذا المدخل لمجد ظاهرة
الالتجاء إلى النظم للاستعانة على الحفظ
قد تواترت فى الماضى فى كثير من العلوم .
وقد أدى هذا إلى نشوء ما أسماه (الشعر
العلمى) ، وهو نوعان :

كبيرا حتى أن جيرار دي كريمونا الأسباني
في القرن الثالث عشر الميلادي - وهو من
أشهر ناقلى العلم العربى إلى الغرب
وزعيم المهدين لعصر النهضة الأوربي ،
قد ترجم هذه الأرجوزة إلى اللاتينية
فتداولها طلبة الطب فى أوروبا حتى القرن
السابع عشر ، وكانوا يتبارون فى حفظها
كسمة من سمات النبوغ فى المهنة . كما
أنها ترجمت مؤخرا إلى الفرنسية
والإنجليزية كإحدى نفائس تاريخ العلم .

وقد ألف ابن سينا أرجوزته فى الطب
فى القرن العاشر الميلادي وبذلك فهى أقدم
من أقدم أثر مشابه فى الإنجليزية أو أى لغة
أوروبية بنحو ثمانية قرون ؛ وذلك الأثر
هو ديوان إيرازموس داروين فى الطب
وعلم التاريخ الطبيعى ، وقد وضعه فى
القرن الثامن عشر .

وإيرازموس هذا هو جد تشارليس
داروين عالم التطور الأشهر . ولاشك أن
أرجوزة ابن سينا وترجمتها اللاتينية المعروفة
باسم Cantica Avicennae هى التى

١ - الشعر العلمى التعليمى (Didactic Scientific Poetry)
ويكاد لا يتحقق
فيه من شروط الشعر إلا النظم لغرض
تسهيل الحفظ .

٢ - الشعر العلمى الفنى (Artistic Scientific Poetry)
وتتفاوت درجات
كماله بتفاوت ما يتحقق فيه من شروط
عمود الشعر .

ولعلم الجيولوجيا من كلا النوعين حظ
وافر أكثر مما لغيره من العلوم الطبيعية .

ومن أشهر وأقدم الشعر العلمى
التعليمى على إطلاقه فى العربية ألفية
ابن مالك فى النحو ، وقد تلتها ألفيات
أخرى بعضها فى النحو وبعضها فى العلوم
التطبيقية وبخاصة الطب ، وأشهر هذه
على الإطلاق ألفية ابن سينا فى « حفظ
الصحة » التى مطلعها :

« الطب حفظ صحة ، بُرء مرض .»

من سبب فى بدن عنه عرض «

وقد بلغت أهمية هذه الأرجوزة شأوا

أوحى إلى إيرازموس بهذا العمل . وهناك
أمثلة رائعة من الشعر العلمي التعليمي في
الجيولوجيا نرجى عرضها حتى نستوفي
تعريف الشعر العلمي الفني ، ثم نستعرض
الأمثلة الجيولوجية من النوعين .

وبالنسبة للشعر العلمي الفني ،
فلا بد لنا أيضاً من تعريف ؛ فالتعريف
دائماً هو « بوصلة » الدراس في بحار
علمه . فنقول إنه بالإضافة إلى مقومات
الشعر التي ذكرناها في صدر هذا الحديث ،
فإن هذا النوع من الشعر يمتاز بأنه التعبير
الفني عما يجيش بنفس ناظمه من
أحاسيس وأفكار أو حكم مستوحاة من
مجال تخصصه العلمي أو من مهنته . وقد
يستوحيه من بيئته الطبيعية أو الاجتماعية
بصرف النظر عن تخصصه . وأمثلة هذا
الشعر في العربية قديمة جداً ترجع إلى
العصر الجاهلي ، ومنها ما ورد في
المعلقات نفسها . وإليك مقطوعتين
طرفيتين إحداهما في البيولوجيا والأخرى
في الجبر . فالأولى لطرفة بن العبد ،

وهي وصف تشريحي لأجزاء مختلفة من
جسم الناقسة في ستة وثلاثين بيتاً نقتبس
منها البيتين التاليين في الجمجمة والقلب .
يقول طرفه :

« وجمجمة مثل العلاء كأنما

وعى الملتقى فيها إلى حرف مبرد

وأروع نباض أحد مللم

كمرداة صخر في صفيح مصمد »

أما المقطوعة الثانية فللنابغة الذبياني

صاغ فيها معادلة جبرية يونانية قديمة ،

حيث قال :

« واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت

إلى حمام سراع وارد الشمد

قالت : ألا ليتما هذا الحمام لنا

إلى حمامتنا مع نصفه فقد

فحسبوه فالفوه كما ذكرت

ستا وستين لم تنقص ولم تزد .

فكملت مئة فيها حمامتها

حسبة حقة في ذلك العدد »

ومؤدى هذه الأبيات هو المعادلة

$$س + \frac{س}{٤} + ١ = ١٠٠$$

ومن الأمثلة المستوحاة من المهنة

العلمية نورد أبياتاً طريفة من الشعر العلمى

لبديع الزمان الأسطرلابى من القرن الثانى

عشر الميلادى ، وكان رياضياً فلكياً على

معرفة بعلم « الآثار العلوية » أو ما يسمى

الآن علم الميورولوجيا . وهو شعر جيد

لولا ما فيه من بعض التكلف اللفظى ،

قال يمدح الخليفة :

« أهدي لمجلسك الشريف وإنما

أهدى له ما حزت من نعمائه

كالبحر يطره السحاب ، وما له

من عليه ، لأنه من مائه »

وقال يتغزل :

« وذو هيئة يزهو بخال مهندس

أموت به فى كل حين وأبعث

محيط بأوصاف الملاحه وجهه

كأن به إقليدس يتحدث

فعارضه خط استواء وخاله

به نقطة ، واخذ شكل مثلث »

*** نماذج جيولوجية :

لم تكن الجيولوجيا معروفة كعلم

مستقل عند العرب فى تاريخهم القديم

ولا حتى فى العصور الذهبية للعلوم

الإسلامية ، وحتى فى أوروبا فلم تعالج

كعلم مستقل حتى أواخر القرن الثامن عشر .

ولكن بعض موضوعاتها كانت تأتى عرضاً

فى ثنايا الكتابة عن العلوم الأخرى .

وكذلك الحال بالنسبة لها فى التراث

الشعرى العربى ، فهناك أبيات متفرقة

تعالج موضوعات متصلة بالأرض ومعالمها .

وحتى الشعر الجاهلى لا يخلو من أمثلة

طريفة فى هذا المجال كان الشاعر يستعين

فيها على أداء غرضه بتشبيهات رائعة من

بعض مظاهر الطبيعة وأحوال الصخور ،

فهى من عناصر بيئته الأصلية التى برع فى

تصويرها . وإن أقدم مثال منها هو بيت

امرىء القيس الشهير فى معلقته « قفا نيك »

حيث قال يصف حركات فرسه :
« مكرٌّ مفرٌّ مقبلٌ مدبرٌ معاً »
كجلمود صخر حطه السيل من عكٍ »
وقد راح يستطرد في القصيدة بعد
ذلك بأبيات أخرى هنا وهناك يتفنن فيها
بتشبيهات من أحوال الأرض والصخور
كقوله :

« كميت يزل اللبد عن حال متنه
كما زلت الصفواء بالمتنزل »
أو كقوله :

« مسحٌ إذا ما السابحات على الونى
أثرن غبارا بالكديد المركل »
ومن معلقة عمرو بن كلثوم نرى
أبياتا تناولت أنواعا كثيرة من الحجارة
والأراضى ومقاسم المياه وغير ذلك ، وهي
التي مطلعها :

« لحولة أطلال ببرة نهد
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد »
ومنها :

وتبسم عن ألى كأن منورا
تخلل حر الرمل دِعص له نَدِ .
ومنها :

« أحلتُ عليها بالقطيع فأجذمت
وقد خَبَّ آل الأمعز المتوقدِ
وأيضاً :

« ولست بحلال التلاع مخافةً
ولكن متى يسترقد القوم أرفدِ »
وفى الأبيات من التشبيهات المستمدة
من علم بطبيعة الصخور والأرض ما تحمله
كلمات : البرقة والدعص والامعز والتلاع
. . . إلخ .

ومن شعر كعب بن زهير يعجبني في
هذا المجال قوله :

« شُجَّتْ بلدى شَبِّم من ماء مَحْنِيَةٍ
صافٍ بأبطح أضحى وهو مشمول
تنفى الرياح القذى عنه ، وأفرطه
من صوب غادية ، بيضٌ يعاليل . »
فالمحنية منعطف الوادى حيث يرتطم
الماء بأحد جوانبيه فيرسب ما هو عالق به

من فتات الصخور فيصفو ، والأبطح :
مسيل الماء به دقاق الحصى ، والبيض
اليعاليل : الجبال البيضاء صخورها من
المرو أو الطباشير إذا فاض منها الماء أتى نقيا
ليس فيه تراب . والمجال فى القصيدة كما
هو معروف استهلال غزلى للمديح ، وقد
وجد الشاعر من بيئته الطبيعية وما بها من
صخور وجبال وأودية ومياه مادة خصبة
لتشبيهاته واستعاراته فى وصف ثغر الحبيب
وظلمه ولؤلؤ ثناباه !

ويعجبني أيضاً قول سلامة بن جندل:

« حتى تركنا ، وما تُثنى طعائنا

ياخذن بين سواد الخط فاللوب »

وقول الحارث بن حلزة اليشكرى :

« ليس ينجى موثلا من حذارٍ

رأس طود ، وحرّة رجلاء »

فاللوب والحرار جمع لابة وحرّة ،

أصقاع من صخور سوداء غليظة عسيرة

يتعذر المشى فيها فيتحصن بها الهاريون ؛

وتلك ما نسميها اليوم الصخور الحُممية

البركانية (lava flows) ؛ وأحدس أن
كلمة lava الإفرنجية مقترضة من كلمة
لابة العربية . ولكن ألا ترى معنى مدى
خبرة شاعرنا العربى القديم فى التمييز بين
أنواع كثيرة من الصخور وطبائع وجودها
وصفاتها حتى أنه يستعير منها المناسب تماما
للغرض الذى يرمى إليه فى شعره ؟
وأتوسم لو جمعت كل الألفاظ ذات
الدلالات الجيولوجية من شعرنا القديم
لتجمع منها قاموس لا بأس به يعين على
تخير المصطلحات التى تساعدنا على
الترجمة والتأليف الجيولوجى .

لكن أجمل ما قيل من شعر عربى فى
موضوعات جيولوجية حقة عند القدماء
ماورد من أبيات قيمة فى لزوميات أبى
العلاء المعرى وفى ديوانه « سقط الزند » ،
وقد تناولتها فى بحث سابق عن
« النزعة العلمية فى شعر أبى العلاء
المعرى » (مؤتمر مجمع اللغة العربية رقم
٢٤ عام ١٩٧٥/٧٤) . ومن شعر القدماء
أيضاً المستوحى من موضوعات جيولوجية

أقتبس هذه المقطوعة عن الزلزال لشاعر من القرن الثالث عشر الميلادي هو أحمد بن يوسف التيفاشي صاحب كتاب « أزهار الأفكار في جواهر الأحجار » وغيره من الكتب الممتعة ، يقول :

« أما ترى الأرض في زلزالها عجباً

تدعو إلى طاعة الرحمن كل تقى

أضحت كوالدة خرقاء مرضعة

أولادها درّ ثدى حافل غدق

قد مهدتهم مهادا غير مضطرب

وأفرشتهم فراشا غير ماقلق

حتى أبصرت بعض الذى كرهت

مما يشق به الأولاد من خُلُق

هزت بهم مهدهم تشأ تنهتهم

ثم استشاطت وآل الطبع للمخرق

فصكّت المهد غضبى وهى لافظة

بعضا على بعضهم من شدة البرق »

ولست أعرف من بعد ذلك حتى

العصر الحديث شعرا عربيا مستوحى من

أغراض جيولوجية برغم ذبوع هذا العلم وانتشاره أخيرا فى العالم العربى منذ أكثر من سبعة عقود .

أما فى الغرب ومع حلول عصر النهضة ، فإن ما واكبها من كشف علمية مدهشة قد فجر الموهبة الشعرية عند بعض العلماء الشعراء ، وفتح آفاقا واسعة موحية بالشعر العلمى بنوعيه . وجاء أجمل هذا الشعر فى مجال الجيولوجيا ، ولو أنه لم يعرف قبل القرن الثامن عشر . ولقد كتبت فيه قصائد بأسرها (تعليمية أو فنية) نشرت فى بعض الصحف والمجلات ، كما كتبت فيه بعض المقطوعات التى صدرت بها الكتب واستفتحت بها فصولها . ومعظم هذه القصائد لها أهداف اجتماعية أو سياسية أو فكاهية ولكن بالتورية الجيولوجية . ومن هذه القصائد ما هو لجيولوجيين شعراء معروفين ، ومنها ما هو لمجهولين ، ومنها ما هو لأناس شعراء عاشروا الجيولوجيين وافتنوا بمهنتهم . ولدى باقة جميلة من هذه القصائد أغرمت

معى مبررات المؤلف فى مقدمة الكتاب
عن الدافع لكتابة هذا العمل شعرا ،
وأقتبس من هذا فقرة واحدة فيها يقول :

" To attempt a work of this kind
in rhyme is, I know a bold experi-
ment. But, however severly scientific
in some of its respects , the story of
Geology is truely the most enchanting
story in the world , and rhyme may
well be regarded as an appropriate
form in which to present it " .

وانظر كذلك إلى إهداء المؤلف كتابه
إلى الطبيعة بهذه المقطوعة من الشعر
العلمى الرائع :

To NATURE

How fair, O Nature are thy looks

In these thy matron days,

And with what light a heart than
seem'st

To tred thy thorny ways.

Man sees thee joying in thy life ,

بعضها فترجمته شعرا إلى اللغة العربية ،
وسأعرض بعضا منه فى آخر هذا البحث .
وبعض ما يضمه التراث الشعرى
الجيولوجى الحديث بالإنجليزية كتب بأسرها
ليست على هيئة دواوين كالعادة ولكنها
جمعت فى رشاقة وإتقان بين الشعر
التعليمى والشعر العلمى الفنى فى آن واحد .
ومن هذه عمل خالد فريد فى بابيه صدر
فى عام ١٩٠٥ فى ٢٥٠ صفحة من القطع
الكبير و ٧١ لوحة بعضها بالألوان ،
ويعالج التاريخ الجيولوجى للأرض بشعر
علمى رائع من الناحيتين : العلمية
والشعرية ويلوحات ورسوم غاية فى
الإبداع الفنى والدقة العلمية . ذلك هو
كتاب : « من السديم إلى الإنسان »
(Nebula to Man) لمؤلفه الجيولوجى
هنرى نايب (Henry Knipe) . ولقد
أسعدنى الحظ حقا فى إحدى جولاتى
بالمكتبات المتخصصة فى بيع الكتب القديمة
بلندن أن أقع على نسخة من هذا الكتاب
تضمها مكتبتى الخاصة بين تحفها . وتأمل

(Long fellow) تهتة لصديقه
رائد علم المثالج المشهور
ومستكشف الآفاق المجهولة لوز
أجاسيز (Louis Agassiz)
بالحفل الذي أقيم للأخير بمناسبة
عيد ميلاده الخمسين ، وكان ذلك
بتاريخ ٢٨ من مايو عام ١٨٥٧ ،
يقول لونج فيلو :

It was fifty years ago ,
In the pleasant month of May.,
In the beautiful Pays de Vaud,
A child in its cradle lay.
And Nature, the old nurse took.
The child upon her knee
Saying : " Here is a story-book
Thy father has written for thee "
" Come wander with me, " she said "
Into regions yet untrod'
And read what is still unread
In the manuscripts of God. "

So full, so fresh , so free,
And if thy toil in ages past,
Had nothing been to thee.
And well may be , beneath thy spell,
Forget thy inner life.
The waste and suffering in thy breast,
And never - ceasing strife,
Or if so be he needs must think
Of all the tumult there,
He knows at least one end it has ,
To make thee grow more fair .

وعسى أن تسمح الأيام بعودة إلى هذا
الكتاب في دراسة مستقلة تقتصر عليه
لإبرار قيمته العلمية والفنية وعرض لبعض
روائعه من الشعر والرسوم .

والآن إلى بعض نماذج مختارة من
الشعر الجيولوجي بالإنجليزية والعربية :

(أ) هذه مقطوعة رائعة من الشعر
الجيولوجي الإنساني العاطفي ،
ألقاها الجيولوجي لونج فيلو

عندما قلت في « سقط الزند » في نفس
المعنى :

« ويقال : إن البحر غاض وإنها

ستعود سيفاً لُجّة الرّجّاف !

وقولك أيضا :

« ويقال إن مدى الليالي جاعلٌ

جبلاً أقام كزائحر مَوارٍ »

هل أطلع تنسيون يا أبا الغلاء على
تراثك العظيم ، أو أنه توارد الأفكار عند
الرجال العظام !؟

(ج) وهذه قصيدة جيولوجية طريفة
في غرض اجتماعي وعنوانها

(The Geologist's Wife)

« زوجة الجيولوجي » ، وهي لشاعرة
مجهولة من القرن التاسع عشر
قالتها في وداع زوجها وهو
يستعد للقيام برحلة جيولوجية ،
وقد قمت بترجمتها شعراً إلى
العربية ، وهذان هما النصان :

To Her Husband Setting Off Upon

(ب) واستمع معي إلى ماثورة تنسيون

(Tennyson) الرائعة عن تأملاته في

نظرية إغارة البحار وانحسارها وتبادل

البر والبحر مواقعهما عبر التاريخ

الجيولوجي . وتنسيون من أئمة

الشعراء الإنجليز ولم يكن من علماء

الجيولوجيا ، يقول :

There rolls the deep sea where
grew the tree,

O , Earth what changes hast thou
seen !

There , where the long street
roars has been.

The stillness of the central sea

ولله دركٌ يا أبا الغلاء ، فلست تكلني

إلى الترجمة عن تنسيون عندما قلت في

لزوميّاتك ، قبل تنسيون بنحو تسعمائة

عام :

« أجبلتِ الأبحرُ في عصرنا

هذا ، كما أبحرتِ الأجبُلُ »

لله دركٌ قد ضمنت كل هذا المعنى

العلمي الكبير في بيت واحد ؛ وكذلك

And climb the raised beaches, my
own love , with thee.

★ ★ ★

Me, too , you'll remember, for love
claims no less,

And all your proceedings a fondness
confess;

Each level you take , be it not from
the sea ,

But above the dear place where your
Susan may be.

★ ★ ★

Let everything mind you of tender re-
lations—

See, even the hard rocks have their in-
clinations!

Oh, let me believe that , wherever you
roam,

The axis of yours can be no where ,
but home !

★ ★ ★

And if in your wanderings , you
chance to be led.

To Ross-Shire or Moray, to see the
Old Red,

An Excursion :

A dieu then , my dear , to the High-
lands you go ,

Geology calls you, you must not say
no :

Alone in your absence, I cannot but
mourn ,

And yet it were selfish to wish your
return.

★ ★ ★

No , come not until you have searched
through the gneiss,

And marked all smoothings produced
by the ice,

O'er granite - filled chinks felt
Huttonian joy,

And measured the parallel roads
of Glen Roy.

★ ★ ★

Yet still as from mountain to moun-
tain you stride,

In visions I'll walk like a shade by
your side;

Your bag and your hammer I'll carry
with glee,

بعذرٍ يعوقك ؛ لابل بنجح لزوجي
الدؤوب

فلا ، لاتعد لي قبل اكتشاف مفيد
لخام ثمين : فإما نحاس وإما حديد ،
وإما شواهد نفضٍ وغبار ،
تمنى بلادي بعيش رغيد ا

كأني أراك بروحي تجوب الجبال ،
فأحلم أني كطيفٍ وراءك يقفو خطاك
أقلُّ الوطاب ، وأرقى الشعاب
بكل اهتمام ، وكل حبور
أحاول ، مثلك ، جمع الصخور ،
وأنت تراني كأني أجنى الزهور ا

وأنت هناك ، لفرط هواك ، ستذكر
' ليلي ' بكل غرام ، وكل هيام ،
وكل افتخار فتنسب كل ارتفاع لأرضي
تقيم عليها الحبيبة ' ليلي '
وليس لسطح البحار ا

Oh still , as its mail - covered fishes
you view,

Remember the colour is love's proper
hue.

Such being your feelings, I'll care not
although

You're gone from my side - for a fort-
night or so;

But know , if much longer you leave
me alone,

You may find , coming back you have
two wives of stone

وقد قمت بترجمة هذه القصيدة بتصرف
إلى العربية ، وهذا نصها :

زوجة الجيولوجي

وداعاً ، وداعاً ،

شريك حياتي ، وزوجي الحبيب ،
دعتك الجيولوجيا لبحث جديد
فلابد أن تستجيب ا

غيابك عن فراغٍ مُضٍ وجو كئيب ،
ولست - برغم شعوري هذا ،

أمنى فؤادي

فتأتى لتلقى هنا زوجتين تطيقان هذا
فواحدة من بزكت ، وواحدة من رخام .
(د) والقصيدة التالية عنوانها
(The Coal and The Diamond)
«الفحم والألماس» ، وهى لشاعر
أمريكى مجهول من القرن التاسع
عشر كتبها فى غرض اجتماعى
إنسانى فلسفى ؛ فى حوار
على لسان قطعة من الفحم
وبلورة من الألماس . وهذا هو
النص الإنجليزى للقصيدة :

The Coal and The Diamond

A coal was hid beneath the grate,
('T is often modest merit's fate;)
'T was small, and so perhaps for-
gotten;
Whilst in the room and near of size,
In a fine basket lined with cotton,
In pomp and state a diamond lies.
" So , little gentleman in black "
The brilliant spark in anger cried,
"I hear in Philosophic clack," .

تأمل حواليك فى كل شىء جميل ،
تجده ينادى بأن الغرام سُكول
فحتى الصخور تأمل تجدها
كمثل الأناسى ذات مُيول ا

تسلق ، وجل حيث تبغى
فمهما ذهبت فليس فؤادى غيور،
لائى أراك كمثل الكواكب مهما تغور،
تعود إلينا دواما سناءً ونور .

عرفتكَ تهوى الصخور الجميلة ،
هواك لزهر الخمييلة ،
وورد الخلود الأسيلة ،
وسحر العيون الكحيلة ،
وتلك جميعا فنون أصيلة ،
وكل مجال بها قد حذقت أصوله ا

لذا ليس يقلقنى أن تغيب قليلاً،
ولكنّ خوفى من أن تُطيل هناك المقام،

Of his own real use aware,

He only answered with a sneer;

I scorn your taunts, good Bishop

Blaze,

And envy not your charms di-

vine;

For know I boast a double praise,

As I can warm as well a shine.

Our families are close allied :

But Know the splendor of my

hue,

Excelled by nothing in existence,

Should teach such little folks as

you,

To keep a more respective distance

At these reflections on his name,

The coal soon reddened to a flame :

وهذه هي الترجمة إلى العربية :

الفحم والألماس

قد توارت في رمادٍ لاتبين

ر ، والإنكار ، والوضع المهين

تزدهى ألماسية في سلة

تستوى فوقه كالملكة

لا تغالى في التعالى والصلف

واحد مثل اللالى والصدف

كذب القائل إنا أقرباء

الذى قالوا لإفك وهراء

كسرة من فحمة في موقد

حظها في ركنها النسيان في الدا

وعلى مقربة في الغرفة

بفسراش من نديف ناصع

قالت الفحمة للألماسة

إن أهل العلم قالوا : أصلنا

صاحت الألماسة في الفحمة :

إلزمى حردك ياسوداء إن

مَسَّتْ مَحِينَاهَا بَلْفَحِ مِنْ شَرِّ
جَمْرَةً رَمِضَاءَ وَالْوَجْهَ أَكْفَهْرَ

« ذَاكَ جَهْلٍ مِنْكَ يَا الْمَاسَّةُ
أَصْلَنَا الْكَرْبُونَ يَا مَغْرُورَةُ »

يَخْطِفُ الْأَبْصَارَ أَوْ يَسْبِي الْعَيْونَ ؛
تُ، شَعَاعَا يَمْنَحُ الدَّفَاءَ الْحَنُونَ «

واقطع لك منها مقطوعات قليلة:

To Make Granite

**Of Felspar and Quartz a large quantity
take,**

**Then pepper with Mica and mix up
and bake.**

**This granite for common occasion-is
good;**

**But on Saint-days and Sundays, be it
understood,**

**If with bishops and lords in the state
room you dine,**

**Then sprinkle with Topaz , or else
Tourmaline.**

كسرة الفحيم كأن النار
فاستحالت من سواد فاحم

ثم ردت باحتقارٍ وألمٍ
نحن أختان ، وإن أنكرتني ،

قد حباك الله ومضاً وسناً
وحباني فوق هذا ، إن حَمِي

(هـ) أما هذه فمجموعة من الشعر

الجيولوجي الفكاهي ، ولو أن

القصد الأول منها تعليمي ،

فانظر معي كيف يهدف

الجيولوجي الشاعر إلى ترسيخ

المعلومات عن طبائع الصخور

وتركيبتها في ذهن دارس

الجيولوجيا مستعينا على ذلك

بعاملين للتحفيظ : الأول الصياغة

الشعرية ، والثاني روح المرح ،

ويظهر ذلك في عسنوان

المجموعة بجلاء ، إذ

يسمونها «الطهو الجيولوجي»

(Geological . cookery)

Till the parts stick as Firm as if fastened by glue.

(و) وهذه قصيدة إنسانية اجتماعية مؤثرة

بعنوان « فتى المنجم »

The Miner lad

Nay, don't despise the Miner-lad,

Who burrows like the mole;

Buried alive from morn to night,

To delve for household coal-

Nay, miner-lad, ne'er blush for it,

Though black thy face be, as the pit!

* * *

As honorable thy calling is,

As that of hero lords,

They owe to the poor Miner-lad

The ore that steels their swords-

And perils, too, as fierce as theirs.

In limb and life, the Miner shares!

* * *

Ye gayest of the gaudy world,

In gold and silver bright,

Who, but the humble Miner-lad,

Your jewels brought to light?

To Make Porphyry :

Let silex and Argil be well kneaded down,

Then colour at Pleasure, red, , grey, green, or brown;

When the paste is already, stick in here and there

Small crystals of Felspar, both oblong and square.

To Make Puddingstone :

To vary your dishes, and shun any waste,

Should you have any left of the very same paste,

You may make a plum - pudding, but then do not stint The quantum of pebbles - chert, Jasper, or Flint.

To Make A Good Breccia With A Calcareous Cement :

Break your rocks in sharp fragments , preserving the angles ;

Of. Mica and Quartz you may add a few spangles:

Then let your white batter be well filtered through,

Then don't refuse the Miner-lad
The crust of bread-his prayer!
Beneath the blackest face of his.
He hides a heart as fair!
The toil of his bare brawny arm ,
All, All our hearts and houses warm!

(ي) واختتم هذه النماذج بقصيدة
جيولوجية ذاتية كنت قد كتبتها
في عام ١٩٨٢ عندما عُينت
للمرة الثانية عميداً لكلية
العلوم وآثار هذا بعض
الحاقدين فتعرضتُ لحملة
افتراءات ظالمة منهم فسريت
عن نفسي بهذه الزفرة التي
أسميتها « طلاع الثنايا » :

Where would be your gold and silver,
But for yonder delver ?

Ye brows of pearly diadems,
Who sit on lofty thrones,
Smile gently on the Miner-lad.

Who wrought your precious
stones.

And rescued from their iron bond,
The ruby and the diamond!

Ye instruments of brass, that pierce

The ear with trumpet sound,

Your notes, but for The Miner-lad,

He slumbered under ground-

Nor imaged bronz , nor brazen gate,

Had graced the trophies of the great!

تخرس حُسادى على ورددوا
فقالوا : « لهذا منصب ناله فما
وقالوا : « أحيى المرء قلوبين ، واحدا
فلا ، لا يهاتر هؤلاء جهالة
ولست بهاج ، بل مبین حقائق
فإن لهم عذراً ، ولست ألومهم
أساء إلى قدرى قبولى خطابهم
فلانى أجيب الصنعتين ، تراهما
قضيت شباب العمر درسا وشيبه
فكنت جُلوجياً ثلاثين حجة
وقد دان لى علم الصخور مسلماً
دأبت أجوب الأرض أكشف خباها
ذرتُ الهضاب الوعر أرقى شعابها
وكم قلدت رحلات بدشت غليظة
وكم جبتُ أصقاعاً تجمد ماؤها
وبينهما كم من جبال رقيتها
وأخرى تئات فى قلوب مهامه
ومازلت طلاع الثنايا أرومها
ففى أدبى طوراً ، وطوراً بمهنتى
وفى مجمع للخالدین يلىق بى

أراجيف فى حقى للمز مقاميا
بيا ، وهم لا يعلمون كفاحيا
لعلم ، وللآداب والفن ثانيا ؟
فلانى إذا أهجنو أليم هجائيا
تدين افتراءً منهم وتجنيا
على جهلهم قدرى ، فليسوا لداتيا
وأنى لغوغاء بفهم خطابيا ١٩
لدى أفانينا ، وطوع بنانينا
لحدقهما حتى ملكت النواصيا
وسبعماً ، دؤوباً ، لايشق غباريا
عنانا ، وفى الآداب كنت مجلياً
لنفع بلادى كى تحور الأمانيا
وأعبر أكاما ، وأطوى بواديا
يعالج شاكوشى صخوراً عواتيا
وأخرى حراراً فى الصعيد العمانيا
بصحراء سينا ، والصعيد النوييا
وفى كل تيه كم ضربت خياميا
وفى كل أعمالى أروم المعاليا
لمعت ، وأثارا تركت بواقسيا
مكاني ، فكرسى العميد* مكانييا

محمد يوسف حسن

عضو المجمع

* كرسى المغفور له الدكتور طه حسين الذى اشغله بمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ عام ١٩٧٤ ٤٣

الأساس الإسلامي للعلم العالمي

حضارة سدأها الإسلام ولحمتها العلم

للأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد

على أية حال- بالعلم بمعناه الشامل العام.
والأمم ماض وحاضر ومستقبل :
أصول جذورها مستمدة من ماضيها ،
وجهودها مبذولة لحاضرها ، وتطلعاتها
متوجهة إلى مستقبلها . وتفضل أمة من
الأمم إن هي جهلت ماضيها أو تناسته ،
فتصبح كالشجرة غير ثابتة الجذور إذا
عصفت بها الأنواء . وتعرفُ الجواهر
وتقدير التراث ينبغي أن يقوم على أسس
موضوعية رصينة ، منزهة عن التفاخر
الأجوف والمبالغة الخرقاء . ولسنا - بفضل
الله - في حاجة إلى شيء من هذا ، فكل
دراسة مدققة متأنية سوف تثبت ، بما لا
يدع مجالاً للشك ، أن أممتنا أرست
القواعد والأصول ، وأنا كنا صناع علم ،
بل كنا قاداته لعدة قرون ، ومن ثم لا نشعر
بغربة ونحن نستورد العلم ومنجزاته هذه
الأيام ، فإنما هي بضاعتنا تُرَدُّ إلينا ،
فتناولها في ألفة واستيعاب ، ونسهم في
تقديمها إسهام الأصلاء ، لا الغرباء
الدخلاء .

إن أفضل وأوجب ما ينبغي على
المسلمين اليوم ، وهم في مهبِّ رياح عاتية ،
هو أن يجددوا تعرفهم جوهرَ دينهم الذي
قدم للبشرية حضارة نقية تقية ذات طابع
فريد ، مازالت وريثتها الغربية تزدهر إلى
اليوم ، ولكن بصورة جموح هوجاء وفي
غير بلادهم . وحضارة الغرب تلك
السائدة الآن هي حضارة علمية في أساسها
فنحن نعيش الآن عصر العلم ولا شك ،
نعيش معه في كل لحظة ، نستمتع بشماره ،
ونكتوى للأسف أيضا بناره . فلنُسِّم عصر
الطاقة النووية ، أو عصر الإلكترونيات ،
أو عصر غزو الفضاء أو عصر التكنولوجيا
البيولوجية ، أو البيولوجيا الجزيئية
والهندسة الوراثية . . . ولكنه عصر العلم
والتكنولوجيا أو التقانة المتولدة عنه ، على
كل حال . . . ولذلك ، ويحكم اختصاصي ،
سوف أقصر كلامي على التراث العلمي
الإسلامي ، في حين تجلَّى الدراسات
القيمة الأخرى الجوانب الزاهرة والمتعددة
من حضارة الإسلام ، وهي مرتبطة كلها -

والحديث في هذه الأمور يطول ، وتنظم له مؤتمرات ، وتؤلف مجلدات ، وتنشر دوريات . ولكن لعله يكفيني في هذه الدراسة الموجزة أن أجمل بعض الأساسيات ، وأن أوضح أن ازدهار العلم في دولة الإسلام ، التي امتدت يوماً من مشارف الصين شرقاً إلى مشارف فرنسا غرباً ، لم يكن نتيجة مجرد ارتباط جغرافي أو سيادة تاريخية ، بل كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالإسلام نفسه ، كشرعية ومنهاج حياة ، وأن الإسلام جاء متضمناً في صميم مبادئه عناصر أثرت تأثيراً بيناً في نشأة العلم الإسلامي وصياغته على نحو فريد متميز تميزاً نوعياً عن التراث العلمي الذي سبقه ، بل حتى عن العلم العالمي المعاصر الذي تولد منه . وأرى أن هذه العناصر هي :

١ - نظرة الإسلام للعلم ، وتقديره للعلم والعلماء .

٢ - سماحة الإسلام ، ونظرته إلى حرية العقيدة والرأى وإلى القيمة الإنسانية العامة والمواخاة بين المسلمين على اختلاف ألوانهم وأعراقهم ، مع احترام حقوق الآخرين وآرائهم .

٣ - دور اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم وللدولة الأخذة في الاتساع ، دون تعسف أو إجبار .

٤ - نظرة الإسلام المتكاملة إلى الحياة . وسوف أعرض لهذه العناصر الأربعة ، المتداخلة بطبيعتها ، بشيء يسير من التفصيل ، مؤصلاً إياها من مصدرى شريعة الإسلام الغراء : من القرآن الكريم ، ومن السنة النبوية الشريفة .

الإسلام والعلم

أما عن العنصر الأول ، فاحتفال القرآن الكريم بالعلم والعلماء معروف مشهور ، ويكفي للدلالة على هذا التكريم العظيم للعلماء في قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط » (آل عمران : ١٨) . فهكذا يوضع العلماء في منزلة هي غاية التشريف ، ثم يُعْتَدُّ بشهادتهم مع شهادة الله ، عز وجل ، وملائكته الأبرار . والمؤمنون كلهم يشهدون أنه لا إله إلا الله ، ولكن هذا التشريف للعلماء يدلنا على أن شهادتهم لها وزن مختلف لأنها تقوم على أساس مختلف ، وهو إدراكهم ووعيهم بمعنى العدل والقسط في أفعال الله ، فكل شيء عنده - سبحانه وتعالى - لحكمة وبمقدار ، وهم أقدر الناس على فهم ذلك . « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (الزمر : ٩) .

ويتجاوب هذا المعنى فى نفسى مع ذكر خشية العلماء لله فى موضع آخر : «الم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جُدُدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ ألوانها وغرايب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور . (فاطر : ٢٧ . ٢٨) .

فخشية الله الحققة قد وقّرت فى نفوس العلماء بعد تنبيههم إلى هذا التنوع الرائع فى مخلوقات الله . . . والتنوع مع الوحدّة إعجاز فى الخلق ما بعده إعجاز . وفى هذا إشارة إلى أن معرفة أولئك العلماء بأصول هذا التنوع وبعض أسرارهِ المذهلة فى صميم جينات الأحياء وتاريخ تكوين البصخور ، والتي ما زال العلماء يكشفون منها كل يوم جديداً ، هى التى تبعث فى نفوسهم الخشية اللائقة بجلال بديع السموات والأرض وعظيم قدرته . والعلم الذى يشير إليه القرآن الكريم هو كل العلم على إطلاقه واتساعه ، والعلماء هم كل العلماء ، وليسوا علماء الدين وحدهم كما زعم بعض المتزمتين .

ونعرف من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم أن مادة « علم » وردت فى الذكر الحكيم بمشتقاتها ٨٥٥ مرة ، وهذا

وحده له دلالة . وشيء يسير من استقراء لفظ العلم فى القرآن الكريم يجلو لنا الأمر . فعندما يخاطب الحق ، جل شأنه ، رسوله صلوات الله عليه ، فى سورة البقرة : « . . قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » (١٢٠) ، وفى سورة طه : « . . ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علماً » - (١١٤) ، فالعلم هنا هو ولا شك العلم الإلهى اللدنى بمعناه الشامل . أما فى موضع آخر من سورة البقرة : « ويعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم » - (٣١ ، ٣٢) ، فكتب التفسير تقول - من بين ما تقول - إن الله علم آدم « أسماء الأجناس وعرفه منافعها » . . . وهذه هى علوم الدنيا اللازمة لخليقة الله فى أرضه . وكذلك عندما يلفت الخالق المبدع أنظارنا إلى بعض أوجه حكيمته فى خلق القمر : « وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » (يونس : ١٥)؛ فالعلم هنا بمعنى ما يحصله الإنسان فى حياته ، أى بمعنى كل ما يدركه عن طريق حواسه وفكره .

وإنك لو حاولت أن تستيع الفعل «علم» في القرآن الكريم ، لوجدته منسوبا إلى الله تعالى ، وإلى الناس فرادى وجماعات وبالتعميم والتخصيص وفي أزمنة مختلفة ، وإلى الجنة وإلى النفس ... إلخ . وليس هذا على سبيل الحصر ، وإنما للدلالة على اتساع معنى اللفظ ، في اللغة والاستعمال القرآني ، حتى يشمل العلم المنسوب إلى كل هؤلاء الفاعلين المختلفين والمتفاوتين في نوع علمهم ومقداره وقدره .

والقرآن الكريم حافل بذكر آيات الله في خلقه متخذًا من التفكير فيها مدخلا رحيبا إلى الإيمان بالله ، عن طريق استشعار وحدانيته سبحانه وإدراك قدرته وبديع صنعته . ويتخذ القرآن الكريم أساليب بلاغية متنوعة في الدعوة إلى النظر في هذه الآيات ، فهو تارة يأمرنا بذلك أمرا صريحا : «قل انظروا ماذا في السموات والأرض ...» (يونس : ١٠١) ، « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ...» (الأنعام : ٩٩) . وتارة أخرى يحضنا على هذا حضا جميلا : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت » (الغاشية : ١٧ - ٢٠) ، في حين يأتي هذا في مواضع أخرى بصيغة تقرير قاطع : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ...» (الأعراف : ١٨٥) . بل إن الأمر بالنظر يقترن في مواضع أخرى

بضرورة السعي والحركة ودينامية البحث : « قل سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق ... » (العنكبوت : ٢٠) .

وهذه الصيغ كلها عندما تكون صادرة من رب العزة تنزل في نفس المؤمن منزلة الأمر . فالمسألة عنده إذن فريضة وتكليف . ولكن من البديهي أن يتفاوت هذا التكليف بالنظر في آيات الله من إنسان إلى إنسان ، إذ إن نظر الناس يتفاوت بتفاوت استعدادهم ومقدرة إدراكهم وحصيلة معارفهم ، ولكنها دعوة مفتوحة - على الدوام - للبحث والتفكير والتأمل .

ومن ناحية أخرى يتوجب على العلماء الأكفء أن يستمعينوا بالمعارف الصحيحة المعاصرة في فهم تفسير القرآن الكريم ، وفق ضوابط دقيقة من علوم الشريعة واللغة ، كما فعل السلف الصالح في كل عصر ، دون تمحل أو افتعال (عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٨٢) . وفي حدود منهاج دقيق رسمته لنفسه ، عدت - مثلا - إلى موضوع خلق الإبل ، الذي وُجِّهنا إلى النظر إليه في سورة الغاشية ، عدة مرات بطيلة نحو ثلاث قرن من الزمان ، وفي كل مرة كنت أجد علما حديثا صحيحا يضاف مؤيدا أن الإبل معجزة فريدة في الخلق ، قصدت بذاتها ولم تذكر لمجرد كون الإبل مثالا مألوقا لعرب الصحراء ، كما كان يروج بعض البسطاء أو الخبثاء (عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٦٥ ، ١٩٨٢ ، ١٩٩٣) .

وجاءت السنة النبوية الشريفة مؤازرة ومفسرة لهذه التوجيهات القرآنية الربانية ، ومرشدة إلى كيفية اتباعها ، فيبشرنا الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، بأن مجلس العلم ، مجلس مبارك إن شاء الله ، تحفه الملائكة ، وتنزل عليه السكينة ، وتغشاه الرحمة ، ويذكره الله في الملأ الأعلى . بل إنه ، صلى الله عليه وسلم ، يزيدنا سعادة بقوله « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رِضاً بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتى الحيتانُ في الماء . وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . . . » . ومثل هذا في السنة الشريفة كثير .

وتعلم المسلمون هذا الدرس وفقهوه . فيقول الإمام الشافعي ، رضى الله عنه : « طلب العلم أفضل من صلاة النافلة » ، ويقول أبو الدرداء : «مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليل » . ويقول الحسن البصرى : « يورن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجح مداد العلماء » . وليس المستغرب بعد هذا أن يكون ثاني كتاب في صحيح البخارى بعد « كتاب الإيمان » مباشرة ، هو « كتاب العلم » . أما

أبو حامد الغزالي فقد قسم « إحياء علوم الدين » أربعين كتابا ، أولها جميعا هو « كتاب العلم » . ونشط المؤلفون إلى تصنيف كتب كثيرة في العلم وآدابه ، لعل من أوفاهما « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر القرطبي في القرن الخامس الهجرى . ولا مرء أن معظم هؤلاء المؤلفين ينصرف لفظ « العلم » عندهم إلى علم الحديث بالذات في المحل الأول ، ولكننى أسارع بالتنويه بأمرين : أولهما هو ما قدمته من عموم لفظ « العلم » في اللغة وفي الاستعمال القرآنى . وثانيهما أن منهاجية توثيق العلم - أى علم - قد أسسها وأقامها على أحكم وجه علماء رواية الحديث الشريف . وعلى أية حال يزول هذا اللبس تماما لكل من يطلع على كتاب ابن عبد البر وعلى الكتاب القيم الممتع الذى ألفه فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى بعنوان « الرسول والعلم » (١٩٨٥) ، والذى يعالج فيه « العلم » على أوسع معانيه وأشملها ، ويفخر بحق أنه لم يعتمد فيه إلا على الصحيح والحسن من الأحاديث ، ففاق بذلك الإمام الغزالي الذى لم يلتزم بهذا القيد .

وأول ما يفتح الباب أمام العلم الصحيح هو إزالة حجب الأوهام والخرافات . كُسفت الشمس يوم مات إبراهيم ، الابن الحبيب للنبي عليه الصلاة والسلام ، فقال الناس : انكسفت لموت إبراهيم . وهنا ينبى النبي المعلم الهادى ، فيقول للناس : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » . فيعرف المسلمون أن الشمس والقمر يجريان على سنن أقامهما الله عليها . وفى ضوء هذا الإرشاد وأمثاله من القرآن الكريم والسنة المشرفة ، والتفتح العقلى على علم الأسبقين ، برع المسلمون فى دراسة الفلك واكتشاف نواميسه . ولكن هناك خط فاصل بين علم الفلك وخرافات التنجيم ، يحدده الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فيقول : « من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه ، لم تُقبل له صلاة أربعين يوما » .

ثم ينبغى أن يكون هناك منهاج علمى . وأول أسسه تلمس البرهان الصحيح والدليل المقنع . وفى هذا يعلمنا القرآن الكريم : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (النمل : ٦٤) . ويحذرننا معلمنا الهادى ، صلى الله عليه وسلم ، فى ضوء الأحكام القرآنية القاطعة : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب

الحديث » . وتتآزر آيات القرآن الكريم والأحاديث الصحاح فى حث المسلمين على تحكيم العقل والتحذير من اتباع الهوى والانقياد الأعمى لأقوال السابقين . ومن منهاج العلم أيضا ، الدقة والأمانة ، وهما فيما أرى ، شعبتان من القاعدة العامة التى يسميها الإسلام « التقوى » ، أى مراقبة الله فى كل ما نفعل أو نقول . وفى هذا يقول الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « تناصحوا فى العلم ، فإن خيانة أحدكم فى علمه أشد من خيانتة فى ماله ، وإن الله سائلكم يوم القيامة » . ومن الأمانة أن يقول الإنسان : « لا أعلم » فيما لا يعرفه . سئل الرسول ، أمام الملأ من الناس عن الساعة (أى يوم القيامة) فقال بقطع ووضوح : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » . وهكذا نجد ابن عبد البر يقول إن حد العلم - أى تعريفه - هو « ما تيقنته وتبيّنته » و « على هذا فمن لم يستيقن الشيء وقال به تقليدا فلم يعلمه » . وكل هذا نجده فى المناهج العلمية الرائعة التى كتبها النظم وابن الهيثم والبيرونى والرازى وابن سينا ، وغيرهم من أعلام علماء المسلمين . وقد كانت قضية المنهج عند علماء المسلمين موضع عناية خاصة من الباحثين المحدثين (انظر ، مثلا : فرانتز روزنتال ، ١٩٨٠) .

ثم كان على المسلمين أن يفقهوا في تبيين ووضوح الحد الفاصل بين ما هو من الدين والوحي وما هو من علوم الدنيا التي يجب عليهم أن يكتسبوها بالدراسة والملاحظة والتجربة العملية . وكان أسلوب النبي ، صلوات الله وسلامه عليه ، في تعليم صحابته ، رضوان الله عليهم ، هو الأسلوب العملي والأسوة الحسنة . ففي مناسبة تأيير النخل في المدينة المنورة ، أرسى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، القاعدة العظيمة التي أراد أن يسير عليها المسلمون في جميع عهودهم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . وقال لهم : « إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي ، فإنما أنا بشر » . ما أعظمك يا رسول الله ، ففي هذا توجيه للناس إلى ضرورة اعتمادهم على تجاربهم الشخصية والاستنباط الصحيح من نتائجها . ومن أبلغ ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ، لحث الناس على التفكير وإطلاق عقولهم من كل قيد ، أنه أخبرهم أن للمجتهد أجراً إذا أخطأ وأجرين إذا أصاب . فلماذا إذن يحجم المسلمون عن التفكير ومحاولة الإبداع ، وهم ماجورون على كل حال ، ما داموا يجتهدون بعد أن تتوفر لهم شروط الاجتهاد وأدواته ؟

ليت أقواما من أبناء هذا الزمان يفقهون هذا القول .

عند الاستعداد لمعركة بدر الكبرى ، اختار النبي منزلاً ، أي موقعا ، قريبا من الماء كي يربط عنده المسلمون استعداداً للقاء المشركين . وهنا تقدم إليه الحباب بن المنذر الأنصاري ، يسأل : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزل ، أنزلك الله ، ليس لنا أن نتقدمه ولا أن تتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فيقال الرسول ، صلى الله عليه وسلم « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » . فأشار الحباب بمثل استراتيجي آخر أفضل وأحصن من سابقه . فوافق الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وقال له : « لقد أشرت بالرأي » . والدروس كثيرة وعظيمة : الاجتهاد المفتوح في أمور الدنيا ، حتى في حضرة النبي نفسه وعلى خلاف رأيه . وهناك الشورى ، وهناك سعة صدر القائد وتواضعه وسعيه إلى الحقيقة والمصلحة العليا . وهناك أيضا الشجاعة الأدبية عند الجندي ووضوح فلسفته بين التزام الطاعة وحرية الرأي ، ودقته في أن يستبين الحد الفاصل بين ما هو من أمر الوحي الإلهي ، وما هو من واجبات الاجتهاد البشري . ومرة أخرى ، ليت قومي يفقهون .

وهكذا نظمثن إلى انتفاء أية وصاية على طلب العلم والاجتهاد بالرأى ، وإلى أن المسلمين أمروا أمراً بطلب العلم والتوصل إليه بمدخله الطبيعية ، بالملاحظة والتجربة والتفكير السليم .

سماحة الإسلام

وأما عن العنصر الثانى ، وهو سماحة الإسلام ، فأدلته معروفة مشهورة أيضا . « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى . . » (البقرة ٢٥٦) . ويحترم المسلمون الأديان السماوية السابقة ولا يفرقون بين أحد من رسل الله ، وهذا جزء أساسى من إيمانهم وعقيدتهم . ولما كان الإسلام هو الدين الخاتم فهو دين الناس جميعا ، يُدعون إلى الدخول فيه اختياراً واقتناعاً ، كما أن النبى ، عليه الصلاة والسلام ، هو خاتم النبيين والمرسلين ، الذى أرسل إلى جميع الناس : « وما أرسلناك إلا كفاة للناس بشيراً ونذيراً » (سبأ : ٢٨) .

وأعلن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . ولذلك كان من صحابته الأجلاء سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، وكان يستشيرهم ويأخذ برأيهم . فمن ذلك ما حدث فى غزوة الأحزاب ، حين أشار سلمان الفارسى

رضى الله عنه ، على الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بحفر خندق حول المدينة ، وهى فكرة غير عربية أريكت جيش المشركين . ثم إن الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، علّم المسلمين أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها ، وأن العلم يؤخذ (فى غير أمور الدين) ولو من عند المشركين . فأمر النبى سعد بن أبى وقاص بالتداوى عند الحارث ابن كَلْدَةَ ، غير المسلم الذى تعلم الطب فى فارس . واستعان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بدليل خزيت ، أى حاذق ، غير مسلم ، وهو عبدالله بن أريقط ، فى رحلة هجرته الخطيرة إلى يثرب .

وهذان العنصران معاً ، أى تقدير الإسلام للعلم وسماحته ، جعلاً من العقلية الإسلامية عقلية متفتحة متعطشة للعلم ، تسعى لكل علم نافع ، ولو فى الصين ، وتتقبله دون عائق من جنس أو لون أو دين . وهكذا لما انتشر الإسلام ، واختلط العرب بغيرهم من الأمم ، هبوا ليقوموا بأكبر عملية نقل وحفظ للتراث العلمى للإنسانية فى التاريخ فقد تُرجمت العلوم من الإغريقية والسريانية ، وبدرجة أقل من السنسكريتية والبهلوية ، إلى اللغة العربية . وقد بدأت الترجمة مبكراً من أواخر القرن الهجرى الأول فى عهد

بنى أمية . قام بها وأشرف عليها خالد بن يزيد ابن معاوية ، الذى درس فى مدرسة الاسكندرية ، واستقدم فلاسفة اليونان الذين يتقنون العربية ، وأجزل لهم المكافأة . ولكن الترجمة ازدهرت بصورة خارقة فى العصر العباسى ، فأنشأ هارون الرشيد ، الذى كان يقبل الجزية كتباً ، «خزانة الحكمة» ، وهى مكتبة ومركز للترجمة أشرف عليه أبو زكريا يوحنا بن ماسويه ، ثم أنشأ المأمون «بيت الحكمة» فى بغداد فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، وكان من العاملين فيه بنوموسى المسلمون ، وحنين بن إسحق النصرانى ، وثابت بن قرة الصابئى . وفى هذا العصر لمع أيضاً آل بختيشوع الأطباء والمترجمون السريانيون .

والعلم العربى الإسلامى كانت له أصول متعددة ومتشابكة ، فمن عصور ما قبل التاريخ المدون كانت هناك أم الحضارات فى مصر ، وكانت حضارة ما بين الرافدين البابلية والأشورية . وقد بلغت الرياضيات والطب مستوى رفيعاً فى هذه الحضارات الأصيلة القديمة قبل أن يتناولها الإغريق بالتنظير والتطوير . ولا يستطيع أحد إنكار دور الإغريق العظيم فى تقدم العلوم (على قصوره من نواح

معينة ، كما سوف يأتى فيما بعد) ، ولكن من الخطأ الفادح أو الجهل الفاضح اعتباره هو الدور الوحيد - كما يفعل بعض مؤلفى الغرب من أنصاف العلماء ، فقد كان له ما قبله . ثم استمر وفود علماء الإغريق إلى الإسكندرية ليتعلموا على علمائها . ومن أولئك الوافدين فيثاغورس الرياضى الكبير . وبعد أفول دولة الإغريق والرومان (البيزنطيين) انتقل مركز الحضارة كله إلى الاسكندرية ، حيث تفاعلت حضارات مصر والإغريق والشرق ، لتنتج عهداً جديداً متميزاً من عصور العلم (منذ نحو ٣٠٠ سنة قبل الميلاد) ، هو العصر السكندرى ، أو الهلنستى ، يزهو بعلماء من أمثال إقليدس وبطليموس وأرشميدس وجالينوس ، وهى شخصيات أصبحت مألوفة فى العلم الإسلامى فيما بعد . وكان للاسكندرية فروع فى سيراكوز فى صقلية ، وأنطاكية فى الشام ، وبرجامون فى آسيا الصغرى ، وجنديسابور فى جنوب فارس . وكسنت مكتبة الإسكندرية تضم أكثر من ٧٠٠٠٠٠ مؤلف واستمر العهد السكندرى نحو تسعة قرون إلى مطلع الإسلام .

والجوا المرحب بالعلم والحاني على العلماء في دولة الإسلام الفتية حفظ تراث الإنسانية العلمى من الاندثار ، وجعل جداول العلم التي كادت تنضب يتابعها في مصر القديمة وبلاد اليونان والإسكندرية وفارس وجنديسابور والهند والصين ، جعلها تصب في بحر صافٍ جديد . ومضت حركة النقل العظيمة قدما ، واستمرت نحو ١٥٠ عاماً ، انتقلت بعدها كنوز الحضارات السابقة وعلومها إلى اللغة العربية ، وأصبحت ميسورة للمتعلمين والباحثين في كل علم ، يتناولونه بالفهم والتمحيص والتحليل الدقيق والنقد الشاقب ، في أمانة باللغة وأدب جم ، ثم يتكرونها علومهم ويضيفون آراءهم ونتائج بحوثهم ، ويصوغون العلم صياغة لها أهداف وقيم جديدة ، فيخرج علما جديدا قويا عمليا عالميا . وهذا هو الشيء العظيم الذي قد لا يتببه إليه الدارسون ، وهو تحويل العلوم - لأول مرة في التاريخ - إلى مسألة عالمية وإلى تراث إنساني يثور على القوميات والتعصبات الضيقة . وهكذا انصهرت الحضارات السابقة في بوتقة الحضارة الإسلامية المتفتحة السمحة

الفتية . ولعل هذا هو أعظم أفضال الإسلام على العلم ، الذي تلقفته أوروبا - على تردد وصد - علما موحدا ناضجا ، هُضم ومُثل وأعيدت صياغته في صورة جديدة ، فكان هذا من أقوى دعائم ازدهار العلم منذ عصر النهضة فيما بعد ، والذي نعيشه الآن ، ونسميه العلم الغربي .

العربية ، لغة للعلم

ويتصل العنصر الثالث بهذه النقطة التي انتهينا إليها ويكملها . . . ألا وهو لغة العلم ، فقد أصبح لهذا العلم الذي جاء من أقطار الأرض لغة واحدة ، هي لغة القرآن الكريم التي يعتز بها كل مسلم . بل إنها قد أصبحت - طواعية واختياراً - لغة الحياة في معظم أرجاء العالم الإسلامي ، فحلت تماما محل القبطية ، والآرامية ، واليونانية ، واللاتينية ، وأصبح معظم العالم المتحضر يتحدث اللغة العربية . وألف أبو بكر الرازي ، المولود في فارس ، كتبه العظيمة في الكيمياء والطب باللغة العربية ، وكذلك فعل البيروني ، الذي عشق العربية ، وكان إنه لأحب إليه أن يُهجى بها من أن يمدح بالفارسية !

وسرعان ما أصبحت العربية لغة العلم لعدة قرون ، حتى أن إتقانها كان شرطاً للتعلم والاشتغال بالعلم خارج نطاق الدولة الإسلامية . وقد كتب روجر بيكون، في القرن الثالث عشر الميلادي ، يقول : إنى لأعجب لمن يريد أن يتضلع في الفلسفة والعلم وهو لا يعرف العربية !

وتوحيد لغة العلم والحضارة والحياة ، كان له أثر آخر بعيد المدى . فإنه قد أزال الحواجز بين لغة العلماء ولغة الشعب ، مما جعل مفاهيم العلم ونتائجه ومبتكراته متاحة لجمهير الشعب ، للثقافة والتطبيق . وهكذا لم يصبح العلم عالمياً فحسب ، وإنما أصبح جماهيرياً شعبياً أيضاً . وهذه نقلة حضارية بعيدة المدى ، ولم يسبق لها مثيل . فلتأمل ، ولنوازن بين هذا الموقف وقيام العلم في أوروبا في عصر النهضة ، فقد كان تداوله والاشتغال به هناك - إلى عهد غير بعيد - مقصوراً على الذين يتقنون اللاتينية الميتة البعيدة عن الحياة والناس .

وإبلغ مثال عندي على شعبية الثقافة العلمية في دولة الإسلام ، هو قيام جماعة « إخوان الصفا » في البصرة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (أو العاشر

الميلادي) . فهذه الجماعة هي جمعية علمية تعليمية تثقيفية في المحل الأول . ويقول مؤرخ العلم الحجة هولبيارد E.J. Holmyard في افتتاحية عدد ابريل ١٩٤٨ من الدورية العالمية اللندنية Endeavour إنها واحدة من أقدم الجمعيات العلمية التي تحققنا من وجودها ، وإن اهتمامات أعضائها لتتفق كثيراً واهتمامات الذين أقاموا الجمعية الملكية في لندن بعد قرون . وقد ألف الإخوان رسائلهم الاثنتين والخمسين الشهيرة في مختلف أبواب الفلسفة والعلم ، لتذيع بين طلاب الثقافة العلمية في عصرهم . وتقع الرسائل في إحدى طبعاتها الحديثة ، في زهاء ألفي صفحة موزعة على أربعة مجلدات . وهي عمل متكامل يعرضه الإخوان عرضاً تعليمياً تربوياً شائقاً ، وبأسلوب سلس يتفق وتناول العلوم . وإنك لتجدها تشبه أسلوب الكتابة في عصرنا الحاضر ، إلا أنها عموماً أحلى وأفصح . وقد أصاب طه حسين حين قال عن الرسائل : « ليس من الغلو أن يقال إنها قاربت المثل الأعلى في تدليل اللسغة العربية وتيسيرها لقبول ألوان العلم على اختلافها (طه حسين ،

١٩٢٨ : ١٥) . وعلى الرغم من الذخيرة العلمية الهائلة التي تحفل بها الرسائل ، هي في تقديري لاتقدم إلا ما رآه صفوة من علماء ذلك العصر الحد المناسب للثقافة العلمية في الموضوعات التي طرقتوها ، فهي ليست كل علم عصرها ! وهذا المقدار الأساسي من الثقافة العلمية في القرن الرابع الهجري ، يجعلنا ندرك إمكانات التقدم الهائلة التي كانت كامنة في تلك الحضارة العظيمة ، ولكن حالت أحداث دون بلوغها غاياتها ، ولو أنها كانت المرتكز الأصلي لحضارة الغرب التي نعيشها هذا الزمان (عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٩٢) . ومن أبرز ما يلفت نظر قارئ هذه الرسائل أيضا سماحة كتابها ، وعدم تعصبهم ، وهذا يؤيد ما قلناه من قبل عن سماحة الإسلام .

وتوحيد لغة الحياة ولغة العلم له أثر آخر بعيد المدى وأعم من أثره في نشر الثقافة العلمية ، وهو تيسير التعليم والتعلم * . والرسول ، صلى الله عليه وسلم ، جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وأعلى منزلة التعليم . خرج ذات يوم فرأى مجلسين ، أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، والثاني

يعلمون الناس ، فقال : « أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس ، وإنما بعثت معلما » . ثم عدل - أي اتجه - إليهم وجلس معهم .

وقد اتخذت في حجرتي بالجامعة حديثا شريفا شعاراً لي : « إن العالم والمتعلم شريكان في الأجر ، ولا خير في الناس بعد » . وطبيعي وجميل أن يكون للمعلم أجر عند الله ، ولكن أبلغ من ذلك وأجمل أن يكون للمتعلم أيضا - وهو المستفيد - أجر ، لأنه سعى إلى التعلم . ولكن الشطر الثاني من الحديث الشريف كان يثير تساؤل طلابي ، إذ كيف يُستبعد الخير من جميع الناس ، إن لم يكونوا أساتذة أو طلابا ؟ بيد أن المتأمل يكتشف المغزى العميق الذي يرمى إليه الحديث الشريف الذي يريد أن يجعل كل شخص في المجتمع طالبا للعلم ، بالبحث أو القراءة أو تلقي العلم أو اكتساب الخبرة ، ثم معلما غيره ما توصل إليه . وهكذا يتحول المجتمع كله إلى نشاط علمي تعليمي يرفعه إلى ذرى الحضارة والتقدم .

* يدرك كثير من المفكرين الأهمية البالغة لهذا التوحيد ، ويدعون لاستكمالته بتعريب تدريس العلوم في

الجامعات العربية في الوقت الحاضر (عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٨٠ - ب) .

وقد رسم الرسول ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، تفاصيل آداب التعليم والتَّعلُّم ، من توكير وإجلال للمعلم ، وعطف على المتعلم ، وتشجيع للمصيب ، ورفق بالمخطيء ، وتكرار للشرح ، وضرب للأمثال ، واستعمال لوسائل الإيضاح وأسلوب الحوار . وفي هذا كله حديث يطول (انظر ، مثلاً : يوسف القرضاوى ، ١٩٨٥) . وأكتفى بقوله ، عليه الصلاة والسلام : « علموا ، ويسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا . . . » . وقد أوصى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالترحيب بالمتعلم والبشاشة له ، وإكرامه . ولذلك كان العلماء من التابعين يرحبون بمن يقصدهم للعلم قائلين : مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نظرة الإسلام المتكاملة للحياة - العلم والقيم ، وسوشولوجية العلم وهذا العنصر الرابع ، وهو نظرة الإسلام المتكاملة للحياة ، مرتبط بالعنصر السابق ، بل فى الواقع بالعناصر الثلاثة المتقدمة جميعاً ، فهى كلها متداخلة متآزرة . وأصل القضية أن العلم الغربى

عندما بدأ فى عصر النهضة على أكتاف العلم الإسلامى ، تجرد من كثير من مثله الإسلامية الأصيلة وقيمه الرفيعة . فقد يهت الناس بالكشوف العلمية وافتنوا بها غاية الافتتان ، وتصور بعضهم أن العلم وحده هو الحقيقة وأن الدين حديث خرافة ، وقالوا إن العلم يقيس ويحسب ويضع القوانين الصادقة ويعالج موضوعات تدركها حواسنا وفيها أسباب معاشنا ورفاهنا ، فما لنا حاجة بعدُ بما وراء ذلك . واتخذ العلم عموماً موقفاً صلفاً متعالياً مغروراً ، متجرداً من أى قيم دينية أو أخلاقية أو إنسانية ، أو يكاد . بل إن القوم قالوا إن العلم الجيد الحق هو الذى يبرأ من هذه الأمور جميعاً . وقوى من هذا الموقف أن رجال الدين فى أوروبا ناصبوا العلم منذ ظلام العصور الوسطى عداءً سافراً ، واضطهدوا العلماء اضطهاداً مريعاً ، وكان لذلك أسبابه السياسية والتاريخية . وقد أدى هذا إلى شق المجتمع إلى جزئين ، أو إلى أهل ثقافتين متعارضتين غير متفاهمتين ، على قول الفيلسوف سنو C.P. Snow فى الستينات من هذا القرن وهما : ثقافة الإنسانيات (ومنها علوم الدين) وثقافة العلوم

الطبيعية الحديثة . ولما استوردنا نحن العلم الغربي وتطبيقاته ، استوردنا ضمنا هذا الموقف العدائي المفتعل بين العلم والدين . وأذكر: أننا كنا ننظم عام ١٩٧٩ برنامجا للأسبوع الثقافي السنوي للمجمع المصري للثقافة العلمية ، فاتفقنا أن يكون محوره « نحن وتحديات العصر » ، واخترت أن أتناول أنا قضية « الفجوة المتوهمة بين الدين والعلم » لأنني اعتبرت أن عبور هذه الفجوة خطوة مهمة لدخول جماهيرنا - المؤمنة بطبيعتها - عصر العلم (عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٨٠ - ١) .

وهذه المشكلة لم تكن قائمة أبدا في العلم الإسلامي . ويرجع الفضل في هذا ببساطة إلى صميم مبادئ الإسلام الأساسية ، كما قدمنا . فالإسلام ليس دينا منفصلا عن الحياة ، بل هو دستور متكامل للحياة كلها ، بجميع مناسبتها ، ومشبع للنفس في كل نزعاتها . والعلم والإسلام متعانقان ، ويكفي للتدليل على هذا تأملنا في قوله تعالى ، من سورة آل عمران : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبواب . الذين يذكرون الله قياما وقعوداً

وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار » . (آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١) . فهنا الإيمان ، متمثلا في ذكر الله في جميع أحوال الذاكر ، محصور بين الالتفات إلى آيات الله الكبرى في خلق الكون ونظامه ، والتفكير في روائع ذلك وأسراره - وهذا هو العلم كله - ثم ينتهي الأمر بالمؤمن الباحث المتفكر إلى الإيمان بالحساب واليوم الآخر وإلى دعاء الله . . والدعاء منح العبادة . ولهذا كان معظم علماء المسلمين الأوائل فقهاء متمكنين أيضا في علوم الدين .

وفي العقدين الأخيرين اتجه فلاسفة العلم في الغرب اتجاهها قويا نحو أمرين : أولهما « العلم والقيم » " Science and Value " وسوشيولوجية العلم " Sociology of Science " وأصبحت تؤلف فيهما مجلدات وتعقد ندوات ومؤتمرات ، وتنشأ لهما جمعيات علمية جديدة و درويات متخصصة ، وكان من أبرز الذين رفعوا صوتهم ، في عقد الثمانينات ، بالنذير والتحذير من آثار العلم الغربي المدمرة نيكولاس ماكسويل

الذي تلخص دعوته في عنوان كتابه المثير « من المعرفة إلى الحكمة - ثورة في أهداف العلم وطرائقه » (Maxwell, 1988) .
ومن هنا أخذ فلاسفة العلم المحدثون يطامنون من استعلاء العلم ويكفكفون من غلواء العلماء (كما فعلتُ في محاضرتي عن « الفجوة المتوهمة بين العلم والدين » عام ١٩٧٩) ، وأصبحوا يتادون باجتماعية العلم ، وأن العلم نشاط إنساني يرتبط بقيم المجتمع فيتأثر بها كما يؤثر فيها (O'Hear, 1989) .

وهذه المصالحة التي يحاول الغرب أن يصل إليها ، بعد طول فُرقة وعداء ، كانت عنصراً أساسياً في الإسلام منذ فجر بزوغه كما قدمنا ، فقد أقام الإسلام العلم وثيق الوشائج بالمجتمع وقيمه . فالعلم يُطلب ويُعطى في ضوء ما قدمنا من قيم رفيعة وضوابط رشيدة ، ثم إنه يجب أن يكون موجهاً إلى الخير . فمن ذلك ما تعلمه المسلمون من نبيهم - صلى الله عليه وسلم - من أن يستعيدوا بالله من علم لا ينفع . والمنفعة هنا كلمة شاملة لكل ما يحقق أسباب الخير المادية والمعنوية للبشرية

جمعاء ، بل لبيئة الأرض التي استخلف الإنسان لعمارته ورعايتها .

ولذلك تميز العلم الإسلامي على العلم الإغريقي الفلسفي النظري في أساسه ، باهتمامه بالنواحي التطبيقية ، ومن ثم كانت هناك مع النهضة العلمية نهضة تكنولوجية واسعة : في أجهزة الرصد الدقيقة والساعات ، وأجهزة البحث الكيميائي ، وأدوات الجراحة ، ومعدات الزراعة والري ، ومختلف أنواع الصناعات ، والأساطيل وعدة الدفاع ، وفنون البناء والنسيج ، بل والتزيين ووسائل الترف والرفاهية (انظر ، على الأخص : (Al-Hassan & Hill, 1986)

ولايتهى إعجابى بابن عبد البر الذي كان في القرن الخامس الهجري ، يعتبر السباحة و « الفروسة » والزي (أي صناعة « الموضات ») والتزيين (أو « الديكور ») علوماً . وينتقد الجزري (القرن الثاني عشر الميلادي) أولئك الذين لا يتحققون من الجدوى العملية للأجهزة التي يصممونها ، ويقول إن كل « علم صناعة » لم يختبر عملياً مشكوك فيه (المصدر السابق - وتأمل تعبيره : « علم صناعة ») .

وعن القيم أحكى لكم الحكاية
الآتية ، دعيت عام ١٩٨١ ، للاشتراك فى
حلقة بحث مغلقة عقدت فى ستوكهولم ،
تحت عنوان « المعرفة والقيم فى العلم
والتكنولوجيا ، فى الإسلام والغرب » .
وقد دعى إلى تلك الحلقة ، التى نظمتها
مؤسسة « الإسلام والغرب » مع الاتحاد
الدولى لمعهد الدراسات المتقدمة ، نحو
عشرين عالما من الولايات المتحدة الأمريكية
وكندا والمجلترا وفرنسا والسويد وإيطاليا من
جانب ، ومن مصر وباكستان والسعودية
والأردن من جانب آخر . وكان القوم من
علماء الغرب يسألوننا : هل عندكم فى
الإسلام ما ينقذ الحضارة الغربية التى كاد
يديرها العلم ؟ ... وفى إحدى الجلسات
ذكرت للمجتمعين معنى الحديث
الشريف : « هلاك أمتى عابد جاهل
وعالم فاجر » ، وعلقت قائلا : كلا
الجانبيين فى عصرنا الحاضر ناقصان ، فلو
أنا ضمنا ما عندنا من إيمان وهدى الأنبياء
والرسل إلى ما عندكم من علم وقسوة
لانصلح حال الدنيا ونجت من الهلاك .
وقال منظم الحلقة السويدي : لو أننا
سمعنا بهذا الحديث النبوى من أول الأمر
لجعلناه شعاراً لحلقتنا هذه !

وهذا التوجيه النبوى الشريف عبر
عن بعضه شاعر النيل ، حافظ إبراهيم
حين قال :

والعلم إن لم تكتنفه شمائل

تعليه كان مطية الإخفاق

ويدعو سردار فى كتابه المنشور عام
١٩٨٩ عن استكشاف العلم الإسلامى
(Explorations in Islamic Science) إلى
الاهتمام بقضية القيم فى العلم ، ويقول
إنه جاب العالم الإسلامى ، من شواطئ
السنغال والمغرب إلى المحيط الهادى وجزر
إندونيسيا ، بتكليف من المجلة العلمية
الذائعة Nature ، فوجد المسلمين المشتغلين
بالعلوم الحديثة شديدي الاهتمام بعلاقة
أعمالهم بمعتقداتهم الدينية وقيمهم
الأخلاقية ، وأن بعضهم شديدا قلق
أيضا من ارتباط دراساتهم وأعمالهم بقيم
المجتمع العلمى الغربى الذى لا يتمون إليه
(Sardar, 1989) . وأرى ، كما قدمت ،
أن تراثنا العلمى قائم على دعائم من القيم
والمثل الإسلامية القوية التى ينبغى علينا
تعرفها وتحديدها ونشرها بين علماء
المسلمين المعاصرين ، حتى يتبعوها قدر
استطاعتهم لترتاح نفوسهم وضمائرهم .
(و«سردار» كان أحد المسلمين المدعويين إلى
حلقة ستوكهولم عام ١٩٨١ ، التى
أشرت إليها) .

الثمرة والعطاء

وتنتيجة هذا الذي فصلنا عناصره كانت شيئاً عجيباً حقاً ، أذهل كل المنصفين من الباحثين الذين عُنوا بدراسة التراث الإسلامي العلمي دراسة موضوعية دقيقة . فقد قفزت الحضارة الإنسانية قفزة هائلة لا نستطيع في هذه العُجالة الإشارة إلى بعض ملامحها . ويُعدُّ القرنان الرابع والخامس الهجريان ذروة النهضة العربية الإسلامية ، وقد أُلّف آدم مبرز سفره الضخم عن «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، أو عصر نهضة الإسلام» لأنه اعتبر القرن الرابع الهجري (أو العاشر الميلادي) هو بالذات العصر الذهبي للحضارة الإسلامية (آدم مبرز ، ١٩٦٧) . ولكن معظم مؤرخي العلوم يعتبرون عصر النهضة الإسلامية ممتداً إلى نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ، وبعضهم يمهده بعد ذلك قرناً أو قرنين . فبعد مرحلة النقل ، بدأ ما يمكننا أن نسميه مرحلة « التلمذة » ثم التحليل والنقد ، ثم تلاهما مرحلة الابتكار الأصيل العميق . وجاء في النهاية عصر التكرار والموسوعات ، وإن لم يخلُ ذلك العصر من ظهور عبقرى فذ كابن خلدون ، الذي توفي في أوائل القرن التاسع الهجري ، والذي يقول المؤرخ الإنجليزي العظيم

«أرنولد توينبي» عن مقدمته الشهيرة إنها أعظم عمل من نوعه أمكن أن يتكره عقل من العقول في أي عصر من العصور ، وفي أي رجا من أرجاء الأرض !

وأسماء النجوم الباهرة في تراثنا العلمي ، وإن تفاوتت نسبياً في التألق ، لا يكاد يدركها حصر . ففي القرن الثاني للهجرة عندنا ، على سبيل المثال ، عبقرى الكيمياء اللغز جابر بن حيان (ت : ٨١٥ م) ؛ وفي القرن الثالث : النظام الفيزيائي (ت : ٨٤٥ م) ، والخوارزمي الرياضي الفذ مؤسس علم الجبر (ت : ٨٤٦ م) ، والكندي الذي عدّه المستشرق كارا ديشو واحداً من اثني عشر عبقرى ظهر في التاريخ (ت : ٨٦٦ م) والجاحظ ، الأديب العالم (ت : ٨٦٩ م) والدينوري ، عالم النبات الثبت (ت : ٨٩٥ م) ؛ وفي القرن الرابع ، إخوان الصفا ، وأبو بكر الرازي الكيميائي والطبيب العظيم (ت : ٩٢٤ م) ، والبستاني ، الرياضي الفلكي الذي عدّه المستشرق لالاند واحداً من أشهر عشرين فلكياً في العالم (ت : ٩٢٩ م) ، والفارابي ، المعلم الثاني للبشرية بعد أرسطو (ت : ٩٥٠ م) ، وعلى بن حسين المسعودي صاحب « مروج الذهب » (ت : ٩٥٧ م) ، والبورجاني الرياضي

ومعظم هؤلاء علماء موسوعيون ، وإن تميز بعضهم بصورة مذهلة في بعض فروع العلم . ولكل منهم عدد كبير من المؤلفات المتفاوتة في الحجم والقيمة ، وكثير منها اندثر . ويقدر بعض الباحثين أن عدد المخطوطات المسجلة في مكتبات العالم ، والتي بقيت بعد الفقد أو البلى وعدوان التتار والمغول وغيرهما ، بنحو ربع مليون مخطوطة . وأما المخطوطات غير المسجلة فلا يعلم عددها إلا الله . وكل هذا الذي نقوله عن العلم الإسلامى لا يعدو جزءاً من الحقيقة الكاملة ، التي مازالت في حاجة ماسة إلى جهود عالمية مكثفة تستغرق الأعوام الطوال . يقول المستشرق ألدو مييلى في كتابه الضخم الذى نشره عام ١٩٣٨ عن « العلم عند العرب ، وأثره فى تطور العلم العالمى » : « .. ونرى هنا لزاماً علينا أن نقرر أنه إلى اليوم الراهن لا يوجد تاريخ حقيقى للعلم العربى ، وهذا الكتاب الصغير الذى أنشره ليس إذا إلا محاولة أولى من هذا النوع ، على الرغم من اعتباره مقدمة لدراسة مفصلة ينبغى أن يتجه اهتمامها بوجه خاص نحو المعارف الفعلية التى وصل إليها للعلماء العرب ، ونحو تطور النظريات التى أنشئوها (ألدو مييلى ، ١٩٦٢ - ترجمة ، ص . ٥٦) .

الفلكى (ت : ٩٩٨ م) ، والمقدسى الجغرافى (ت : ١٠٠٠ م) ، وابن يونس المصرى الفلكى الرياضى (ت : ١٠٠٧ م) ؛ وفى القرن الخامس ، القمم الشوامخ : الشيخ الرئيس ابن سينا ، الفيلسوف الطبيب الذى يعدّه سارتون المعلم الثالث للبشرية ، بعد أرسطو والفارابى (ت : ١٠٣٧ م) ، وابن الهيثم مؤسس علم الضوء والبصريات (ت : ١٠٣٩ م) ، والعبقري الفذ البيرونى الذى يقول المستشرق ساخو إنه أعظم عقلية فى التاريخ (ت : ١٠٢٨ م) ؛ وفى القرن السادس : بنو زهر أطباء الأندلس (أبو مروان ، ت : ١١٦٢ م) ، وابن طفيل العالم الموسوعى (١١٨٥ م) ؛ وفى القرن السابع : زكريا القزوينى ، صاحب « عجائب المخلوقات » (ت : ١٢٨٣ م) وابن النفيس الطبيب المصرى اللماح مكتشف الدورة الدموية الرئوية (ت : ١٢٨٨ م) ؛ وفى القرن الثامن العالمان الموسوعيان : كمال الدين الدميرى ، صاحب « حياة الحيوان الكبرى » (ت : ١٤٠٥ م) ، وابن خلدون مؤسس علم الاجتماع (ت : ١٤٠٦ م) . وغيرهم كثير (مع تداخل طبيعى فى الترتيب بين القرون المتعاقبة) .

أكسفورد للدراسات الإسلامية . وثانيتها « العلوم والفلسفة عند العرب » (Arabic Sciences and Philosophy) نصف السنوية أيضا ، والتي تصدرها مطبعة جامعة كيمبردج ، وصدر المجلد الأول منها عام ١٩٩١ . وكتاهما تحوى بحوثا أصيلة ، باللغتين الإنجليزية والفرنسية . وكلما طرق الباحث موضوعا علميا محمدا وتعمقه دهش لما يكتشفه من إنجازات للعلماء المسلمين الأوائل كانت في حاجة إلى من يجليها ، ولى في هذا تجارب شخصية (عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٩١ . Mohammad, 1981; Mohammad & Al Taqi, 1981) .

ويزعم البعض ، على الرغم من هذا الوضوح والنصوح ، أن قصارى ما أسداه العلم الإسلامى إلى البشرية هو الحفاظ على علوم الحضارات القديمة ، والحضارة الإغريقية على الأخص ، وتسليمه إلى أوروبا . فقد فقد معظم الأصول القديمة ، ولم تبقَ إلا ترجماتها العربية ، التي مرت في موجة عظيمة أخرى من النقل في الاتجاه العكسى ، إلى اللغة اللاتينية . وفي القرن الثانى عشر الميلادى كانت أعمال العرب المترجمة إلى اللاتينية هى مصادر العلم الوحيدة فى أوروبا ، إضافة بالطبع إلى الأصول العربية لمن يستطيع قراءتها ، وكان هذا أمرا جوهريا لطلب العلم ، كما قدمنا .

هذا على الرغم من الدراسات الكثيرة التى قام بها المستشرقون والعلماء العرب فى القرنين الماضيين على الأخص . والحق يقال : يرجع معظم الفضل فى توجيه الأنظار إلى التراث العلمى الإسلامى وجلاء بعض نواحيه إلى جهود المستشرقين الذين قاموا بترجمة عيونه ، فى تبثل وعشق ، إلى لغات الغرب وتناولوها بكثير من التحليل . وبعض هذه الجهود على الأقل فيه إخلاص وأمانة وعمق . والقائمة طويلة ، ولكننى سوف أضمن قائمة مراجع هذا البحث عددا قليلا من المراجع المختارة (Taton, 1967 ; Sarton, 1927, 1931, 1947; Rosenthal, 1970, 1975) وبعض المراجع العامة باللغة الإنجليزية (Savory, 1979 ; Nasr , 1976 ; Hayes , 1985 Dunlop , 1975) ، وبعض المراجع العامة باللغة العربية (أحمد فؤاد باشا ، ١٩٨٤ ؛ عبد الحليم منتصر ، ١٩٧٥ ؛ عمر فروخ ، ١٩٧٧ ؛ محمد الصادق عفيفى ، ١٩٧٧ ؛ محمد كامل حسين وآخرون ١٩٧٨) .

والاهتمام بالتراث العلمى العربى والإسلامى مازال متجددا ، وأكتفى بأن أنوه بأحدث دوريتين عالميتين متخصصتين فى هذا المجال . أولاهما « مجلة الدراسات الإسلامية » (Journal of Islamic Studies) ، نصف السنوية ، والتي ظهر المجلد الأول منها عام ١٩٩٠ ، والتي تصدرها مطبعة أكسفورد ومركز

وهذا شيء عظيم ولا شك ، ولكنه ليس إلا جزءاً من فضل العرب على العلم . فهم أولاً أحسنوا الانتقاء . وكانت لهم فلسفتهم وشخصيتهم في هذا الانتقاء ، فهم مثلاً لم يحفلوا بترجمة أساطير الإغريق وخرافاتهم - على جمالها الأدبي - لأنهم رأوها غير مفيدة ولأنها لا تتفق وعقائد المسلمين . ثم إنهم كانوا «يؤسلمون» هذا العلم المنقول وينقدونه ويمحصونه ، ثم زادوا عليه كما وكيفاً ، وقدموه علماً إسلامياً جديداً يتميز - كما قدمنا - بعالميته وتسامحه وفتحه ، وتطبيقاته العملية التكنولوجية ، وارتباطه الوثيق بالدين والقيم الأخلاقية الرفيعة ، وتيسيره للثقافة العامة باللغة العربية ، لغة واحدة للدين والعلم والتعليم والحضارة والحياة . أما عن تأثير حضارة الإسلام في حضارة الغرب المعاصرة ، فالشواهد عليه والشهادات له كثيرة ، ولكن لعل أكتفى

* *

بأن أضيف إلى ما قدمت ما قاله « وكنز » من جامعة تورونتو في كتاب بعنوان «مقدمة في الحضارة الإسلامية» (Wickens, 1976) ، فهو خلاصة بليغة معبرة ، إذ يقول ما ترجمته : « على وجه العموم ، استعار الغرب من الشرق الأوسط ، عملياً كل النسيج الأساسي للحضارة » ويقول في موضع آخر : « ولولا انتقال هذه الأسس إلى الغرب كانوا قد ظلوا حتى اليوم كهنود أمريكا الوسطى والجنوبية . أو لعلهم كانوا أمثال قبائل البوشمن في جنوب أفريقيا ، أو الأبوروجينز في أستراليا حتى عهد قريب ، متكيفين تكيفاً طيباً للحياة في بيئتهم ، كراماً معتزين بأنفسهم ، ومادة شائقة لعلماء الأنثروبولوجيا وعلم النفس ، ولكننا لا نستطيع وصفهم بالتمدين ، بالمعنى الحقيقي الشامل للكلمة » .

* *

عبد الحافظ حلمي محمد

عضو المجمع

المراجع

آدم ميتز - ١٩٦٧

« الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى - أو عصر النهضة فى الإسلام » .
ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة . مجلدان . دار الكتاب العربى ، بيروت .

ابن عبد البر القرطبي - ١٩٧٨

« جامع بيان العلم وفضله » - جزءان . دار الكتب العلمية ، بيروت .

أبو حامد الغزالي -

« إحياء علوم الدين » - أربعة مجلدات . دار الشعب ، القاهرة .

أحمد فؤاد باشا - ١٩٨٤

« التراث العلمى للحضارة الإسلامية ، ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة » - الطبعة
الثانية ، مطابع دار المعارف ، القاهرة .

الدوميللى - ١٩٦٢

« العلم عند العرب ، وأثره فى تطور العلم العالمى » . دار القلم ، القاهرة .

طله حسين - ١٩٢٨

تقديم لكتاب « رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء » المطبعة التجارية الكبرى ،
القاهرة .

عبد الحافظ حلمى محمد - ١٩٦٥

« خلق الإبل » - منبر الإسلام (القاهرة) ، ٢٣ (٧) : ١٤٠ - ١٤٢ .

١ - ١٩٨٠

« الفجوة المتوهمة بين الدين والعلم » - كتاب المؤتمر السنوى التاسع والأربعين للمجتمع

المصرى للثقافة العلمية (١٩٧٩) ، القاهرة : ١٧ - ٣٧ .

١٩٨٠ - ب

« لغة تدريس العلوم فى الجامعات » فى :

« تعريب التعليم الجامعى والعالى » - الأمانة العامة لاتحاد الجامعات العربية ،

القاهرة : ١٥٣ - ١٥٩ .

- ١٩٨٢-
« العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم - منهاج وتطبيق » . عالم الفكر ،
الكويت ، ١٢ (٤) ك ٩٩٣ - ١٠٨٤ .
- ١٩٩٢-
« المعارف البيولوجية في رسائل إخوان الصفا » - مجلة مجمع اللغة العربية ،
القاهرة ، ٧١ : ٦٧ - ٩٧ .
- ١٩٩٣-
« الإبل عز لأهلها - إعجاز فريد في الخلق ، وأمان من المجاعة والجفاف » . كنوز
العلم ، القاهرة ، ١ : ٥٩ - ٧٣ .
- عبد الحليم منتصر - ١٩٧٥**
« تاريخ العلم ، ودور العلماء العرب في تقدمه » - الطبعة السادسة ، دار المعارف ،
القاهرة .
- عمر فروخ - ١٩٧٧**
« تاريخ العلوم عند العرب » - دار العلم للملايين ، بيروت .
- فرانتز روزنتال - ١٩٨٠**
« مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي » . (ترجمة أنيس فريحة) - الطبعة
الثالثة . دار الثقافة ، بيروت .
- محمد الصادق عفيفي - ١٩٧٧**
« تطور الفكر العلمي عند المسلمين » - مكتبة الخالجي ، القاهرة .
- محمد فؤاد عبد الباقي - ١٩٥٨**
« المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » - مطابع الشعب ، القاهرة .
- محمد كامل حسين وآخرون - ١٩٧٨**
« الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب » - المنظمة العربية للتربية والثقافة
والعلوم ، القاهرة .
- يوسف القرضاوي - ١٩٨٥**
« الرسول والعلم » ، الطبعة الثالثة - مؤسسة الرسالة ، بيروت .

- Al - Hassan, A. Y. and Donald R. Hill. 1986 . "Islamic Technology".
Cambridge University Press and UNESCO.
- Dunlop, D. M. 1985. "Arab Civilization to AD 1500". Longman, Librarie du
Liban, Beirut.
- Hayes, John R. (ed.) 1975. "The Genius of Arab Civilization". Eurabia,
London.
- Holmyard, E. J. 1947. "The Role of the Scientific Society". Endeavour, 6 (22):
49 - 50 .
- Maxwell, N. 1988. "From Knowledge to Wisdom - A Revolution in the Aims
and Methods of Science". Blackwell, New York .
- Mohammad, Abdul-Hafez Helmy. 1981. "Evolutionary Speculations of
Muslim Medieval Scholars - A Subject of Unjustified Controversy
or Neglect". Proceedings of the 16th International Congress of the
History of Science. Publishing House of the Academy of the Socialist
Republic of Romania, Bucharest, Vol. A (Scientific Sections) : 217 .
- Mohammad, Abdul-Hafez Helmy and Muna Al-Taqi. 1981. "The Role of
Medieval Moslem Scholars in the History of Cutaneous
Leishmaniasis". Proceedings of the First International Conference
on Islamic Medicine, Kuwait, Bull. Islamic Medicine 1 (2 nd ed.);
269-274.
- Nasr, S. H. 1976. "Islamic Science - An Illustrated Guide". World of Islam
Festival Publishing Company, London.
- O'Hear, A. 1989. "Introduction to the Philosophy of Science". Clarendon
Press, Oxford.

Rosenthal, F. 1970. "Knowledge Triumphant - The Concept of Knowledge in Medieval Islam". E. J. Brill, Leiden .

Rosenthal, F. 1975. "The Classical Heritage of Islam". (Translated from the German by Emile and Jenny Marmorstein). University of California Press, Berkeley, Los Angeles.

Sardar, Ziauddin. 1989. "Explorations in Islamic Science". Mansell, London and New York.

Sarton, G. 1927 - 1947. "Introduction to the History of Science". Vol.I (1927), Vol. II -in two parts (1931), Vol. III -in 2 parts (1947). Williams and Wilkins Comp., Baltimore.

Savory, R. M. (ed.). 1979. "Introduction to Islamic Civilization". Cambridge University Press.

Taton, René (ed.). 1967. "Ancient and Medieval Science". (Translated by: A. J. Pomerans). Thomas and Hudson, London.

Wickens, G. M. 1979. "What the West Borrowed from the Middle East". Chapter 11 (p. 120-126) in : Savory (1979).

* * * *

الموريسكيون فى الفكر الإسبانى

للأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكي

برز لقب الموريسكين^(١) فى التاريخ بعد قرار التنصير القهرى الذى أصدره الكاردينال ثيسيروس عراف الملكة إيزابيل عام ١٥٠٢ ، وألزم كل المسلمين الأندلسيين باعتناق الكاثوليكية أو الرحيل ، ويضم تحته مجموعات مختلفة ، ذات مواقف متباينة .

تجئ مجموعة الموريسكين فى مملكة أرغون فى المقام الأول ، على اختلاف بين الذين يقيمون فى مقاطعة أرغون وهم يتبعون السادة الإقطاعيين الذين يملكون الأراضى الخصيبة من وادى إبرو ، وبين الذين يسكنون منطقة بلنسية ، وهم يكونون جماعة متماسكة تمثل أغلب السكان .

ومجموعة ثانية تضم الموريسكين فى قشتالة وهم ينحدرون من قدامى المدجنين^(٢) ، وهؤلاء تمثلوا كل أشكال الحياة المسيحية تقريباً ، ويتمتعون بحرية واسعة ، ويرد الاقتصاديون إزدهار «البغالة» فى هذه المنطقة خلال القرن الحادى عشر إلى الموريسكين الذين كانوا يمارسونها .

وتتكون المجموعة الأخيرة من الموريسكين الأندلسيين الذين ظلوا فى قراهم ومدنهم الأصلية من مملكة غرناطة بعد سقوطها ، وكانوا مسلمين مستقيمين فى عقيدتهم وعاداتهم ومظاهر حياتهم ، وثاروا للمرة الأولى عام ١٥٠٠م عندما

(١) الموريسكيون جمع موريسكو Morisco ، نسبة إلى مورو Moro ، وكانت هذه تطلق فى البدء على المغاربة ، لأن كلمة موريتانيا التى اشتقت منها الكلمة كانت تطلق قديماً على المغرب كله ثم صارت تطلق على المسلمين جميعاً فى أى مكان ، حتى أن الإسبان أطلقوها على المسلمين الذين وجدوهم فى الفلبين عند استيلائهم عليها فى القرن السادس عشر ، ولا يزالون يعرفون بهذا اللقب حتى اليوم ، والهيئة التى تدافع عن حقوقهم ، وتناضل من أجل استقلالهم تحمل اسم «جبهة المورو» .

(٢) جمع مدجن ، من دجن بمعنى أقام ، وتطلق على المسلمين الذين تخلفوا فى المدن الإسلامية التى سقطت مبكراً فى يد النصارى قبل أن تسقط الدولة كلها ، واحتفظوا لزمان بإسلامهم كاملاً . وبلغتهم إلى حد ما .

حاول الكاردينال ثيسنيروس أن يفرض عليهم التنصير بالقوة .

باهظة يجمعونها له ، لكي يؤجل تنفيذ هذا القرار أو ذاك .

وقد شارك الموريسكيون جميعاً في كل ألوان الصراع الداخلي في الأعوام الأولى من حكم الإمبراطور شارل الأول (كارلوس الخامس في الإسبانية) ثائرين على قهرهم ، يستوى في ذلك الذين يقيمون في أرغون أو بلنسية أو قشتالة أو أندلوثيا^(٣) ، واتسم عصر شارلمان بشيء من التسامح ، رغم القرارات التي كانت تمنع الموريسكيين من استخدام عاداتهم وأشكال الحياة الإسلامية ، فكانت المسافة واسعة بين القرار وتنفيذه ، لأن مستشاري الإمبراطور كان يخشون قوة هؤلاء الموريسكيين من جانب ، ويعرفون دورهم في بناء الاقتصاد الإسباني من جانب آخر ، وقبل ذلك كله درج الموريسكيون على رشوة الإمبراطور بأموال

لكن الأمر تغير تماماً مع اعتلاء فيليب الثاني العرش عام ١٥٥٦م ، فقد كان متعصباً بطبيعته وموسوساً ومتردداً ، ورأى في قوة الأتراك العثمانيين الصاعدة خطراً عليه ، وبدا له والذين حولوه أن كل موريسكي جندي في الجيش الإسلامي التركي ، فتآكل القليل من التسامح الذي كان سائداً ، وحلت مكانه عداوة ظاهرة ، وكرهية شديدة ، ورغبة في الانتقام من الموريسكيين دون أي ذنب جنوه ، وأصدر الإمبراطور أمره بمنع الموريسكيين نهائياً وفوراً من استخدام الملابس العربية ، أو التكلم باللغة العربية ، وإحالة من يشك في ارتكابه هذه الجرائم إلى محاكم التفتيش ، وعقوبتها قد تصل إلى الإعدام

(٣) أندلوثيا Andalusia ، تميزها لها عن الأندلس الدولة ، وهو الاسم الذي يطلق الآن على جنوب إسبانيا ، وله خصائصه المستقلة عادات وعرفاً ولهجة ، ويتمتع بلون من الاستقلال الذاتي ، ويشمل المحافظات التي استقر فيها الإسلام رمزاً أطول من غيرها ، وهي : قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة وجيان وقادس والمرية وأولبة .

حرقاً . وكان ذلك سبباً في الثورة التي اندلعت في منطقة البشرات ، وهي ثورة لما تدرس لأن كل مصادرها إسبانية ، وسبق أن ألقى الضوء على جوانب منها في مقال نشر بمجلة الحرس الوطني منذ عامين .

لا توجد مصادر عربية عن هذه الثورة، وما ورد عنها في المصادر العربية يحتاج إلى حرص وحذر شديدين ، ومقابلة بين الروايات المختلفة للوصول إلى بصيص من الحقيقة ، فقد حاول المؤرخون الإسبان المعاصرون لها طمس معالمها من جانب ، وتشويه صورة زعمائها من جانب آخر ، وتحاملوا على الموريسكيين تحاملاً شديداً . وعلى أية حال يمكن القول ، في إيجاز شديد ، إن الموريسكيين قرروا مواجهة القمع والمظالم التي يتعرضون لها فاخترتوا أكثر المناطق ازدحاماً بهم ، وهي جبال البشرات ، جنوبي غرناطة ، وتجمعوا من كل أنحاء إسبانيا في كتمان

شديد ، واختاروا محمد بن أمية أميراً ، وهو ينحدر من خلفاء قرطبة الأمويين، وكان في الثانية والعشرين من عمره ، وطبقاً للتقاليد العربية تلقى البيعة الدينية ، وهو يرتدى عباءة من الأرجوان ، وتوجه والذين معه نحو القبلة ، وصلى بهم شكراً لله ، وأقسم أن يعيش أو يموت دفاعاً عن دينه ووطنه وشعبه ، وعين قاضياً للجماعة، وحمله آخرون على أكتافهم ثم رفعوه قائلين : « نصر الله محمد بن أمية ملك غرناطة وقرطبة » .

وما أسرع ما اشتعلت الثورة حية متوهجة ، وغطى الموريسكيون المسلمون كل منطقة البشرات ، وارتفع صوت المؤذن عالياً في وديانها وجبالها ، وعجزت جيوش فيليب الثاني عن القضاء عليها فاتخذوا من الخيانة والعنف وقتل الأبرياء وسيلة ، وحين استولى خوان دي أوسيتريا، وهو ابن غير شرعي للإمبراطور شارل ، وأخ الإمبراطور فيليب الثاني

على مدينة جليرة ، وكان يقود الجيوش الإسبانية ، أعدم كل سكانها ذبحاً دون تمييز بين رجل وامرأة أو بين عجوز وطفل . وبعد أن سقطت بقية القلاع القوية ، وجلها سقط بسبب الخيانة ، وزعوا الموريسكيين الذين استسلموا على بقية المقاطعات ، وأما الذين اختفوا فقد اصطادوهم كما لو كانوا وحوشاً ، وقدموهم إلى المقصلة لذبحهم ، وكثيرون نجوا بأنفسهم عبر البحر ، ولكن حب الأندلس ردهم إلى الوطن من جديد حيث سقطوا بين مخالف محاكم التفتيش ، وقدموا مشاهد تدعو إلى العظة والاعتبار في محاكمات الإحراق بالنار علناً ، وأما الذين حملوا إلى المقاطعات الأخرى فكان موقفهم أسوأ من الرق نفسه ، فالحديث باللغة العربية أو العزف على آلة موسيقية مثلاً مما كانوا يستخدمونه في العصر الإسلامي جريمة يعاقب عليها بالسجن مدى الحياة ، وكل هذه الوسائل لم تكن

تبعد بالموريسكيين كثيراً عن عاداتهم القديمة ، ولم تحولهم عن دينهم مخلصين ، فإذا حملوا واحداً منهم إلى السجن لم يكن يقاوم ، وقد يقبل التصالح أملاً في الحرية ، فإذا بلغ النهاية ، وجاءت لحظة الاحتضار ، وأصبح على أبواب الآخرة ، يرفض الكاثوليكية في صوت حاسم واضح ، ويموت على الإسلام ، ويلقى الله وهو يردد بين شفثيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ! .

« ومن ثم بدا واضحاً للحكومة الإسبانية أن الدين الذي جاء به محمد ﷺ لا يمكن استئصاله من شبه الجزيرة إلا مع آخر نفس يخرج من آخر موريسكى ، وحينئذ توجه تقي (!!) من كبار رجال الدين الكاثوليك بمذكرة إلى الملك يؤكد له فيها أنه مقتنع تماماً بأن قتل كل الموريسكيين مناسب ومفيد ومباح ، ولكن أسقف بلنسية ، ولم يكن بأقل تقوى ولا تدينياً (!!) من مواطنه ذاك ،

كتب أيضاً تقريراً آخر أوضح فيه أن الواجب المقدس يفرض عليهم القضاء على جميع الكافرين ، أى المسلمين ، وأكد على أن المصائب التى انصبت على رأس إسبانيا خلال نصف القرن الماضى كانت عقاباً عادلاً من السماء على التسامح الزنديق الذى اتبعته الحكومة مع الموريسكيين ، ويمضى مستتجاً من كل هذا أنه إذا كان غير عملى أن يقتل الملك مئات الألوف منهم فمن الواجب عليه أن ينفهم جميعاً ، وإذا بدا له فمن الأفضل أن يحكم عليهم بالسجن المؤبد ، أو بالأشغال الشاقة فى مناجم أمريكا اللاتينية، ومثل هذا الحل يعد تساهلاً إلى حد كبير ، لأننا إذا نظرنا إلى الأمر فى جدية فأنهم جميعاً يستحقون الموت . وتلا هذا التقرير طرد جميع الذين ينحدرون من أصول إسلامية فى حكم فيليب الثالث ١٦٠٩ ، وعندما فقدت إسبانيا أنشط فلاحيتها وأمهرهم تحولت إلى صحراء قاحلة لا تصلح إلا موطناً للكاثوليك المحافظين .

انتهى كلام المؤرخ الألمانى فون شك فى كتابه الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية وقد ترجمته إلى العربية ولم أحذف منه حرفاً ، ولم أزد عليه حرفاً ، حتى علامات التعجب كانت من عمله .

ولم تكن عملية الطرد بأقل قسوة فقد سيق الموريسكيون ألوفاً من كل مقاطعات إسبانيا إلى الموانئ التى تقع على البحر الأبيض ، نساء ورجالاً ، شيونخاً وشباناً ، مقيدين بالسلاسل ، حفاة فى أسمال مهلهلة ، يحيط بهم الجند ويقتلون أى فرد منهم عند أى بادرة احتجاج ، فأكلت الطرق أعدادا كبيرة منهم ، سقطوا صرعى الجوع والعطش أو الإعياء والتعب ، وألقى بجثثهم على جوانب الطرق ، والذين بلغوا الشواطئ وشحنوهم فى السفن ، تكفل البحر بجانب كبير منهم ، فقد كانوا يضعون فى المركب ضعف حمولتها ، فلا تكاد تغادر المرسى حتى يتلعبها البحر ، مع أول موجة عالية ، أو هبة من ربيع عاصفة . واستقر

الذين كتبت لهم الحياة فى المغرب أو تونس، وقلّة منهم فى الجزائر، وذهبت أعداد صغيرة منهم إلى جنوب فرنسا وضاعت أخبارهم ، ومجموعات محدودة ، غير ذات تأثير ، من أولئك وهؤلاء عادوا خفية، وآخرون مثلهم أخفاهم ملاك الأراضى وأصحاب المصانع ، لدورهم البالغ فى فلاحه أراضيهـم ، ومهارتهم فى الصناعة .



تلك هى قصة الموريسكيين فى إيجاز شديد ، فماذا كان موقف الفكر الإسباني منهم بعامة ، ذلك ما سنحاول أن نلقى عليه بعض الضوء دون أن نسقط أحداً من حسابنا ، بالغاً ما بلغ تطرفه فى عدائه لهم وتحامله عليهم ، أو فى تعاطفه معهم ودفاعه عنهم ، مروراً بأولئك الذين حاولوا أن يتخذوا موقفاً محايداً انطلاقاً من منهج موضوعى ، والذين يقفون بين قهر الضمير وانبلاج الحق وبين الخوف من الكنيسة وخشية السلطة خائفين وحائرين ومترددين .

لم تكد عملية طرد الموريسكيين تتم حتى شغلت قضيتهم الفكر الإسباني ، وربما كان بعضهم مهتماً بالموريسكيين قبل الطرد ، ولكنه لم ينشر ما كتب إلا بعد طردهم فعلا ، مما يوحي بأن الطرد كان مفاجئاً لهم ، وجاءت كتاباتهم تبريراً لما قامت به الحكومة ، وتدور فى جملتها حول موقفين متعارضين يجسّمان أفكار المعاصرين للقضية :

موقف المحبّذين للأمر ، والمدافعين ، ويضم المؤلفين الإسباني الكاثوليك ، والمحافظين ، والمعجبين بفيليب الثانى ، وبعامة أولئك الذين كان يطلق عليهم «اليمينيون» ، ويقدمون الموريسكيون بوصفهم خطراً دائماً ، عنصراً غير مقبول، ومتمرداً ، وهو سبب كل القلاقل ، والتعدى على أمن الدولة ووحدها ، وبذلوا أقصى جهدهم للبرهنة على أن الوسيلة عادلة ، وذات فائدة كبرى عامة ، واعتمدت على الإجماع الشعبى ، إلى جانب أنه لامناص منها .

الذين يشجبون هذا العمل ويشنعون عليه . وهم فى معظمهم من المؤلفين الأجانب ، المعادين لأسرة أستورياس المالكة ، وهم : الفرنسيون فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والبروتستانت بعامة ، والأحرار ، واقتصاديو القرن الثامن عشر ، واليسار ، وقد انتقدوا قرار الطرد فى حد ذاته ، وهاجموه بعنف ، ولم يروا فيه مجرد وسيلة قاسية غير إنسانية وغير ضرورية فحسب ، وإنما يرونها العامل الأساسى فى سقوط إسبانيا، لأنه حرم إسبانيا من أبنائها الأكثر مهارة وعملاً .

أثار قرار الطرد اهتمام معاصريه ، وتجلى ذلك فى كثرة المؤلفات التى تناولته وهى ذات قيمة تاريخية لا أدبية ، على النقيض مما كتب عن ثورة الموريسكيين فى جبال البشيرات ، ويمكن أن نقسم هذه المؤلفات إلى :

● مؤلفات عامة تتناول المشكلة باحثة عن

أصول الموريسكيين ودياناتهم ، وكيفية ممارستهم لطقوسهم .

● دراسات نوعية أو موجزة تهتم جزئياً بتحليل الجوانب الجانية لعملية الطرد ، أو دواوين شعرية تحبذ هذا العمل الذى قام به فيليب الثالث وأهميته .

وتتميز أعمال كل هذه الفترة بالثناء على عملية الطرد ، ولا يوجد بينها تأليف واحد نقد ما قامت به السلطة المركزية ، ويرون أن قرار الطرد عادل وضرورى وهام دينياً ، ويفضله تصبح إسبانيا بلداً نظيفاً من الإلحاد والمرتدين والخونة . وقلة من المؤلفات تضمنت أفكاراً لا ترى النفى ، ولكنها لا تعارضه ولا تدعو إلى التسامح أو التعايش ، وإنما تقترح وسائل أخرى أشد للقضاء على الموريسكيين .

يصف الراهب اليسوعى بدرو ليون Pedro León من رجال الدين فى القرن السادس عشر الموريسكيين فى كتاب له عن الحرف فى أديرة الآباء اليسوعيين ،

ولما يزل مسخوطاً في جامعتي سلمنقة
وغرناطة، في فقرات تختلف عن الواقع ،
وتنضح حقناً وكراهية ، ونقلها عنه
أ . دومينجيث أورتيث A. Dominguez
Ortiz في كتابه عن « أزمة إسبانيا
وسقوطها في عهد أسرة أستورياس » ،
يقول الراهب : « كانوا كل واحد من
مكان مختلف ، ولكل واحد عاداته ،
أنصاف لصوص ، يعيشون حياة سيئة
أناس لم يتحملوا المعاناة في مسقط
رءوسهم حيث ولدوا ، قتلة ، أشرار ،
عاداتهم متخلفة وحيوانية ، كسالى ،
قليلى المهارة ، لا يتركون ثمار جيرانهم
تنضج ، لأنهم يقطفونها قبل أوانها » .
وهى آراء لا يوافقها عليها إلا من على
شاكلته ، أما التناول الموضوعى ، ومن
المؤرخين الأسبان أنفسهم فعلى النقيض من
ذلك تماماً .

وقد اختلف أدب القرن السادس
عشر، وهو العصر الذى يلقب بالعصر

الذهبي، فى موقفه من الموريسكيين ، فقد
حمل عليهم الشعراء ، بلاطين وشعبيين ،
وأسرفوا فى مدح الملك لاتخاذ هذا
القرار، وتمتلى روايات الصعلكة بالإشارة
إلى الموريسكيين ، وبعض أبطالها منهم ،
وهى أمر طبيعى ، فالموريسكى فى ذلك
الوقت فقير ومتشرد، صعلوك ومضطهد ،
وحيد وضائع ، وهى الصفات التى يتطلبها
الفن فى شخوص روايات الصعلكة .

وقد أدخل ثريانتس Cervantes
(١٥٧٤-١٦١٦) قمة الأدب الإيبانى
والعالمى فى القرن السادس عشر الميلادى
شخصيات موريسكية فى كثير من أعماله
الروائية والمسرحية وتغير رأيه فيهم مع
الزمن ، فهو يتقدم بعنف فى روايته :
حمّامات الجزائر وحوار الكلاب ، على
حين أنه ينظر إليهم فى إشفاق ،
ويصورهم فى حالة تستدر العطف والشفقة
فى روايته الخالدة دون كيخوته ، ويرى
أنهم جديرون بذلك .

وقد اختلف المسرحي كالديرون
دى لا بركا Calderón de la Barca
(١٦٠٠-١٦٨١) فى هذا الموضوع عن
بقية رفاقه من المسرحيين ، فكتب مسرحية
« حب بعد الموت » جل شخصياتها من
الموريسكيين ، وتجرى أحداثها فى وهج
ثورة الموريسكيين فى البشرات ، وتظهر
تعاطفاً واضحاً معهم، ويمكن اعتباره
الصديق الأعظم لهؤلاء النافرين .

فإذا تركنا الأدب إلى التاريخ وجدنا
المؤرخين يجمعون على أن ثورة البشرات
التي قام بها الموريسكيون و كانت أكبر
حدث تاريخي واجه الإمبراطور فيليب
الثاني ، والأشد خطراً بين كل الصعاب
التي تعرض لها ، وسجل لنا جانباً من
أحداثها دييجو أورتادو دى مندوثا Diego
Hurtado de Mendoza (١٥٠٠-١٥٧٥) ،
وهو من أسرة نبيلة ، وولد فى غرناطة
نفسها ، وشارك فى هذه الحرب ، وقص
أحداثها فى لغة مثقفة أنيقة واضحة فى

كتابه « مدونة حرب غرناطة Crónica de
la Guerra de Granada » وانتشر كتابه
سريعاً عن طريق نسخه بخط اليد ،
وتملك مكتبة مدريد الوطنية عدداً من هذه
المخطوطات ، والطبعات التي بين أيدينا
الآن نقلاً عنها ، وتختلف هذه المخطوطات
اختلافات بسيطة غير ذات أهمية ، مردها
اعتناء النساخ أو سهوهم وإهمالهم ، وتمت
أول طبعة له فى لشبونة عاصمة البرتغال
عام ١٦٢٦ م .

يتسمى المؤلف إلى أسرة مركيز دى
مونديجر Marqués de Mondéjar ، ولعب
هذا دوراً أساسياً فى هذه الحرب ، فكان
دييجو مضطراً لإنقاذ اسمه والدفاع عنه ،
فهو يقول : « كان فى هذه الحرب أكثر من
قائد ، ولم يكن ثمة تخطيط عام للعمليات
وبلغ الصراع بين النبلاء أشده ، وسادت
الفوضى بين الجنود ، واهتموا بالغنائم أكثر
من اهتمامهم بالحرب نفسها » .

وقد أظهر ديجو تسامحاً واضحاً إزاء الموسكيين ، وهي صفة أساسية في أسرته ، وقد نفاه فيليب الثاني ، ربما لأنه لم يتردد في نقد السلطة ، والسياسة التي اتبعتها إزاء الموسكيين ، وكان حديثه بداية حركة مناهضة للإمبراطور ، لم تظهر صراحة ، وإنما يمكن استنتاجها من طريقة عرضه للأحداث .

وقد احتكر قائد الثورة محمد بن أمية ، والذي يعرف غالباً في المصادر الإسبانية باسمه الإسباني : فرناندو دي بالور Fernando de Valor اهتمام المؤلف ، وهو مشغول إلى حد بعيد عن الصورة الرومانسية التي وصلتنا عن العاهل الغرناطي .

ويرى ديجو أن مرسوم ١٥٦٧ الذي جرد الموسكيين من كل حقوقهم ، وألزمهم بترك لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانوا قد ألزموا بترك دينهم قبل ذلك بكثير ، كان سبب اشتعال هذه الثورة ،

لأنه اضطرهم إلى مواجهة الظلم الذي كانوا يعانون منه ، ويتعرضون له ، من رجال السلطة ومن عامة المسيحيين على السواء ، حتى اقتربوا من درجة العبيد ، إن لم يكونوا كذلك ، نساء وأطفالاً ، وأملاكهم وأشخاصهم في يد أعدائهم ، وطوع إرادتهم ، دون أمل في أن يصبحوا يوماً أحراراً من هذه العبودية . يعانون في حياتهم ألواناً من الاستبداد ، ومن واجبات وضرائب جديدة ، ومنعهم من اللجوء إلى قصور سادتهم ، حيث يجد المخطئون مع غيرهم عرضاً أو انتقاماً الحماية والمأوى ، وبينما يحرمونهم من حماية الكنائس ودخولها يلزمهم رجال الدين من جانب آخر بحضور القداس ، ومن يتخلف عليه أن يدفع غرامة فادحة ، وبهذه الطريقة كون رجال الدين من ورائهم ثروات طائلة . . . بين المسيحيين يعتبرون مسلمين ، فهم محقرون ، وبين المسلمين يعتبرون مسيحيين ، فلا يلقون أى عون ، مستبعدون

من الحياة ، ومحرومون من حقهم في الحفاظ على أشخاصهم . . . » .

ويحاول دييجو ، متأملاً ومفكراً ، أن يستقصى دوافع الأحداث النفسية ، ولا يكفي بأن يقدم لنا أخبار حملة تاريخية فحسب، وإنما يقوم دور الفرد ذاتياً، وحمله هذا الواقع أن يصف لنا الأشخاص الذين شاركوا في الأحداث، وأن يضمنها أفكاره عن الحرب : « باختصار ، هم يناضلون كل يوم ضد أعداء : البرد والحر والجوع ونقص الزاد ، والحاجة إلى وسائل العمل في كل شيء ، والأذى المتجدد ، وموتى باستمرار . حتى رأينا الأعداء ، دولة محاربة ، كاملة ، مسلحة ، آمنة في مكانها ، أصبحت بسبب الهمج والترك مغلوبة ، محصورة ، مخرجة من أرضها مجردة من بيوتها وأملاكها ، سجناء مقيدون ، رجالاً ونساء وأطفالاً أسرى يباعون بالمال ، أو يحملون بعيداً عن أهلهم إلى أراض بعيدة لتعميرها

والأسرى والمهاجرون ليسوا بأقل عدداً من آخرين نقرأ عنهم في كتب التاريخ . نصر مشكوك فيه ، وأحداث بالغة الخطر ، وأحياناً يراودنا الشك ، هل نحن الذين يريد الله أن يعاقبهم أو الأعداء ، حتى إذا كانت نهاية الحرب اكتشفنا أننا الذين كنا مهتدين ، وهم المعاقبون . » .

إن دييجو لم يحاول أبداً أن يكتب تاريخ الحرب ، وإنما قدم لها دراسة تاريخية ، ويذكرنا كتابه بمسرحية من العصر الذهبي ، ولكن محتواها ونظرتها إلى المشكلة التي تعرض لها تقودنا إلى مأساة سوف تتضح بجملاء ابتداء من نفى الموريسكيين في غرناطة إلى مقاطعة قشتالة .

فإذا تركنا دييجو دي مندوثا إلى لويس دي مارمول كربخال Luis de Mármol Carvajal في كتابه « تاريخ تمرد الموريسكيين وعقابهم في مملكة غرناطة » ، وجدناهما يلتقيان في جوانب ، ويختلفان في أخرى أكثر . كان مارمول جندياً

أيضاً، ولد في غرناطة نفسها مع مطلع القرن السادس عشر ، وتوفي في الثلث الأخير منه ، وعمل جندياً في الحملة التي وجهها شارل الأول ضد تونس عام ١٥٣٥ ، وظل في شمال أفريقيا خمسة وعشرين عاماً ، يقاتل في جيش الإمبراطور أو أسيراً بين يدي المسلمين ، واشترك في الحملة التي توجهت للقضاء على ثورة الموريسكيين في جبال البشيرات ، وعُدَّ كتابه تاريخاً كتبه جندي ، وصنع كثيرون مثله في العصر الذهبي لإسبانيا ، دون أن تكون لهم غاية أدبية من وراء ما يكتبون ، ولكن مؤلفاتهم ذات قيمة إخبارية عالية ، ويمتلىء كتابه بالتفصيلات ، وتختفى عنده روح التشاؤم والحزن التي نجدها في كتاب ديبجو ، ويمثل كتاب مارمول النظرية الرسمية ، ومهمته أن يبرر الحرب ، وأن يمدح الملك ، وأن يثنى على موقفه من الموريسكيين ، وكجندي لا يضع سياسة الملك ولا أوامر رؤسائه السياسيين

موضع الشك ، ومع ذلك لا يكف عن نقد المرءوسين ، وإليهم ينسب الأخطاء التي وقعت في الحرب .

وحين نوازن بين الكتاين ، كتاب ديبجو وكتاب مارمول ، نجد بناءهما متشابهاً ، وإنما يجيء الاختلاف بينهما في كمية الأخبار التي يقدمها كل كتاب ، وفي النظرة الأيديولوجية للصراع . ويرى مارمول في ابن أمية مجرد رمز ضروري اقتضته الثورة ، لم يحرض عليها ، وإن كان على علم بها ، ويضع على لسانه فكرة أنها ستكون حرباً قصيرة ، وبلا أهمية . وهو جندي يقبل الحرب واقعاً لا مفر منه ، وتخلو روايته من التأملات الفلسفية عن قسوتها ، وطافحة يبغض الموريسكيين ، ولا يرى في دفاعهم عن أنفسهم إلا أنهم مخربون ، وينسى أنهم يقاتلون عدواناً واقعاً عليهم ، ولا يقف طويلاً عند المحن المروعة التي تعرضوا لها ، ويرى في ثورتهم تمرداً على السلطة ،

لأنهم لا يريدون أن يذوبوا في المسيحيين
الأصليين . على حين ينضح كتاب دييجو
بروح عصر النهضة ، ويؤمن بموقف
متسامح ، ويرى العفو وسياسة اللين الحل
النموذجي .

وكان مارمول يقف في الجانب
المواجه، ولا يرى إمكانية السلام ، فبين
الموريسكيين متعصبون كثيرون ، ولأن
العلاقة القائمة بين مسلمي غرناطة والخلافة
في تركيا سوف تحملهم إلى الثورة مرة
أخرى في المستقبل، وأنهم يريدون تدمير
الإمبراطورية الكاثوليكية ، ويستحيل أى
حوار أو اتفاق أو تسامح معهم ، فهم
طابور خامس يجب اجتثاثه لصالح الدولة
وأمنها ، ولا يرى غير الحرب حلاً .

ويصف لنا مارمول بدقة الأمكنة التي
جرى فيها القتال ، والأسلحة التي
استخدمت ، وكيف جرت المعارك ، ويلح
على امتداد فصول الكتاب في التفرقة بين
المناطق التي تعاطفت مع قضيتهم

الموريسكيين، والتي ظلت وافية للمسيحيين
الأصليين ، ومن الناحية العسكرية يعد
الكتاب أفضل ما كتب في القرن السادس
عشر ، ويفضل غيره من المدونات
بتفصيلات وافية عن عادات الموريسكيين
وطقوسهم الدينية ، في واقعية ووضوح
نفتقدتهما في المدونات التي سبقتة .

كانت هزيمة الموريسكيين في ثورة
البشرات آخر جهد عظيم بذلوه للإبقاء
على هويتهم ، وكانت في الوقت نفسه
الخطوة الأولى في مخطط اجتثاثهم من
على أرض آبائهم وأجدادهم ، ورأى
المسيحيون في هذا النصر تنويجاً لحركة
استرداد يزعمونها قامت قبل ذلك بثمانية
قرون ونصف ، ورأوا فيه بداية القضاء
على جماعة لا يرون وجودها مقبولاً في
بلد يمثل عصا المسيحية في تلك الأيام ،
ومع الحرب اشتدت القسوة على
الموريسكيين، وازداد هؤلاء تمسكاً بإسلامهم
على نحو لم يعرفوه من قبل ، ودافعوا عن

كيانهم بصلابة ، وقاتلوا أعداءهم في شراسة ، وانتصروا عليهم في معارك كثيرة، وأوشكوا - لولا الخيانة - أن تكون لهم الغلبة النهائية ، ساعتها أدرك المسيحيون تماماً أن التعايش معهم محال ، وبدأو يفكرون في أكثر من طريقة لدفعهم كلهم خارج إسبانيا نهائياً .

نجد صدى الأفكار السابقة في كتاب «حروب غرناطة الأهلية» لمؤلفه خينيس بيريث دي إيتو Ginés Pérez de Hito (ت1595) ، وجاء في جزأين ، يمكن اعتبار الأول منهما رواية تاريخية عظيمة ، والثاني تاريخاً في شكل رواية متوسط الجودة ، وتشغل حرب البشترات ، ويسميا كآخرين كثيرين حرب غرناطة ، كل الجزء الثاني في إسبانية حديثة واضحة خفيفة وسهلة القراءة ، وهو يكتب كجندي ذكي الأشياء والأخبار التي تجرى في المعسكر ، دون أن يقيم وزناً للتفاصيل الرسمية ، ومع ذلك يجيء مصدراً بعد

دييجو ومارمول ، ويمكن الرجوع إليه فيما لا نجده عندهما ، ولكنه غير جدير بالثقة فيما يتصل بحرب البشترات ، لأنه يضيف على أحداثها ألواناً من الخيال والزخرفة تبعد بها عن الواقع التاريخي وتشوهه ، رغم أنه قاتل في هذه الحرب جندياً مع جيش مركيز بليش ، ويحتفظ له عبر صفحات كتابه بثناء عجيب ، ويرد الثورة إلى قانون 1567 الذي أشرنا إليه .

وتتضمن روايته للأخبار أشعاراً شعبية، وبخاصة في نهاية كل فصل ، وخطباً حماسية طافحة بالخيال والأوهام وألوان من تقاليد العصور الوسطى ، ويرى في ابن أمية أحد عمد الثورة الرئيسية ، ويعطى أهمية كبرى لما وقع له من أحداث قبلها ، وموقفه الأيديولوجي من الموريسكيين أقرب إلى دييجو منه إلى مارمول ، يصف حالتهم أثر الهزيمة : وهكذا تحسر الموريسكيون باكين في خشوع ، ولو عرفوا أن نهاية كل أعمالهم

أنهم سوف يُقتلون من وطنهم ، لفضلوا
أن يموت الآلاف منهم قبل أن يلقوا
سلاحهم ، ويوقعوا معاهدات السلام ، لقد
أخرجوا الموريسكيين أخيراً من أراضيهم ،
وكان من الأفضل ألا يخرجوا للكثير الذى
خسره صاحب الجلالة وكل مملكته بطردهم
من بيوتهم وقراهم ومدنهم .

وفيما يرى فإن هذه الحرب تميزت
بالقسوة ، وبلغت غاية الحدة ، لأن كل
فريق كان يدافع عن عقيدته الدينية ، وربما
تجاوز الحدود المسموح بها فى الحروب ،
وأراد كل طرف أن يجتث عدوه تماماً ،
وأن يسترقه فى أحسن الأحوال ، ويورد
الوانا من الفظائع التى ارتكبتها الفريقان
ويجعل مسئوليتها متساوية .

وتبلغ الرواية أعلى درجات الخيال فنا
حين يفسر لنا اغتيال ابن أمية بسبب
الغيرة، فقد أحب زهزة ، ولكن ابن
الوزير خانه وتآمر عليه ، وقتل رئيسه
بمساعدة ابن عبو ، وهى رواية فيما يرى

الجميع ليست حقيقية ، ومن نسج أوهام
الكاتب ، وكان ابن عبو على أية حال يمثل
الجناح المتشدد فى الثورة ، ومع رياسته لها
بعد مقتل ابن أمية تأكدت الثورة ومع
اشتدادها ، وبقاء الموريسكيين وحدهم دون
أى عون يأتيهم من بقية المسلمين ، أدرك
بعضهم النهاية الأليمة القادمة ، فدعوا إلى
حل سلمى ، على حين رأى الآخرون أن
مصيرهم إلى الموت حتماً ، على أية
حال، كان الحل سلمياً أو فى ساحة
الوغى ، وإذن فليموتوا فى ميدان القتال
أشرف لهم وأكرم .

ونفهم من عنوان الكتاب « الحروب
الأهلية فى غرناطة » ، أن المؤلف يرى
الموريسكى مواطناً ، وليس من الأقلية
الأفريقية التى كانت تقيم فى غرناطة فى
تلك الأيام ، ويرى فى الوقت نفسه أن
الحرب لم تثمر شيئاً إيجابياً لأحد ،
لا للموريسكيين، ولا للدولة الإسبانية
نفسها .

كان قرار الطرد الذي صدر عام ١٦٠٩ أشد الأحداث وقعاً وإثارة في تاريخ إسبانيا ، رغم أن ثمة إشاعات كانت ترهص به ، وأن تياراً قوياً في الرأي العام المؤثر لا ينظر إلى الموريسكيين بارتياح ، لكن أحداً لم يكن يتوقع أن يكون الإجراء الذي يتخذ معهم على هذا النحو من الجرأة والقسوة والشدة . كان معقولاً أن يتخذ هذا القرار عقب القضاء على ثورة الموريسكيين عام ١٥٧٠ ، ولكن موقف فيليب الثاني من طرد الموريسكيين خارج إسبانيا كان غامضاً ، فاكتفى بنفيهم خارج مقاطعة غرناطة إلى مقاطعات أخرى ، وإلى قشتالة بخاصة . وعلى أية حال فإن العلاقات بين الموريسكيين والمسيحيين في الفترة من ١٥٧٠ إلى ١٦٠٩ كانت تتمزق بقوة على مهل ، والفجوة تتسع وتعمق ، حتى أصبح كل موريسكي متهماً بالخيانة ، ووجوده في أي مكان يشير الشبهة ، ويجعله غير مرغوب فيه .

كان الراهب الدومينيكاني خايه بليدا أقسى عدو على الموريسكيين في هذه الفترة ، وترك لنا كتابين عن المشكلة نشرهما في بلنسية عامي ١٦١٠ و ١٦١٨ وهو بلنسي الأصل ، ووثيق الصلة بالكاردينال ريبيرا أسقف بلنسية ، ويعمل خوريا في كنيسة قرية قرييرة Corbera حيث يمثل الموريسكيون أغلبية السكان ، ومن هنا كان تعصبه الشديد ، وبغضه اللامحدود للموريسكيين ، وقد فشل في إثارة المسيحيين الأصليين من أتباعه عليهم فتحول إحساسه بالعجز إلى حقد غير معقول ، وأمضى حياته من أواخر القرن السادس عشر إلى قريب من منتصف القرن الذي يليه ، يحاول إقناع المجتمع الإسباني بضرورة طرد هؤلاء الزنادقة ، يزور الملك والوزراء ويحدثهم في الأمر بشخصه طورا، وعن طريق المذكرات والرجاوات أطوارا أخرى ، وفشلت جهوده كلها في مدريد حيث الإمبراطور ، وفي روما حيث

البابا ، وكتب كتابيه باللغة اللاتينية لأسباب ثلاثة فيما يقول : لأن الكتابة فيها أسهل عليه من الكتابة باللغة الإسبانية ، ولأن الأب اليسوعى لويس دى لابورتا فحصه وراقبه بتكليف من المجلس الملكى عام ١٦٠١ فى بلد الوليد ، ورأى أن هناك عقبات تحول دون نشره فى اللغة الرومانشية (= الإسبانية) ، وفهمت أنه يوجد قانون فى قشتالة يمنع الكتابة ضد الملحدين باللغة العامية .

أصبح بليدا عضواً نشطاً فى الحزب المناهض للموريسكيين ، وكان على رأسه الكاردينال ريبيرا أسقف بلنسية ، الذى احتضن بليدا وخصه برعاية ودود لأرائه ، ودفعه بقوة كى يستخدم كل ما وسعه ، وما فى مكتته ، لتبرير فكرته والدفاع عنها، ولم يتردد فى أن يشوه كل شئ من أجل الوصول إلى غايته ، فالموريسكى فيما يرى قاتل المسيحيين ، ويملك وسائل ومهارات متعددة تعينه على تحقيق أهدافه ، وزغم تعميدهم وترددهم على الكنائس

يراهم ملحدين يجب أن يعاقبوا ، وليس من الصالح أن يعيشوا مع المسيحيين لأنهم خطر عليهم ، وأن زملاءه من رجال الدين يرتكبون معصية حين يعقدون لهم قداساً . . ويهاجم النبلاء لأنهم يحمون كثيراً من الموريسكيين الذين يزرعون لهم أراضيهم ، ويرى أن طردهم لن يلحق بإسبانيا أى ضرر اقتصادى ، وحتى إذا كان ثمة ضرر فإن النبلاء المسيحيين ملاك الأراضي أتقياء طيبون ، وأتباع مخلصون لملكهم ، ومن أجل الله والسلام والصالح العام سوف يتحملون هذه الأضرار بصبر وابتهاج ، لأن ما يصيبهم من أضرار سوف يعرضهم الله عنه .

ويثنى كثيراً على الملك فيليب الثالث وشجاعته فى اتخاذ قرار الطرد ، ويصف مقابلة له : « أول كلمة قالها لى : لقد أنقذنا الصليب من الإهانات التى يوجهها إليه الموريسكيون ، ورددت عليه : وسوف يدفع الله لجلالتك ! » .

كان كتابا بليدا فاتحة سلسلة من الأخطاء التاريخية المتصلة بالموريسكيين ، وبداية اعتبارهم أقلية في كل مقاطعات إسبانيا ، وبداية الكتابة عن قرار الطرد ، وأصبحت نموذجاً يحتذى لكل من كتبوا بعده من الأدب المادح للقرار ، ومحاوله إقناع المترددين بانتهاز الفرصة ، وأن الطرد هو الطريق السوي الذي يجب أن يسلكوه .

ويأتي بعده دميان فونسيكا Damian Fonseca وهو برتغالي من طائفة الدومينيكان، اتخذ من بلنسية أرضاً ومقاماً، وسار على خطى بليدا في كتابه : « عدالة طرد الموريسكيين من إسبانيا : تعليمهم وارتدادهم وخيانتهم والرد على الشكوك التي تثار حول هذا الموضوع » . ويكاد يكون صورة منه في الرسائل التي أوردتها ، والخطب والإثارات التي احتواها كتابه ، والإطراء المبالغ فيه على فيليب الثالث لأنه اتخذ قرار الطرد ، ولكنه يقدم لنا معلومات هامة عن الموريسكيين أنفسهم، فيقول عن لغتهم القشتالية

(= الإسبانية) إنها كانت مختلفة ، وقليلون غيرهم يفهمونها ، ويسمونها العجمية الموريسكية ، وأنهم لم يكونوا جميعاً يحملون اسم موريسكيين ، لأن الذين في مملكة أرغون وقطلونية كان يطلق عليهم اسم «طغرينوس» Tagarinos ، كلمة محرفة من طركوني Tarracones ، نسبة إلى مدينة طركونة ، واختص الذين في بلنسية باسم «موريسكيين» .

وهو يلح على أن الموريسكيين ليسوا مسيحيين ، ويصر على أنهم ملحدون ، للأخطاء الدينية التي يرتكبونها ، وكانت هذه القضية موضع جدل عنيف وخلاف حاد في القرن السادس عشر الميلادي : هل تنصر الموريسكيين معترف به أم لا ؟ . أما مؤرخو العصر فيقولون إنه قانوني ، وأما رجال الدين فيرونه تقية ، ويصرون على أنهم ملحدون .

ويرى دميان فونسيكا أن الموريسكيين أناس فاسدون ، يتآمرون على الدولة

والكنيسة ، ويصر على أنهم مسلمون ،
ويدلل على ذلك بذكر مظاهر حياتهم ،
والوان ثقافتهم ، «والبهجة التي تغشاهم
عندما ينادون بأسمائهم العربية ...
«لا أحد منهم يأكل الدم ولا الميتة ،
ولا ما عضه حيوان آخر ، ولو كان طائراً
غرق في بحيرة» . وتتردد بكثرة في كتابه
كلمة «خونة» ، وأنهم على صلة بالأتراك ،
وهي كلمة يراد بها في ذلك الوقت مسلمي
المشرق بعامة .

كانت التهمة الأساسية التي توجه إلى
الموريسكيين بقوة من الملك ومن حوله ومن
رجال الدين ، أنهم ليسوا مسيحيين
حقيقيين ، رغم ما بُذل من جهد ومن
تضحيات غير محدودة في سبيل
تنصيرهم ، وكانت كافية فيما يرون لتنصير
كل مسلمي شمال أفريقيا ، ولكن
مقاومتهم كانت عنيفة ، ويأخذ عليهم
فونسيكا أنهم يعملون يوم الأحد ،
ومستثنون من التجنيد ، ويحرصون على

الزواج ، وينفرون من العزوبية ، فهم
يتكاثرون والمسيحيون يتناقصون ، وأنهم
الذين أدخلوا العملة الزائفة إلى إسبانيا ،
وهربوا كميات هائلة من الذهب والفضة .
ويرى أن قرار الطرد كان وحياً إلهياً .

ثم يشير إلى بعض الأضرار التي
سوف تترتب على الطرد ، ومنها : «سوف
يفقد ملاك الأرض جانباً من دخولهم ...
فالحق أن الموريسكيين كانوا يعمرون البلاد
... ويبدو من الصعب جداً تعمير ما هو
غير معمور منها الآن ، لأن البيوت بعامة
صغيرة وقديمة ودارسة ، ولا يمكن للسادة
تعميرها ، لأنهم يتظاهرون جميعاً بالفقر ،
ولا يصنعون في سبيل بنائها شيئاً . ويبدو
من الصعب تعمير الأمكنة الخربة في
الوقت الحاضر ، كما نرى في غرناطة ،
مع أن الأرض بهجة وخصبة وطازجة
وواسعة مثل أراضي بلنسية ، وكثير من
القرى التي كان يعمرها الموريسكيون
أصبحت خراباً إلى الأبد» .

ولكى يضمنى بليدا وفونسيكا مزيداً من القوة والتأييد على فكرتهما أشارا إلى أن البابا باولو الخامس وافق على قرار الطرد، على حين أن البابا لم يكن فى الواقع مجبداً لهذه الفكرة ، وفى عام ١٦١١ م . أصدر قراراً بمحو فقرتين من كتاب فونسيكا، الأولى تشير إلى أن البابا رفض أن يستقبل اللاجئيين من الموريسكيين فى أملاكه ، وتشير الثانية ، أو تفترض أنه وافق على الطرد ، لأن هذه الوسيلة لم تبلغ له إلا بعد أن أصبحت واقعاً نُفذ فعلاً .

. لم تكن الموجة المعادية للموريسكيين وقفاً على مقاطعة بلنسية وحدها ، وإنما نلتقى بمؤلفات أخرى شبيهة فى بقية المناطق، فقد نشر بدرو أثنار كاردونا Pedro Aznar Cardona كتاباً فى وثقة عام ١٦١٢ م . بعنوان : «تبرير طرد الموريسكيين وفضائل فيليب الثالث المسيحية» ، وكان من قسمين ، تحدث فى

الأول منهما عن الإسلام وخص الموريسكيين بالآخر ، وتحدث فيه عن الآثار التى سوف تترتب على طردهم ، ولم يستطع أن يفلت من إسهام سابقه بليدا وفونسيكا ، فجاءت كتاباته تنضح كراهية وبغضا وبعدا عن العقل والمنطق ، وإن أورد بعض التفاصيل عن عادات الموريسكيين فى الطعام والشراب والنظافة ، كانوا جميعاً فيما يقول - أصحاب حرف تتطلب قليلاً من الجهد : نساجين وترزية وحبالين ونساجى حلفاء ، وصناع حبل ، وأحذية ومراتب ، وجناينية ، وبحارة ، وصانعى زيت وعسل وزبيب وسكر وغزل، وصيادى سمك ، وباعة دجاج وبيض . . . وغيرها . ويكذب الفكرة الزائفة التى أشاعها خصومهم ، وهى أنهم أصحاب مهنة تسمح لهم بالتجسس وقضاء الوقت فى الشمس .

وآلف الكنىسى ماركوس الوادى حجرى إى خابيير - Marcos de Guadalja

ra y xavier ، ومن لقبه يبدو أنه من وادى
الحجارة ، كتابه «نبوءة وطرده
الموريسكيين» ، وفيه يقدم سيلا من البراهين
الإلهية والمعجزات التي سبقت الطرد ،
ليدلل على عدالة القرار ، فقد دقت
أجراس كنيسة بيليا Velilla فى أرغون
لوحدها دون أن تحركها يد ، تنبه إلى خطر
ما يخطط له الموريسكيون ، وظهرت
مجموعة من الكواكب فى وادى غراتيون
فى ٥ أكتوبر ١٦٠٣ ، ساقط السحب ،
وتدفقت الأمطار حمراء غزيرة فى لون
الدم ، وصبغت الأرض والحشائش
والأحجار فى كل المقاطعات ، وفاض نهر
تورية فى بلنسية بقوة وغزارة كما لو كان
طوفان نوح ، واقتحم المدن والقرى على
غير عادته ، وبعد فيضان الأنهر كلها عام
١٦٠٥ جف بعدها نهر كاريون لغير سبب
مفهوم ، وذات يوم من شهر مايو ١٦٠٦ ،
رأى الذين كانوا فى الحقول ، وحيث تمكن
الرؤية ، فى منتصف الليل ، السماء تنفتح

عن سيف من النار يلمع فى لون الدم ،
ماداً طرفه نحو إفريقيا ، وظل كذلك حتى
الفجر . . . إلى خوارق لا تنتهى رآها
الكنسى دعوة من الله للانتقام من
الموريسكيين !

ويرى أن حرب البشرات لم تحدث
نتيجة قرار ١٥٦٧ ، وإنما بسبب سوء
الغرناطين ، الذين تحالفوا مع الأتراك
المسلمين لإضعاف المسيحيين ، وقد أدى
تهجيرهم إلى قشتالة إلى إفقار هذه المقاطعة
مدناً وقرى ، لأن الموريسكيين استولوا على
المهن الصناعية والتجارة ، يبدأون بأموال
قليلة ، ويشرون بعد زمن يسير ، لأنهم
أشحاء لا يأكلون ولا يشربون ولا ينفقون ،
وليس من طريقة فعالة تجعلهم يعتنقون
الكاثوليكية حقاً إلا بمنعهم من التكلم
باللغة العربية ، فعن طريقها يجئ الخطر
فى أن النساء والأطفال لا يقبلون على
عقيدتنا لأنهم لا يفهمون دعاة التنصير
ولا العرافين .

وتسبح أو هام هذا الرجل الكنسى فى
حرية ، فيعدد النتائج التى سوف تترتب
على الطرد : سوف يهبط سعر القمح ،
وتتدفق التجارة بحرية ، أرضاً وبحراً ،
ودون خوف ، وتصبح السماء أكثر سخاء
على الأرض والزراعة ، وتتدفق الأموال
ذهباً وفضة ، وتجرى الاحتفالات
والمهرجانات على امتداد كل إسبانيا ، ولن
يعرف الأعداء أسرارنا ، وسوف نكون
أحراراً فى ثغورنا وشواطئنا ، ونتحرر من
الإهانات الإفريقية ، وتتوقف حوادث
الموت فى كل لحظة ، ونعمر الأرض التى
تركها هؤلاء ، ويكثر عدد الجنود ،
ونتغلب بسهولة على القلق والاختلاف ،
ونحمى الوطن من التمرد والخيانة ،
وتعيش فيها العقيدة الكاثوليكية الرسولية
الرومانية ، ونصبح آمنين تماماً فى بيوتنا
كما وعدنا الله .

والحق أن كل الذين تحدثوا عن الطرد
كانوا متفائلين بنتائجه ، وهى نقطة تجد

معارضة شديدة من الفكر الإشباني
المعاصر ، فقد ترتب عليه الخراب الزراعى
الكامل فى بلنسية ، والتدمير الشديد فى
أرغون وأندلوثيا ومقاطعات أخرى حيث
عدد الموريسكيين أقل ، وتدهورت الصناعة
تدهوراً كاملاً على نحو ما سنعرض له فيما
بعد .

إذا تركنا قساوسة الكنيسة وخرافاتهم
وأوهامهم وتعصبهم المقيت إلى الكتب التى
حاولت أن تؤرخ للحرب ، وجدناها أقل
إملاها ، مهما كان تبريرهم للعمل بأسباب
يرفضها المنطق والعقل ، ورغم ثنائهم
العاطر على فيليب الثالث ، فقد أوردوا
فى الحق معلومات حربية هامة ، وأبدوا
بعض التفهم لموقف الموريسكيين ، وشيئاً
من الوصف الواقعى للظروف التى كانت
سائدة ، وكان كتاب أنتونيو كورال إى
روخاس Antonio Corral y Rojas «تاريخ
تمرد الموريسكيين وطردهم من مملكة
بلنسية» ، ونشر فى بلد الوليد عام ١٦١٣ ،

الأول الذي سار في هذا الاتجاه، فقد اهتم أولاً بالمعلومات الحربية، ووصف الشخصيات والأمكنة والمعارك الحربية المرتبطة بالأحداث، ويصف الموريسكيين بأنهم خونة وملحدون، وبأنهم أعداء أقوياء، ومقاتلين أشداء وصارمين، وهو يحزن لطردهم، لا إشفافاً عليهم لإخراجهم من ديارهم، وإنما لإمكان أن يهربوا ما يملكون من أموال وهو كثير، ويشي على القادة الذين جردوهم من كل شيء عند طردهم، وقبله كانوا قد أخذوا منهم كل ما يملكون، ويقرر أن الذين طردوا من مقاطعة بلنسية وحدها كانت عدتهم مئة وأربعين ألفاً، وهو رقم أدنى مما يراه الآخرون. وكبرجل حرب لا يرى أن الطرد يحتاج إلى تبرير، ويقرر أن التعايش مع الموريسكيين مستحيل، وعلى أية حال يمكن اعتباره تاريخ حملة عسكرية، أوردتها المؤلف في شكل روائي سهل الفهم.

لم يشر طرد الموريسكيين أي لون من النقد في النصف الأول من القرن السابع عشر، لأن المناخ تغير جذرياً، وسقطت إسبانيا في مشكلات داخلية عويصة، وفي النصف الثاني من هذا القرن بدأت تظهر الآراء المعارضة لقرار الطرد، وكان سماح الملك كارلوس الثاني لبعض من ينحدرون من موريسكيين بالإقامة في شبه الجزيرة الإسبانية دليل واضح على أن تغييراً ما حدث في عقول الحكام الإسبانيين. وبوفاة هذا الملك عام ١٧٠٠ انتهى عصر أسرة استورياس الإسبانية، وبدأ حكم أسرة بوربون ذات الأصل الفرنسي، فقد تولى بعد الملك كارلوس الثاني فيليب الرابع بوصية منه، وكان حفيداً للويس الرابع عشر، ومع بداية حكمه سقطت مشكلة الموريسكيين في النسيان تماماً، ومع أن المؤرخ الإنجليزي ميشيل جديز Michael Geddes مزق ستار هذا الصمت بكتابه «تاريخ طرد الموريسكيين خارج إسبانيا في

عهد فيليب الثالث» ونشره في لندن عام ١٧٠٢ ، لكن الكتاب لم يكن معروفاً في إسبانيا نفسها ، ولم يشر إليه أى من مؤرخى القرن الثامن عشر .

كان الرومانسيون هم الذين ردوا أمر الموريسكيين إلى ذاكرة الإسبان بعد الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، وإلى هذه الفترة أيضاً تعود دراسات نشرت في القرن العشرين فحسب، ومعظمها يطرئ سياسة الطرد ويثنى عليها وقلة حاولت أن تقيم هذه السياسة ، وأن تدرس الأمر في شيء من الموضوعية ، وتلتقى كلها في تقديم الصراع على أنه عرقي ، فالمسلمون عنصر، والمسيحيون عنصر آخر، يتقاتلان على أرض شبه الجزيرة الإسبانية منذ عام ٧١١م ، وهى وجهة نظر تتعارض تماماً مع الحقائق التاريخية الثابتة ، ومع المنهج الذى تحلل به الأحداث الآن .

وتكررت مقولة تحقيق الوحدة الوطنية، وذلك يعنى طرد الاقلية ، واعتبروا الموريسكيين كذلك ، وفى هذا

الجانب كانت الأغلبية تدافع عن التوحيد الدينى، وترى الدين عنصراً جوهرياً فى بناء الوطن الإسبانى، وبقيت قلة تدافع عن الاقلية، وتهاجم الإدارة الإمبراطورية ، ومع ذلك ليس من السهل إقامة خط فاصل وواضح بين الفريقين ، لافى هذه المشكلة ولافى غيرها ، وكل ما يمكننا قوله أن هذه الكتابات تدور حول محاور ثلاثة :

● مؤرخون اكتفوا بتقييم الحل الذى اتخذهُ الملوك الذين ينحدرون من أسرة استورياس ، معتمدين على ماكتبه الآخرون فى القرنين السابقين دون أن يعتمدوا على أية وثائق أصيلة .

● دراسات تقوم على نصوص ووثائق قوية لما تنشر من قبل ، وبخاصة ما اتصل منها بمحاكم التفتيش ، ومحاضر مجالس البلديات ، والبرلمان ، والرسائل الدبلوماسية والإدارية ، والمحفوظة فى دور الوثائق المختلفة فى بلنسية وأرغون فى برشلونة ، وسيمنكس .

● أدباء ألفوا روايات أدبية تعتمد على وقائع تاريخية حقيقية ، وهم متأثرون أو ينتمون مباشرة إلى الموجة الرومانسية التي امتدت بقوة في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وفي نطاق هذا التقسيم يجب أن نأخذ في الاعتبار الاتجاهات الفكرية لكل مؤلف ، فالمحافظون يدافعون بقوة عن الوحدة الدينية الإسبانية ، وعاجزون عن نقد قرار الطرد ، ولا يجدون أية نقطة سوداء في اتخاذه وتنفيذه ، والأحرار أكثر تسامحاً وتعاطفاً مع الموريسكيين وأشد نقداً للسلطة .

كان على رأس كتاب القرن التاسع عشر ، ويمثل الجانب المحافظ ، ميننديث إي بلايو (١٨٥٦-١٩١٢) ، وهو ناقد ومؤرخ ، وعمل مديراً للمكتبة الوطنية في مدريد ، ومن مدينة في الشمال لم تر المسلمين خلال حكمهم إلا عابرين ، ومستوع الثقافة ، غزير الكتابة ، كثير

المؤلفات ، ويهمننا من بين أعماله كتابه الضخم « الراشدون الإسبان » ، وخصص فصلاً في الجزء الرابع منه لتحليل مشكلة الموريسكيين ، ولم تكن غايته أن يصف حياتهم ، وإنما سجل بعض أفكاره عن مواقفهم الاجتماعية ، ليبرر في النهاية المأسى التي عانوها ، والقرار الذي اتخذ بإزائهم .

وبعد مقدمة قصيرة عن شخصية الموريسكى وازن بينه وبين اليهودي : « كانت ظروف الموريسكيين أفضل من ظروف اليهود ، وحظهم من بعض الناس أقل ، وهياج الشعب ضدهم دون هياجه على اليهود بكثير . والموريسكيون طيبون ومسالمون وعاكفون على الزراعة والمهن الآلية ، وفن المعمار ، ولا يثيرون الغيرة أو الحسد في معاملاتهم وتجارتهم ، على نحو ما يلقي اليهود » .

ومع ذلك فإن هذه المقدمة تنتهي به إلى نتائج غير منطقية ، فهو يتتقد سياسة

كارلوس الخامس وفيليب الثاني لأنهما كانا متسامحين مع الموريسكيين ، ويرى أن اعتناق هؤلاء المسيحية كان زائفاً ، وأن سياسة تذيبهم لم تؤد إلى نتيجة .

ويرى أن الصراع كان بين جنسين ، وأن الأضعف دفع الثمن ، ويقدر عدد الذين طردوا من مملكة بلنسية وحدها بتسع مائة ألف موريسكى دون أن يدخل في الحساب الموريسكيين الذين ماتوا في الجبال هرباً، والذين تخلفوا ولم ينفوا، وصب كل أسفه على التأخر في تنفيذ هذا القرار .

وقد خصص موديستو لافونت Mod- esto Lafuente (١٨٠٦-١٨٦٦) صفحات واسعة من كتابه الضخم عن تاريخ إسبانيا لتحليل مشكلة الموريسكيين ، وكان أكثر الكتب قراءة في عصره ، ولهذا فإن أفكاره أثرت كثيراً في الرأي العام الإسباني على امتداد القرن التاسع عشر . ورغم أنه كان يتحرك مثل كل مؤرخي

عصره في دائرة التعصب الوطني والديني، فقد حمل كتابه وثائق جديدة عن الموريسكيين ، حصل عليها من دار المحفوظات في سيمنكس ، فأصبح مصدراً هاماً لمعرفة ما حدث في القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، ومع أن ما رواه عنها لا يختلف عما رآه سابقوه، لكن نظرتة إليها ، وحكمه عليها كان جديداً .

ويعترف رغم عدم عدائه للموريسكيين بأن ثورتهم التي شغلت أعوام (١٥٦٨-١٥٧١م) كانت مرعبة ، ويرى المظالم التي وقعت عليهم قاسية ، وكان يمكن أن تكون أخف ، فليس بين يدي الموريسكيين مدينة يملكونها ، ولا قلعة محصنة ، ولا جيش منظم ، وإنما يمتلكون شجاعة عالية ، وحمية عظيمة ، ومتعصبون لإسلامهم بلا حدود ، وغاضبون كالأسود ، ومع اضطهاد المسيحيين لهم ، والمعاملة السيئة التي

يلقونها ، فإن الحرب التي قاموا بها كان من الضروري أن تندلع ، وكان كفاحهم متعدد الجوانب .

وهو يرى القضية لأول مرة في التاريخ الإسباني من وجهة نظر تخالف كل الذين سبقوه ، ويصر على أن المسئولية موزعة : الموريسكى متمرد ، ولكن ألمّ يحمله على اتخاذ هذا الموقف الظروف التي أحاطت به في عصره ؟ . «إنها حرب نعتقد أنه كان من الممكن تجنبها بشئ من التعقل من جانب فيليب الثاني ومستشاريه الإسبان ، ولكنها ضرورية إذا أخذنا في الحسبان طريقة الملك التي كان ينفذها لإقامة الوحدة الدينية في مملكته» .

وعبر صفحات الكتاب لا يكف عن نقد حكومة فيليب الثاني ، لأن تمرد الموريسكين لم يكن وليد شر ذاتي ينطوي عليه جنسهم ، وأي شعب غيرهم سوف يثور عندما يجد غيره يتزعم منه بعنف كل الأشياء الأكثر قيمة في حياته ، وهذا

ما حدث مع الموريسكين في البشترات ، والذين يرهنوا كثيراً على شجاعتهم القوية ، وحميتهم العنيفة ، والتصاقهم الشديد بعاداتهم وتقاليدهم ، ولقد دفعهم الإحباط إلى الاندفاع في حرب ليسوا على ثقة من نتائجها ، ولم يكن أمامهم طريق غيرها . . . لقد كان خطأ سياسياً دفعهم إلى الثورة ، وإلى حرب دموية عاتية ومدمرة ، وفيها عومل الأبرياء كالمخطئين تماماً . وحلل نتائج طردهم في المجالات : الاقتصادية والسياسية والدينية .

أدى طرد الموريسكين ، فيسما يرى لقبونت ، إلى نتائج بالغة الأثر في المجالات الاقتصادية ، فقد أدى إلى اختفاء شعب ذكى عامل ، ماهر في الفنون العملية والصناعات الحرفية ، أستاذ في الزراعة بعامة ، وفي غرس قصب السكر والقطن والحمضيات بخاصة ، ولهم طرقهم الرائعة في الإرواء ، واستخدام السواقي والقنوات ، وتميزوا في صناعات

النسيج والورق والجلود ، وبعدهم شعر
الجميع بنقص الأيدي العاملة التي تتسم
بالمهارة والذكاء ، ذهبوا فجأة ، وكان
مستحيلاً أن يملأ فراغهم أحد ، والذين
حلوا مكانهم فيما بعد كانت أجورهم
عالية، وحركتهم بطيئة ، فجاء إنتاجهم
غالباً ، وهكذا حل مكان ضجيج الحياة ،
وصخب العمل ، وتدافع الناس ،
حزن صامت ، وقرى مهجورة ، وسيطر
الصوص وقطاع الطرق على السبل
الأمنة .

ويرى أن الدوق دي ليرما De Lerma
كان الوحيد الذي استفاد من قرار الطرد ،
فقد استولى على جانب كبير من الأموال
التي بيعت بها أملاك الموريسكيين ،
ويقدرونها بأنها تتجاوز خمسة ملايين
ونصف مليون ريال بنقد ذلك الزمان .
ويؤكد أن طرد الموريسكيين هو الوسيلة
الأكثر عنفاً على امتداد تاريخ إسبانيا كله ،
وينقل مقولة الكاردينال الفرنسي ريتشيليو

Richelieu (1585-1642م) عن طرد
الموريسكيين بأنه «النصيحة الأكثر اندفاعاً
وهمجية على امتداد تاريخ كل العصور» .

وفيما يتصل بالوحدة الدينية يرى
لفونت أن كل ملوك إسبانيا وشعبها عمل
من أجلها ، ولكن الوصول إليها باستئصال
الذين يمارسون عقائد أخرى عمل لم يكن
صواباً ، وكان من الأفضل استخدام
الإقناع والعقل واللفظ ووسائل متحضرة
غير تلك التي استخدمناها معهم .

وأوجز أفكاره في النتائج السياسية
على النحو التالي : «لم نجد في الخطط
الواسعة والخطرة ، التي يصورها أنصار
النقى ، ولا في قوة الموريسكيين في
بلنسية، ما يمكن أن يثير مخاوف جادة ،
وأبعد من هذا بكثير أن يثيرها الموريسكيون
في أرغون أو مرسية ، كما بسطها نواب
الملك في تلك الولايات ، وكانوا الأكثر
التصاقاً بالواقع ، وقدرة على تقييم
المواقف، ولا نعرف أن الموريسكيين في

قشتالة تأمروا، أو حتى يستطيعون التآمر». وعلى أية حال عندما نجد بعد الانتصار على المسلمين بقرون من الزمان أن الموريسكيين يخضعون لنا ، وتحكمهم قواتنا ، ويعيشون محيطين بيننا، ويختلطون بالإسبان المسيحيين ، ومع ذلك لم ننجح في إذابة تقاليدهم وعاداتهم ، ومزجهم بنا ، ويعيدون بناء شعبيهم المنهزم، الذي يعيش وسط جماهير الشعب المتصر العريضة ، وعجزنا عن جعلهم يتمثلون حضارتنا ، أو أن نصنع منهم إسبانيا مسيحية دون أن نستخدم العنف لاستئصال جيل بأكمله ، ذلك يعنى فشل سياسة فيليب الثالث ومن جاء بعده أو سبقه من الملوك .

غير أن كانو باس دل كاستيو -Cano- vas del castillo فى كتابه «تاريخ إسبانيا العام» وصدر فى مدريد أعوام (١٨٩٠-١٨٩٤) يرفض آراء لفسونت ، ويحاول أن يفندها ، ويرى أن الطرد كان وسيلة عادلة ، دون أن يكون أياً من آرائه

التي أبدأها مقنعاً ، ويعترف بأن الأضرار الاقتصادية كانت فادحة ، وفى بلنسية بخاصة ، ولكنه يرى أن الوحدة الدينية فيها العوض ، وأن إعمار القرى التي نخلت من سكانها كان سريعاً .

فى منتصف القرن التاسع عشر نشر الكونت ألبيرو دى سيركو Albert de Circout كتاباً بالفرنسية ، ونشره فى باريس عام ١٨٤٦ ، فى ثلاثة أجزاء عن «تاريخ المسلمين والمدجنين والموريسكيين» ووقف نصفه تقريباً على مشكلة الموريسكيين ، ودرس فى الجزء الثانى وبعض الثالث حرب غرناطة، معتمداً على الوثائق التي نشرها سابقوه من المؤرخين . وفيه يتتقد سياسة الملك وموظفى الدولة صراحة ، ويدافع عن الموريسكيين ، ويراهم شهداء التعصب الإسبانى رغم أن إسبانيا تدين لهم بالكثير ، ولا يستحقون هذه المعاملة السيئة .

وهو فى نظرتة هذه إلى الأحداث يقف فى مواجهة الغالبية العظمى من المؤرخين الإسبان، لا فى ما يتصل بموقفهم من الأقلية فحسب، وإنما أيضاً فى نظرتة إلى العصر بأكمله ، وهو يجعل من ثورة الموريسكيين الأساس ، ويخصها بدراسة وافية ، على حين يشغل قرار الطرد نفسه أربعة فصول مختصرة ومركزة ، وخلال الدراسة يركز على نقد محاكم التفتيش ، والتعصب الدينى ، ويرى المجتمع الإشباني مجتمعاً مغلقاً لا يعرف التسامح، دموياً وطاغياً ، ويسمح لنفسه بأن يلعب بأقدار نصف مليون إنسان . وهو يهاجم فيليب الثالث ، ويحمل الدوق دى ليرما المسئولية الكبرى ، ويتهم الملك بأنه استولى على كل ممتلكات المساجين الذين سيقوا إلى السفن لتحملهم إلى المنافى ، وأن قانون الطرد هذا حرم منطقة بلنسية وحدها من مائتى ألف إنسان . ولقد كان القرار - فيما يرى - ظلماً صارخاً وقع على طائفة من أبناء الوطن هم الأكثر إنتاجاً .

فى الطريق إلى السفن التى سيق إليها الموريسكيون حفاة مشاة ، كان كل شئ يباع لهم بأسعار مرتفعة للغاية ، بما فيها مياه الأنهار التى يمررون بها لو حاولوا الشرب منها ، أو الأشجار التى يحاولون أن يتفياوا ظلالها ، ويستريحوا تحتها لحظة من الزمن .

ويرى الموريسكيين إسبانيا شأن غيرهم وحب الوطن هو الذى جعل الشبان فى رقوطة يتزوجون من مسيحيات أصليات لكى يظلوا فى إسبانيا وطنهم ، وأن يدخلوا الأديرة إحتماء بها ، وأن يسلكوا طريقهم إلى قمم الجبال بحثاً عن مخبأ ، حيث انتهت حياتهم التعمسة ولكن تأمل السماء فوقهم بث فى نفوسهم شيئاً من السعادة ، وسلاهم عن كل ألوان المعاناة والملاحقة .

ويورد أعداد المنفيين التى أوردها المؤرخون قبله ، وأنها تتراوح بين أكثر من مليون فى أعلاها ، وأربع مائة ألف فى أقلها ، ولكن يتقدمها ولا يأخذ بها ،

ويرى أنه لمعرفة الذين خسرتهم إسبانيا من الموريسكيين لابد أن ندخل في عددهم الذين أعملوا السيف في رقابهم، والنار لإحراقهم، والجوع، والذين هربوا قبل صدور القرار .

في الثلث الأول من القرن العشرين نسي الإسبان مشكلة الموريسكيين ، واهتم بها المستشرقون وحدهم، وفي جانبها الديني فحسب ، ربما لأن المؤرخين رأوا أنها قتلت بحثاً ، ولم يبق من جديد يمكن أن يضاف إليها .

ثم جاءت الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦-١٩٣٩) وفيها انتصرت الفاشية بقيادة الجنرال فرانكو، فأخذ الفكر الإسباني بعدها اتجاهاً جديداً، يهدف إلى تعميق الروح القومية ، وتمكين الانتماء الوطني، ووسيلته إضفاء صفة العظمة على عصر ملوك إسبانيا الذين انحدروا من أسرة أستورياس ، وتمجيد كل ما قاموا به من أعمال ، وإذا وجدت دراسة تتصل

بالموريسكيين فإن غايتها الوحيدة أن تذكر الإسبان بالظروف التي عاشها الإسباني المسلم المهزوم .

ولكن ما إن استقر المنتصرون في الحكم في إسبانيا والمنفيون في مهاجرهم من أوروبا وأمريكا حتى فجر أميركو كاسترو القضية بكتابه العملاق : «إسبانيا في تاريخها بين المسلمين والمسيحيين واليهود»، وصدرت طبعته الأولى في بونس أيرس عاصمة الأرجنتين عام ١٩٤٨ ، ثم عاد إليه مؤلفه وعمقه وأضاف إليه جديداً في ضوء المناقشات الحادة التي جرت حوله ، وأصدره في طبعة ثانية في المكسيك عام ١٩٦٢ بعنوان : «حقيقة إسبانيا التاريخية»، وقد ظل الكتاب ومؤلفه ممنوعين من دخول إسبانيا حتى وفاة فرانكو عام ١٩٧٥ ، لأنه كان ثورة في كل الأفكار المتصلة بتاريخ إسبانيا في عصرها الإسلامي، وأخذ منحى فلسفياً ، فهو يقف عند الكليات، والتنظير والتوثيق ،

وترجم إلى عدد كبير من اللغات الأجنبية:
الألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية
وأنهت من قريب ترجمته إلى العربية ،
وهي في انتظار الناشر الجاد .

الكتاب عميق ومكثف ، ومن الصعب
حتى أن يومئ المرء إلى أفكاره في هذا
الموجز ، ونكتفى بإيراد رأيه عن
الموريسكيين، وهو ما يهتما هنا ، ومجمله
«أن وراء طرد الموريسكيين ما هو أكثر من
التعصب الديني والمنافسة الاقتصادية وغباء
الحكومة ، وعلينا أن نأخذ في الحسبان إلى
جانب ما سبق تكوين الحياة الإسبانية
وطريقتها في العمل ، وهي في هذا وحيدة
ولا شبيه لها فيما يتصل بالقيم التي
أوجدتها، قيم كانت أداة تحطيمها في نهاية
المطاف» . والخطيئة الوحيدة التي يأخذها
كاسترو على الموريسكيين أنهم حاولوا
أن يستردوا سلطانهم الذي فقده عام

١٤٩٢

«لقد كان المجد والإمبراطورية يشغل
الطبقة العليا المسيحية أكثر مما يشغلها الواقع
الاقتصادي والاجتماعي وأصابهما الشلل ،
ولو عمل الموريسكي للمسيحي على نحو
ما كان يفعل الهندي في المكسيك وبيرو
لأصبحت الحياة الإسبانية شيئاً آخر، ولكن
تراثه من الهوية الإسلامية ، وإحساسه بها،
رغم سقوطه ، سمح له أن يبنى حياته
الخاصة والمستقلة إلى حد ما، فيما يتصل
بالاقتصاد وممارسة شعائر دينه علانية إلى
حد ما» .

ويرى كاسترو أن المسلمين طردوا من
إسبانيا رغم أنهم لا يقلون إسبانية عن
الذين بقوا فيها وتخلت عنهم الدولة وهم
الأكثر عملاً وإنتاجاً وتوفيراً لمجرد «الشرف
الوطني» ، المتمثل في الوحدة الدينية ،
وسيادة السلطة الحاكمة ، وقد تحولت
المشكلة الموريسكية في القرن السادس عشر
إلى صراع إرادات من أجل البقاء بين

المتخاصمين، ونتيجتها الوحيدة أن يقضى
أحد الطرفين على الآخر، وأدى هذا الحل
إلى تدمير أكثر من مقاطعة إسبانية. لقد
كان الموريسكيون يكونون قطعة من إسبانيا
وامتداداً لشعبها وتغير موقف الدولة منهم
حين شعرت أنهم خطر على أمنها،
بتراسلهم وتواصلهم مع بقية المسلمين
خارج شبه الجزيرة الأيبيرية.

وقد تضدى سانتشو البرنس لفكر
أميركو كاسترو، وتخاصماً بقوة، ومع أن
البرنس كان ضد الفاشية، ومنفياً شأن
كاسترو، ولكنه كان متعصباً بلا حدود،
وما أكثر ما يعشى التعصب عن الحقيقة
الواضحة، وقد عرض أفكاره في سلسلة
من المقالات جمعها في كتاب نشره عام
١٩٦٢م في بونس أيرس حيث يقيم، وهي
لا تخرج في مجملها عما كتبه المتعصبون
من الإسبان في عصور الظلام الفكرى، إلا
أنها كتبت في لغة العصر الحديث، وحاول
صاحبها أن يضى عليها ظلاً من المنهجية
في التناول، ويرى أن عملية الطرد كانت

ضرورية لا مفر منها، ويأسى على أن
تنفيذها جاء متأخراً، مهما كانت قاسية
ولوئت تاريخ إسبانيا.

ويقدم لنا جريجوريو مارنيون، وهو
طبيب إسباني عالمى، مفكر وفيلسوف،
ويلتقى مع كاسترو والبرنس فى أنه مثلهما
وقف ضد الفاشية، وعانى مرارة النفى،
ولو أنه عاد إلى وطنه قبلهما فى حياة
فرانكو نفسه، تفسيراً جديداً، وجديراً بأن
نشير إليه. فقد ألقى وهو فى المنفى، إبان
الحرب العالمية الثانية، محاضرة فى مدرسة
العلوم السياسية فى باريس، فى شهر
مارس ١٩٤٢م، بعنوان: «تأثير فرنسا فى
السياسة الإسبانية من خلال المهاجرين
إليها»، ونشر المحاضرة فيما بعد، إلى
جانب قضايا أخرى شبيهة، فى كتابه
«إسبانيون خارج إسبانيا»، وصدرت طبعته
الأولى عام ١٩٤٧م.

فى هذه المحاضرة عرض لطرده
الموريسكيين من إسبانيا، لأن جانباً محدوداً

منهم هاجر إلى جنوب فرنسا ، واستقر فيها، وتلاشوا مع الزمن، يقول بالحرف الواحد :

«كل المؤلفين الإسبان والأجانب يعتبرون طرد الموريسكيين نتيجة تعصب فيليب الثاني ومحاكم التفتيش، فقد ضحوا استجابة لتعصبهم الديني بثروة إسبانيا، لأن الموريسكيين كانوا الفلاحين الأكثر فعالية ومهارة في كل إسبانيا، ولكن الحقيقة شئ آخر . فلا أحد كان يعرف أكثر من الملك، ومن كبار ملاك الأرض، ومن الكنيسة نفسها فائدة الموريسكيين، فقد كان هؤلاء يقومون على فلاحه أراضي الطبقة الأرستقراطية الواسعة، وأملاك الكنيسة العريضة ، بطريقة رائعة، وبتكلفة زهيدة، ولهذا فرغم المعارضة الشديدة التي أبداه المريسكيون للتخلي عن دينهم، ومقاومتهم العنيدة ضد اعتناق المسيحية ، فإن المجتمع قبلهم وتحملهم على امتداد قرنين من الزمان . ولم تكن ملاحقة

محاكم التفتيش خاصة بهم وحدهم ، وبذلت الكنيسة جهوداً خارقة لحملهم على اعتناق الكاثوليكية ، ولكن هذه الجهود ضاعت كلها عبثاً ، فقد ظل الموريسكيون أشد عناداً وتصلباً في الاستمسك بعقيدتهم وأقل نفاقاً من اليهود، ونادراً ما مارسوا المسيحية أو تظاهروا بممارستها، وأكثر من هذا كانوا يجدون متعة ، ويحسون بالزهو، في أن يظهرُوا أمام المسيحيين تمسكهم بتراثهم الديني ، ويتم ذلك أحياناً بطريقة استفزازية . وبما أنهم لا يجندون في الجيش ، ولا يشاركون في الحرب، ولا يعترفون بالرهينة، بدأوا يفوقون الشخصية الإسبانية، حتى أنهم كانوا سيمتصونها في أعوام قليلة قادمة» .

ويرى «أن الطرد كان لأسباب سياسية بحتة، وضد رأى جانب كبير من الأساقفة الإسبان، وضد رأى كل رجال الدين دونهم، وتمثل هذه الأسباب في فطنة الشعب الموريسكي الواضحة والخطيرة ،

واتصاله بالحكومات الأجنبية، وبخاصة حكومة فرنسا، وما كان بوسع فيليب الثالث أن يتصرف بغير هذه الطريقة فقد كانت هذه الاتصالات تهدد بقوة الوحدة الوطنية الضعيفة» .

ونجى أخيراً إلى دراسة خوليو كارو باروخا ، وهو إسباني من منطقة الباسك، ويوصف كتابه : «الموريسكيون في مملكة غرناطة : دراسة تاريخية اجتماعية»، وصدر عن معهد الدراسات السياسية في مدريد عام ١٩٧٦ ، بأنه من خير الدراسات في بابه ، ونال عنه جائزة أحسن بحث عام ١٩٨١ ، وفيه أوجز الأصول الأولى التي تناولت القضية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأعطى اهتماماً خاصاً لمسألة الأصول العرقية ، وتتبع بدقة العادات والتقاليد والموروثات التي كانت سائدة بين الموريسكيين الذين يقيمون في غرناطة أو خارجها في جبال البشيرات وأحاط بثقافتهم

النظرية والعملية، وعرض لآلوان الاضطهاد التي حلت بهم، ويرى أن إعلانهم الحرب على الدولة كان المخرج الوحيد أمام محاولة تدمير ثقافتهم وبنائهم الاجتماعي، وأدى هذا بهم إلى شدة تمسكهم بدينهم، فأصبحوا أقوى إسلاماً، وأحرص على أداء شعائهم وإقامتها علانية، مما كانوا عليه في أي يوم سبق من الأيام .

• • •

فإذا جئنا إلى الدراسات الآنية وجدنا أنها كثيرة ومتعددة ومتنوعة، والقضية الموريسكية توجد في أية دراسة تتصل بتاريخ إسبانيا في القرن السادس عشر، أو بمحاكم التفتيش، أو بالعصر الذهبي في الأدب، وفي هذا الأفق الواسع يوجد مؤلفون يتحركون في إطار جغرافية أحياناً، واتجاهات تتميز بمضمونها الذاتي . وربما كان أبرز هذه الاتجاهات المبيل إلى تحليل الأدب الموريسكي، وهو المكتسب في اللغة الرومانشية الإسبانية، إحدى عاميات اللغة

اللاتينية، فى حروف عربية، وعرف باسم
الأدب العجمى Al jamiado .

عبر القرون الماضية تعرض هذا الأدب
لاحتقار شديد، ورآه الدارسون غامضاً غير
واضح، انعكاساً لحياة الموريسكيين البائسة
المتدنية، وموقفهم بوصفهم أقلية ثقافية
لا تستأهل أن يقف أحد عندها . وهو رأى
زائف وظالم، لأن أهمية هذا الأدب
لا تتمثل فى مستواه الأدبى فحسب ولا فى
مستوى اللغة التى كتب فيها، وإنما فى أنه
نقل لنا طريقة تفكير الموريسكيين، وقد
تولى بعض العلماء الإسبان نشر جانب
قليل منه، وبقى الكثير مخطوطاً لما بر
النور، غير أن جانباً لا بأس من الرسائل
الجامعية يدور حول مخطوطات هذا

الأدب، يحققها، ويدرسها، ويعيد كتابتها
فى اللغة الإسبانية الحديثة، إلى جانب نشر
الأصل نفسه أيضاً، وموضوعات هذا
الأدب تدور فى جملتها حول نقد الوسط
الإسباني الذى عاشوا فيه، وشجب العقيدة
المسيحية التى أكرهوا على اعتناقها، وبلغ
الاهتمام بهذا الأدب قمته فى الحوار الذى
أقيم حوله فى مدريد عام ١٩٧٨م

وماذا عن الموريسكيين فى العالم
العربى والإسلامى؟

هذا حديث آخر يثير الشجن، يبكى
القلب، ويدمع القلم، فلندعه لمناسبة
أخرى .

الطاهر احمد مكي



أبو الحسن الديلمي وكتابه

« عطف الألف المألوف على اللام المعطوف »

للأستاذ الدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعي

إنه نص صوفي عربي عمره ألف عام أو تزيد ، ينتاول ظاهرة الحب الإلهي ، والحب بوجه عام ، بالدراسة المستوعبة والتحليل الدقيق . ولعله يكون أول كتاب كامل ، يصل إلينا ، من ذخائر التراث العربي الإسلامي ، مقصورا على هذا الموضوع الجليل^(١) ، إذا ما تركنا جانبا الرسائل الصغيرة والفصول المتناثرة في المصادر التي سبقتة . أما كل من كتاب « الزهرة » للفقيه الظاهري إيس داود (ت ٢٩٧ هـ) ، و « كتاب الموشى في مسالك المحبين والظرفاء » للأديب الناقد محمد بن أحمد الوشاء (٣٢٥-٣٩٦ هـ) ، وكتاب « اعتلال القلوب » للأديب المتفقه أبي بكر الخرائطي

(ت ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م) فقد تناول - بتحليل قريب الغور - الجانب الإنساني من الظاهرة ، مع عناية بالجانب الأدبي خاصة ، وإن لم يخل كل منها من إلمحات إلى الجوانب الفكرية والروحية^(٢) .

وأما كتاب « الرياض في أخبار الميمين » لمؤلفه محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) المعاصر لكتابتنا هذا ، فإنه لم يصل إلينا ، وإن كانت النقول المتفرقة عنه - لدى السراج وابن الجوزي وغيرهما - توحى كذلك بطبيعته الأدبية الإنسانية^(٣) .

وكاتب هذا النص هو الصوفي السني أبو الحسن الديلمي ، الذي عاش أكثر أعوام حياته ، إن لم يكن كلها ، في

(١) انظر ريتز : مشارق أنوار القلوب ، ص ٥ من المقدمة .

(٢) انظر بل : نظرية الحب عند متأخري الخنابلة ، ص ٨ - ٩ .

(٣) السابق ، ص ٩ .

أعمال سابقة ، فى موضوع المحبة ،
ما يزال الكثير منها مفقودا إلى اليوم .
ولئن كان هذا الكتاب النفيس قد
احتجب فى أطواء الماضى أمدا طويلا فقد
شاء الله - تعالى - أن يخرج إلى النور ،
فينشر نصه العربى لأول مرة فى مطلع
الستينيات من القرن العشرين ، ثم تنشر
ترجمته الفرنسية فى أول الثمانينيات (١) .
وها نحن أولاء نعيد إصداره ، بمزيد من
الاحتراف والعناية ، فى لغته الأصلية ، فى
العقد الأخير من هذا القرن ، ونقدمه أيضا
إلى قراء الإنجليزية فى ترجمة نرجو أن
تلقى قبول المهتمين منهم بالتراث الصوفى
والثقافة الإسلامية بوجه عام (٢) .

وبالرغم من أن الكتاب لا يوجد الآن
- حسب علمنا - إلا فى مخطوطة
وحيدة، محفوظة فى مكتبة أوربية ، فقد
كان فيما يبدو ، أحد الأعمال التى
مارست، لفترة ملحوظة ، لونا من التأثير

القرن الرابع الهجرى ، حين بلغت الثقافة
الإسلامية أوج ازدهارها ، وتلمذ لأبى
عبد الله محمد بن خفيف ، شيخ شيراز
الكبير (ت ٣٧١ هـ / ٩٨٢ م) ،
وترجم له ، وورث عنه مشربه الصوفى مع
نزعتة الحلاجية المعتدلة . وقد وظف
المؤلف البارع تجاربه الروحية والاجتماعية،
ومعارفه الأدبية والكلامية والفلسفية ،
وثقافته الدينية ، فى تحليل ظاهرة الحب
من حيث أسبابها ودواعيها ، وأحوالها
وشواهدا ، وأطوارها المختلفة ،
ومستوياتها الإلهية والإنسانية ، وآثارها
الفردية والاجتماعية ، ومواقف علماء
المسلمين منها على اختلاف مشاربيهم
واتجاهاتهم ، مع تفتح ملحوظ على
الثقافات الأخرى التى ألم بها معاصروه فى
ذلك القرن الزاهر .

وضمن المؤلف كتابه - لحسن الحظ
- نصوصا هامة وشذرات متفرقة من

(١) أصدر المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية بالقاهرة النص العربى للكتاب ، بتحقيق الأستاذ فاديه
عام ١٩٦١م ، ونشر الأستاذ فاديه ترجمته الفرنسية فى جنيف عام ١٩٨٠
(٢) قمت بهذين العملين مشاركا الدكتور « جوزيف بل » أستاذ اللغة العربية بجامعة برجن بالنرويج .

على الفكر الصوفي في فارس ، وبخاصة في مدينة شيراز ، ويبدو هذا التأثير بوضوح في مؤلفات روزبهان البقلي الشيرازي (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) الذي عاش في هذه المدينة بعد الديلمي بنحو قرنين من الزمان ، ونقل لنا أجزاء من متن كتاب « العطف » في أعماله الصوفية ، وخاصة في كتابيه « مشرب الأرواح » و « عبهر العاشقين » .

ولعل كتاب الديلمي المذكور كان له أيضا بعض الأثر فيما ظهر بعد ذلك من ازدهار أدبي في البيئة الصوفية التي تميزت بها مدينة شيراز (١) .

أ - المؤلف

حياته وعصره :

عنى مؤلفنا بالتأريخ لشيخه أبي عبد الله بن خفيف في سيرته المشهورة ،

وحفظ لنا تفاصيل كثيرة عنه في تلك « السيرة » . وفي كتابه الآخر المفقود ، المعروف « بالمشيخة » عنى بالتأريخ لأعلام عصره من العلماء والصوفية اللذين روى عنهم ، ونقل المؤرخون وكتاب السير - وخصوصا في شيراز - الكثير من هذه التفاصيل في مؤلفاتهم ، لكنهم ، بالرغم من هذا ، لم يذكروا ترجمة الديلمي نفسه .

ومن ثم فإن المعلومات التي بأيدينا عن حياته وعن مؤلفاته قليلة ؛ فمنها ما بلغنا عن سند رواية كتابه « العطف » ، المسجل على صفحة العنوان في النسخة الباقية من هذا الكتاب . ومنها ما أمكن استخلاصه من مصادر أخرى ، أشار « فاديه » في مقدمة ترجمته الفرنسية إلى معظمها (٢) .

وبسبب هذا الصمت من جانب المؤرخين وكتاب السير ، لا نعرف -

(١) هناك سلسلة صوفية تربط حافظا الشيرازي (المتوفى ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م) بروزبهان البقلي الشيرازي ، انظر روزبهان بقلي : شرح شطحيات ، المقدمة ٥٦ - ٦٣ .

(٢) انظر : Vadet , Le traite L, avouer mystique وهو ترجمة كاملة بالفرنسية لكتاب (عطف الالف . .) . وهو المرجع الذي نشير إليه فيما يلي بقولنا « ف : ترجمة » وفي مقدمتها تفاصيل أكثر مما ذكرنا عن تسلسل رواية كتاب « العطف » ، فإن ما أورده Flovian Sobieroj . في رسالته للدكتوراه بجامعة فرايبورج بألمانيا عن ابن خفيف ، وسنشير إليه فيما يلي باسم « صبيروي » :

وعلمه وحاله ، وحاجة أهل عصره إليه في رأيه وعقله . . . (٢) ، أمكننا أن نستخلص منهما أنه كان شابا عندما تيسر له لقاء الشيخ لأول مرة في التاريخ المذكور آنفا ، إذ لولا طول عمر الشيخ لقاته لقاءه والتلمذ له .

كما أننا لا نعرف - على وجه التحديد أيضا - تاريخ وفاة الديلمي ، وغاية ما أمكننا أن نحظى به في هذا الصدد هو أنه من الممكن أن يكون هو الشخص الذي ذكره القفطي باسم أبي الحسن الديلمي ، وروى أنه زار مع آخرين الوزير أبا علي مؤيد الملك (٣) ، وهو الوزير الذي تقلد الوزارة عام ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ - ١٠٠٢ م ببغداد (٤) . وهذا يعنى أن الديلمي كان حيا في أوائل العقد الأخير من القرن الرابع الهجرى .

للأسف - شيئا عن تاريخ ميلاد الديلمي ، لكن يغلب على ظننا أنه كان مازال شابا فتيا ، أو ربما صبيا يافعا ، عندما التقى بشيخه ابن خفيف وتلمذ عليه حوالي عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ - ٩٦٤ م ، أى قبل وفاة الشيخ بنحو تسع عشرة سنة ؛ وذلك أن ابن خفيف الذي توفى عام ٣٧١ هـ ، كان له خادم اسمه أبو أحمد الكبير ، توفى - طبقا لرواية الجنيد الشيرازى في « شد الإزار » - سنة ٣٧٧ هـ ، والديلمي يقول عن أبي أحمد هذا - في المصدر نفسه - : « رأيتُه نحو من خمسة (كذا) وعشرين سنة » (١) ؛ أى أنه رآه في صحبة الشيخ ابتداء من عام ٣٥٢ هـ . وإذا أضفنا إلى ذلك قول الديلمي - في المصدر نفسه أيضا - عن شيخه ابن خفيف : « لولا أن منَّ الله علينا بطول عمره ، حتى أدركناه واستفدنا منه ، لكان معدودا في الطبقة الثانية ؛ لمحله وسنه

(١) شد الإزار ٤٦ - ٤٧

(٢) السابق ٣٨ - ٣٩ .

(٣) القفطي : تاريخ الحكماء ، ٢١١ - ٢١٢

(٤) انظر الصابى ، أبو الحسن الهلال بن للحسن : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، ٤٦٧

فإن لم يصح هذا الخبر ، أو كان عن
ديلمي آخر ، فقصارى ما فى أيدينا بعد
ذلك ما رواه الجنيد الشيرازى فى كتابه
« شد الإزار » عن الديلمي أنه قال عن
أبى أحمد الصغير ، وهو خادم آخر لشيخه
ابن خفيف : « سمعت الشيخ الكبير
يقول : كيف لا أحب أبا أحمد وكان
يغطينى وأهلى بالثياب ثلاثين سنة ؟ قال :
مات وقد قارب السبعين . . . ما عرفت له
طول عمره زلة ولا هفوة . . . » (١) ثم
يذكر الجنيد أن أبا أحمد توفى عام
٣٨٥ هـ / ٩٩٥ - ٦٩٩ م ، وهذا يفيد
بوضوح أن الديلمي كان حيا فى منتصف
العقد قبل الأخير من القرن الرابع
الهجرى .

فإذا افترضنا أنه عند انضمامه إلى
حلقة الشيخ حوالى عام ٣٥٢ هـ كانت
سنه تقريبا خمس عشرة سنة ، فإن ميلاده
ربما كان فى حدود عام ٣٣٧ هـ . وبذا

(١) شد الإزار ٤٦ - ٤٧

يكون الديلمي قد عاش حوالى خمسة
عقود فى ظل خلافة الخلفاء العباسيين
الثلاثة : المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ)
وابنه الطائع (٣٦٣ - ٣٨١ هـ) والقادر
(٣٨١ - ٤٢٢ هـ) .

وبذا يكون أيضا قد عاصر
النصف الأول من المدة التى هيمن فيها
« البويهيون » ذوى الأصل الديلمي على
غرب فارس والعراق ، وأصبحوا خلالها
أقوى قوة فى المنطقة الوسطى من العالم
الإسلامى ، وكانوا ذوى ميول شيعية مع قدر
كبير من الاعتدال والسماحة ، مما دعاهم
إلى التعاون مع الخليفة العباسى السنى
ودعم مكانته ونفوذه ، واستمداد المشروعية
لدولتهم منه . ودعاهم أيضا إلى رعاية الحياة
العلمية والثقافية بمختلف اتجاهاتها المذهبية .
وذلك عن طريق تقديم الهبات المالية
وإنشاء المكتبات وإقامة الندوات ، وقد كان

من نصيب شيراز أن بنى فيها « عضد الدولة البويهى » مكتبة عامرة^(١) .

وفى ظل هذه الروح المتسامحة وما ترتب عليها من نهضة علمية وثقافية برزت أسماء خالدة فى مجالات العلم والأدب : مثل أبى الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦

/ ٩٦٧) والشريفين الرضى (ت ٤٠٦ /

١٠١٦) وأخيه المرتضى (ت ٤٣٦ /

١٠٤٤) وأبى إسحق الصابىء (ت ٣٨٤

/ ٩٩٤) والقاضى المتكلم أبى بكر

الباقلانى (ت ٤٠٣ / ١٠١٣)

والفيلسوف الأديب المتكلم أبى حيان

التوحيدى (ت ٤١٤ / ١٠٢٣) والعارف

الصوفى الكبير أبى عبد الله محمد

بن خفيف ٣٧١ هـ / ٩٨٢ م) شيخ

مؤلفنا الديلمى ، وكثير غيرهم من

قمم الفكر العربى والثقافة الإسلامية .

وربما تعود بعض التعبيرات ذات

الطابع الشيعى فى أسلوب الديلمى^(٢) ،

برغم الاتجاه السنى الذى يؤكد كتاب

« العطف »^(٣) ، والذى عرف عن شيخه

من قبل ، إلى ذلك الجو المتسامح الذى

عاش فيه ، وما قد يجمعه مع البويهيين

الديلمة من نسب ومواطنة ونزعات ثقافية

مشتركة . وهذا ينقلنا إلى الكلام عن

شخصيته الفكرية .

شخصيته الفكرية :

إذا كانت سيرة الديلمى ووقائع حياته

لا تزال - فى أكثر جوانبها - مجهولة لنا ،

فإن شخصيته الفكرية أكثر وضوحا ، أو

هى على كل حال - أقل غموضا .

وذلك أن من الممكن أن نستمد ، من

كتاب « العطف » وما يتضمنه

كتاب « السيرة » ، وما بقى من نصوص

كتاب « المشيخة » ، بعض الشواهد

الداخلية ، التى تتضافر مع بعض المصادر

الخارجية ، فتكشف لنا عن فكره واتجاهه

المذهبى وحياته الروحية .

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية ، مادة دار العلم .

(٢) انظر، ص ٢ ، ٦٥ ، ١٣٨ ، ١٥١ ، ٢٨٢ من نشرتنا العربية لكتاب « عطف الألف . . . »

(٣) السابق ٢٨:١ - ٢٨٢ ص عن الخليفة عثمان - رضى الله عنه .

ومما ورد في المصادر المشار إليها نفهم أن الديلمي كان على صلة بالثقافة العقلية الشائعة في عصره ؛ إذ يروى مرة - بطريق غير مباشر - عن أبي حيان التوحيدى نصا صوفيا ، ويروى بطريق السماع - في مقام آخر - عن يدعى « أبا حيان » - ويغلب على ظننا أنه التوحيدى أيضا - كلاما في « البر » بجامع الأهواز ألقاه الشيخ أبو عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بالبيطار^(١) . وقد يكون التوحيدى أيضا هو الفيلسوف الذى عناه الديلمي في قوله - فى كتاب العطف^(٢) - : « وسئل بعض الفلاسفة - وأنا حاضر - عن بدء العشق . . . » ، كما رجحه الأستاذ « ماسينيون »^(٣) . وكتاب العطف يعكس بصورة واضحة إلماما جيدا ، وعناية خاصة بآراء الفلاسفة

والحكماء والمتكلمين فى المحبة والعشق ، بجانب أقوال الصوفية والفقهاء والمتأدبين والشعراء .

وأبو عبد الله البيطار (ت ٣٨٣ / ٩٩٢) المذكور آنفا هو أحد من صحبهم الديلمي ، ويعرف بميوله الصوفية^(٤) ، وبسعة الباع فى علوم كثيرة منها الفقه والنحو والطب^(٥) ، التى أخذها عن أبيه وغيره ، وفى كتاب « العطف » أثر واضح من هذه العلوم جميعا ، وفيه كذلك رواية فى موضعين لبعض أخبار الصوفية عن كتاب « المشيخة » لأحمد بن منصور (ت ٣٦٣ / ٩٧٤) والد أبى عبد الله البيطار^(٦) .

وفى هذه المصادر أيضا ذكر المنجم الأعمى البغدادى « شكح » ، الذى كان يتكلم ببغداد عن أحداث النجوم

(١) انظر شد الإزار ٥٢ - ٥٤ ، ١٠٤ - ١٠٥

(٢) عطف الألف ٥٦ ص

(٣) ماسينيون : "Interférences Philosophiques" ص ٢٣ هامش ٢ .

(٤) شد الإزار ٤٧ ، ١٠٤

(٥) السابق ١٠٣ - ١٠٥ .

(٦) عطف الألف ٢٨٧ ، ٢٩٩ ص .

وأحكامها، ولقيه مؤلفنا في صحبة طائفة من العلماء إن صححت الرواية التي أوردتها القفطى في « تاريخ الحكماء » (١) . وفي العطف كما هو ظاهر إمام ببعض المسائل النجومية وعناية بذكر آراء المنجمين والفلكيين في العشق وما يتصل به (٢) .

وقد مر بنا من قبل ما يدل بوضوح على مذهب المؤلف السننى ، ومشربه الصوفى . ولكن طبيعة شخصيته الفكرية وملامحها الخاصة قد تزداد وضوحا إذا ألمنا برحلات الديلمى وشيوخه ؛ فنعرف شيئا عن تجاربه الخاصة وملامحه الفكرية المميزة .
رحلات الديلمى :

كان الديلمى رجلا نشيطا ، خفيف الحركة ، مولعا بالرحلة بحثا عن المعرفة

والحقائق الروحية ، ولعله فى هذا كان ينسج على منوال شيخه الذى كان رحالة عظيما ، برغم المتاعب والأخطار التى اكتتفت السفر والتنقل فى ذلك الحين ، وطبقا لما يحتويه كتاب « السيرة » من روايات فقد قام ابن خفيف برحلة الحج أربع مرات أو ستا وربما أكثر ، وفى الرابعة منها اصطحب أمه معه (٣) .

والديلمى يروى لنا فى « كتاب العطف » رحلة له إلى مكة بقصد الحج (٤) ، وفى موضع آخر من الكتاب يذكر رحلة أخرى إلى مدينة أرجان (٥) بالقرب من شيراز على طريق الحاج .

(١) تاريخ الحكماء ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) انظر مثلا ٥٦ - ٥٩ ص

(٣) انظر : سيرة ابن الخفيف ٤٤ ، ٤٦ ، ولزيد من التفاصيل عن « حجرات ابن خفيف » انظر - ص - ١٠٨ - ١٠٩ من Sobieroj, Ibn Hafif as - Sirazi.

(٤) انظر ٢٢٧ - ٢٢٩ ص ؛ حيث يروى المؤلف قصة طريفة عن علاقة حب بين زوجين من الحمام لاحظهما فى المسجد الحرام بمكة المكرمة ، وقصة أخرى عن جمل عاشق هاجه الحزن لفراق ناقته الحبيبة وظل صائما حتى مات . فهل كانت فكرة تأليف كتاب عن الحب فى ذهنه ، فأعانتته على اختزان هذه الملاحظات الدقيقة ؟

(٥) انظر ٢٤٤ - ٢٤٩ ص .

ويصف الرجل - في لغته الجميلة المعبرة -
زيارة أخرى إلى « بيت الفيل » ، في
بغداد على الأرجح (١) .

وفي القصة التي أشرنا إليها آنفا عن
« شكج المنجم البغدادي » يحكى لنا
القفطى بعض تفاصيل زيارة للديلمي إلى
بغداد ، التقى فيها - مع جماعة من
أصدقائه - بوزير الوقت « مؤيد الملك »
للشفاعة في حاجة لأحدهم عنده ، ثم
حضر وليمة معهم عند أحد معارفهم
ببغداد اسمه ابن الوتار (٢) .

ويورد القشيري في « الرسالة » (٣)
الخبر التالي عن رحلة أخرى : « يحكى
عن أبي الحسن الديلمي أنه قال : دخلت
أنطاكية لأجل أسود ، قيل لى إنه يتكلم
على الأسرار ، فأقيمت فيها إلى أن
خرج (٤) من جبل « لكام » ، ومعه شيء
من المباح (٥) يبيعه ، وكنت جائعا منذ يومين
لم أكل شيئا ، فقلت له : بكم هذا ؟

وأوهمت أنى أشتري ما بين يديه ، فقال :
اقعد ثم ، حتى إذا بعناه نعطيك ما تشتري
به شيئا ، فتركته وسرت إلى غيره أوهمه
أنى أساومه ، ثم رجعت إليه وقلت له :
إن كنت تبيع هذا ، فقل لى بكم ؟ فقال :
إنما جعتَ يومين ، اقعد ثم ، حتى إذا
بعناه نعطيك ما تشتري به شيئا ، فقعدت ،
فلما باعه أعطانى شيئا ، ومشى ، فتبعته ،
فالتفت إلى وقال : إذا عرض لك حاجة ،
فأنزلها بالله - تعالى ، إلا أن يكون
لنفسك فيها حظ ، فتحجب عن الله -
تعالى . وأغلب الظن أن الديلمي فى
هذا الخبر هو مؤلفنا ، والقصة تتمشى
مع طبيعة شخصيته كما تبدو فى
كتاب « العطف » .

هذا ما لدينا الآن اعتمادا على نص
« العطف » وبعض المصادر الخارجية

(١) انظر العطف ٢٢٩ ص . وراجع هوامشنا على هذا الموضع من الترجمة الانجليزية .

(٢) تاريخ الحكماء للقفطى ٢١١ - ٢١٢

(٣) القشيري : الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، ١٨١ .

(٤) فى المرجع السابق : أخرج .

(٥) كذا ، ولعلها الملح .

ولعل دراسة تفصيلية لكتاب « السيرة » ،
الذي أرّخ فيه لشيخه ، تكشف عن المزيد
من المعلومات عن رحلات الديلمي
وسمات شخصيته الفكرية .

أبرز من أثروا فيه

لا نعرف من شيوخ الديلمي المباشرين
الذين لارمهم وأخذ عنهم وأسهموا في
صقل شخصيته الفكرية والروحية إلا ابن
خفيف ، لكن هناك شيوخا غير مباشرين
قد أسهموا في ذلك أيضا ، عرفهم من
خلال صلته بابن خفيف أو من
طرق أخرى .

(١) فأما ابن خفيف ، شيخ شيراز
الذي لارمه الديلمي ، فهو أبو
عبدالله محمد بن خفيف بن
اسكفشاذ^(١) ، الذي جذب أنظار
الباحثين لمكانته المرموقة بين صوفية
شيراز في حياته وبعد مماته ،

ولصته بالحلاج . وقد حفظ لنا
التاريخ سيرته التي كتبها
الديلمي ، وحققتها ونشرتها أنا
ماري شميل ، وقدمت لها ،
وألحقت بها فصولا تتضمن
معلومات هامة عن ابن خفيف ،
وقام الدكتور إبراهيم الدسوقي
شتا بترجمتها إلى العربية في
القاهرة . ثم أنجز الأستاذ فلوريان
صبيروى رسالته الهامة للدكتوراة
عن ابن خفيف ، متضمنه
تحقيق كتابه « الاقتصاد »
مع تعريف تفصيلي
بشيوخه ومعارفه وتلاميذه ،
ومنهم الديلمي .

ويمكن أن نستخلص مما أورده
الديلمي ، في « السيرة » المشار إليها
أنفا ، أن ابن خفيف ولد في شيراز سنة
٢٦٨ / ٨٨٢ أو بعدها ، عقيب استيلاء

(١) يرد هذا الاسم بصيغ مختلفة ، اخترنا ما ورد في شد الإذار للجنيد الشيرازي بتحقيق القوذي ٣٨
وقارن السلمى : طبقاته (تحقيق Redersen)

(٢) انظر السيرة ٨٨ وقارن شميل : سيرت - المقدمة ١٣ ، ويرجع صبيروى أن ميلاد ابن خفيف لا يمكن
أن يسبق عام ٨٨٢ - انظر Ibn Hafif as - Sirazi ٢٢١ .

عمرو بن الليث الصفارى على المدينة ، وكان والده من قادة الديلم في جيش عمرو ، الذين أسهبوا في استعادة الصفارية الهيمنة على فارس ، وكانت معه زوجته ، أم عبد الله بن خفيف ، أثناء إقامته في شيراز . فجدور ابن خفيف ترجع إلى العناصر الديلمية المحترفة للجندية ، التي قدر لها قبل موته أن تسيطر على مقاليد الأمور في المنطقة الوسطى من العالم الإسلامى حينذاك ، وهي الجذور التي ينتمى إليها أيضا على بن محمد الديلمى صاحب « العطف » (١) .

وشخصية ابن خفيف العلمية والصفوية ، التي امتدت في تلميذه الديلمى على نحو ما ، قد تكونت في جو تغلب عليه روح سنية معتدلة ؛ فقد درس الفقه على شيخ الشافعية ابن سريج الذي عمل قاضيا بشيراز ثلاث سنين بعد عام

٢٩٦ هـ (٢) ، والتقى ابن خفيف أيضا بأبي الحسن الأشعري في البصرة بعد تحوله إلى المذهب السنى ، وتأثر به ، حتى إن الباقلانى شيخ الأشاعرة فيما بعد عندما زار شيراز وجد ابن خفيف يدرس لمريديه كتاب « اللمع » للأشعري (٣) ، وما نشرته « شميل » من كتاب « المعتقد الصغير » لابن خفيف ، الذي أوردته ضمن ملاحظتها لكتاب « سيرت » ، يؤكد اتجاهه الأشعري السنى (٤) . واشتغل ابن خفيف بالحديث حتى قيل عنه : « كان لا ينام كل ليلة حتى يكتب من صحاح الأحاديث عشرين حديثا بعد ما فرغ من ورده ، وله مسند حديث ، وروى عنه الحافظ أبو نعيم الأصفهاني وغيره » (٥) . وقد تتلمذ الديلمى عليه في هذا العلم ، ويوجد في كتاب « السيرة » - على امتداد ثلاث صفحات - بعض ما رواه عن شيخه من أحاديث بأسانيدها (٦) .

- (١) انظر صبيروى : ابن خفيف الشيرازى ، ٨٩ ، ١٧٥ .
(٢) انظر السيرة ١٧٢ - ١٧٤ ، صبيروى : ابن خفيف ٥٧ .
(٣) انظر شميل : سيرت ٣٤٠ - ٣٦٥ .
(٤) شد الإزار ٤٢ .
(٥) السيرة ٢٥٣ - ٢٥٦ .

ويتسق مشرب ابن خفيف الصوفى مع هذا التكوين العلمى ، فقد لبس الخرقة من أبى محمد رويم ، وصحب الجزيرى وأبا العباس بن عطاء ، وكان ينصح مرديه : « اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون اسمعوا لهم وسلموا ما قالوا ، وهؤلاء الحارث بن أسد المحاسبى ، وأبو القاسم الجنيد بن محمد ، وأبو محمد رويم بن محمد ، وأبو العباس بن عطاء ، وعمرو بن عثمان المكى » (١) . وكان حريصا على الجماعة وعلى الصف الأول فى المسجد حتى فى شيخوخته الفانية ؛ يروى عنه الديلمى فى « السيرة » قوله : « إذا سمعتم حى على الصلاة ولم تجدونى فى الصف الأول من المسجد ، فاطلبونى فى المقابر » (٢) .

لكن ابن خفيف ، مع هذا ، حرص

على لقاء الحلاج فى سجنه ، وروى بعض كراماته ، وكان يدافع عنه ، وإن كان لا يوصى تلاميذه باتباعه ولا يوصيهم بالاعتراض عليه فى الوقت نفسه . وهذا هو الموقف الذى ينزع إليه الديلمى فى كتاب « العطف » (٣) . وقد روى أيضا لقاء شيخه بالحلاج وإعجاب به فى كتاب « السيرة » (٤) .

هذا ، وقد تعرض ابن خفيف - كغيره من الشخصيات البارزة - لاتهامات بعض معاصريه ، ومنهم القاضى الأديب أبو على المحسن بن على التنوخى (ت ٣٨٤ / ٩٩٤) ، ذو الميول الاعتزالية ، الذى رماه وأتباعه باستباحة الزنا . وردد هذه التهمة ابن الجوزى فيما بعد (٥) . وشخصية ابن خفيف التى تطالعا من النصوص والروايات المعاصرة المتكاثرة

(١) شد الإزار ٤٣

(٢) السيرة ٢٦٢

(٣) انظر ٥٠ - ٥٦ ، ٩٠ - ٩٢ ص ، وشد الإزار ٤٢

(٤) انظر السيرة ١٦٠ - ١٦٣ ، ١٦٥ - ١٦٦

(٥) انظر التنوخى : نشوار المحاضرة ٣/ ٢٢٨ - ٢٢٩ ، وابن الجوزى : تلبس إبليس ٣٦٩ - ٣٧٠

لا تتسق مع مثل هذا السلوك الفاجر ،
وتضعف لدى أى منصف الثقة بمثل هذا
الاتهام ، الذى تلقفه ابن الجوزى - على
فضله - دون تبين أو تحقق .

ولابن خفيف مصنفات كثيرة ، قيل
إنها تبلغ الثلاثين ، بينها كتابان فى المحبة:
أحدهما « كتاب المحبة » ، والآخر
« كتاب الودّ والألفة » ، ذكرهما الديلمى
فى « السيرة » ضمن مختصراته (١) .
وذكر فى « العطف » أيضا أنه
ألف « مسألة » فى جواز إطلاق العشق
على الله ومن الله ، وأنه كان ينكر ذلك
حتى وقعت إليه مسألة لأبى القاسم الجنيد
فى العشق ، فقال به وألف فيه (٢) . ولكننا
لم نعثر على شىء من هذه الثلاثة ، إلا إن
كان بعض ما نقله الديلمى فى « العطف »
مأخوذا منها أو من أحدها .

وتوفى ابن خفيف - كما يذكر

الديلمى فى « السيرة » (٣) - فى الثالث
والعشرين من رمضان سنة ٣٧١ هـ ، وله
من العمر - كما قيل - ما بين ١٠٥ و
١١٤ سنة . وينص الشيرازى فى « شد
الإزار » على أنه « توفى ليلة الثلاثاء
الثالث والعشرين من رمضان سنة إحدى
وسبعين وثلاثمائة - رحمه الله (٤) » . وإذا
لاحظنا تاريخ مولده الذى لا يمكن أن يسبق
تاريخ حملة عمرو بن الليث الصفارى على
شيراز فى ٢٦٨ هـ مع تاريخ وفاته الذى
تتفق المصادر أنه سنة ٣٧١ ، فعمره لا
يزيد عن ١٠٣ من السنين الهجرية (٥) .

(ب) ومن الشيوخ الذين تأثر بهم الديلمى
بطريق غير مباشر ، ويظهر أثرهم فيه
واضحا من نصوص كتاب « العطف » ،
عدد من أعلام التصوف فى أواخر
القرن الثالث وأوائل القرن الرابع من
الهجرة . ونرجح أن يكون تأثيرهم

(١) السيرة ٢٥٧

(٢) ٩ - ١٠ ص . ولكن يقل ابن تيمية فى الفتوى الحموية الكبرى ٤٧ ، من كتاب باسم « اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء
والصفات » لابن خفيف ، نصا ينكر فيه « إطلاق تسمية العشق على الله - تعالى » ، فلعله من مؤلفاته الباكرة ، قبل أن
يغير رأيه فى المسألة .

(٣) السيرة ٢٦٤ ، وقارن سيزكين ٦٦٤ / ١

(٤) شد الإزار ٤٥ - ٤٦ .

(٥) قارن ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ٢٠١ / ١٥ ، حيث يذكر فى خبر أنه عاش ١٠٤ سنة .

فيه قد تم من خلال صلته بالشيخ ابن خفيف . فمنهم :

١ - الحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩ / ٩٢٢) ، وهو من أبرزهم ، وينقل المؤلف بعض أقواله وآرائه في « العطف » ، وقد أشرنا إلى متابعتة لشيخه في موقفه منه . وهو في الحقيقة متأثر به ، وإن كان يتحفظ على بعض آرائه ، ونرجح أنه استمد عنوان كتاب « العطف » من شعره ، كما سنوضحه فيما بعد .

٢ - وأبو القاسم الجنيد بن محمد (ت ٢٩٨ / ٩١٠) ، سيد الطائفة وشيخ أهل الصحو ، والذي قيل إن ابن خفيف قد صحبه - وإن كان بعض الباحثين يتشككون في هذه الصحبة^(١) - وأوصى بتقليده ومتابعتة ، كما مر . وهو الذي كتب المسألة في العشق التي دعت ابن

خفيف أن يغير رأيه فيه ويكتب مسأله . وقد تابعه تلميذه الديلمي في ذلك^(٢) .

٣ - وأبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي (ت حوالي ٢٩٧ / ٩١٠) ، وقيل ٢٩١ أو ٢٩٦) ، الذي صحب الجنيد وأبا سعيد الخرار ، وكان معارضا للحلاج ، وكتب كتابا في المحبة يروى عنه الهجويري في « كشف المحجوب »^(٣) ، ويهتم الديلمي بنقل آرائه في مواضع عديدة من « العطف »^(٤) .

٤ - وأبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي المعروف بابن الأعرابي (ت ٣٤١ / ٩٥٢) ، الذي يقال إنه ألف في الفقه والحديث ، والسير والتاريخ ، إلى جانب ما كتب في الزهد والتصوف . لقيه ابن خفيف في مكة المكرمة كما يحكى الديلمي في السيرة^(٥) . وقد ألف كتابا في

(١) انظر سيرت (شيمل) ، المقدمة ١٦ ، وصبيروى : ابن خفيف الشيرازى ٤٣ ، بناء على ما ورد في

طبقات السلمي (تحقيق Pedersen) ٥٣٥ .

(٢) العطف : ٩ - ١٠ ص .

(٣) انظر الهجويري : كشف المحجوب ٢ / ٥٥٢ - ٥٥٣ .

(٤) انظر العطف ٣٥ ، ٦٩-٧١ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ١٧٨-١٧٩ ، ٢٤٠ - ٢٤١ ، ٢٩١ - ٢٩٧ ص .

(٥) السيرة ١٣٤ - ١٣٥ .

« اختلاف الناس في المحبة » ، نقل عنه
الديلمي في « العطف » (١) .

(ج) ومن تأثر بهم الديلمي أيضا ، كما
يفيد كتاب « العطف » وبعض المصادر
الأخرى ، سواء بطريق مباشر أو غير
مباشر :

١- محمد بن جرير الطبري (ت ٩٢٣ / ٣١٠) ، الذي أخذ عنه
الديلمي كثيرا من الأخبار التاريخية
المتعلقة بقصص الأنبياء في الباب
الأخير من « العطف » ، حيث يصرح
بنقله عنه (٢) . وذكره أيضا في « السيرة »
ضمن شيوخ شيخه ابن خفيف الذين لقيهم
وسمع منهم بعض الأحاديث في بغداد (٣)

٢- والمسعودي (ت ٣٤٥ / ٢٩٥٦)
أو مصدر قريب منه ، فإننا نتوقع أن
الديلمي ربما أخذ عن المسعودي بعض
أقوال المتكلمين في المحبة والعشق ،

اعتمادا على الجزء المفقود من كتابه
« أخبار الزمان » ، الذي تعرض فيه
لموضوع المحبة ، أو على رواية مفقودة
لكتابه المشهور « مروج الذهب » ،
أو أن كلا من « المروج » و « العطف »
قد رجعا إلى مصدر واحد ، نظرا
للتقارب الشديد بينهما (٤) .

٣- وأبو حيان علي بن محمد
التوحيدي ، الذي اقترح ماسينيون - كما
سلف - أنه الفيلسوف الذي لقيه الديلمي
وروى عنه (٥) . وقد صرح أحد المؤرخين
بلقائه إياه وسماعه منه . يقول الشيرازي
في « شد الإزار » : « قال الديلمي في
مشيخته : ما رأيت في سفرى ولا حضرى
أكمل أدبا من أبى عبد الله الحسين . . . »
وسمعت أبا حيان : يقول : حضرت مع
أبى عبد الله الحسين بجامع الأهواز ،

(١) ٩٨ - ١٠٩

(٢) العطف : ٢٧٢ ص

(٣) السيرة ٢٥٣

(٤) انظر مثلا ٦٢ - ٦٤ ، ٨٥ - ٨٦ ، ١٦١ - ١٦٥ ص وهوامشها من « العطف »

(٥) انظر مامر في ص ١٢٥ .

فسأله أبو أحمد الحصاص مسألة في البرّ ، فتكلم بنحو عشرين ورقة^(١) . وقد رجحنا - بناء على هذا الخبر - رأى ماسينيون أن أبا حيان التوحيدى هو الفيلسوف الذى يقصده الديلمى فى قوله : « وسئل بعض الفلاسفة - وأنا حاضر »^(٢) .

ويوجد بالتأكيد كثير غير هؤلاء ممن لقيهم المؤلف أو تأثر بهم ، سواء من طريق شيخه ابن خفيف أو من طريق آخر ، لكن بدرجة أقل فى أكثر الحالات ، وسترده أسماء بعضهم فى فهرس الكتاب وتعليقاته .

مؤلفات الديلمى :

لليلمى مؤلفات يغلب عليها جميعا الطابع الصوفى ، وقد حفظ لنا التاريخ اثنين منها فى صورة كاملة ، وهما :

١ - كتاب « العطف » ، الذى تقدمه فى هذا العمل ، وستعرض له بالتفصيل بعد هذه الفقرة .

٢ - كتابه الذى يتضمن سيرة شيخه

ابن خفيف ، الذى ألفه بالعربية ، ثم فُقد أصله العربى ، وبقيت لنا منه ترجمة فارسية قام بها ابن جنيد الشيرازى ، ونشرتها بتركية الأستاذة أنا ماري شمىل بعنوان « سيرت أبو عبد الله بن الخفيف الشيرازى » ، عام ١٩٥٥ ، ونشير إليه بقولنا « سيرت » . ثم قام بنقله إلى العربية ، عن نشرة شمىل الدكتور / إبراهيم الدسوقى شتا كما ذكرناه آنفا ، ونشره بالقاهرة سنة ١٩٧٧ ، ونشير إليه باسم (كتاب السيرة) أو السيرة . وكنا قد اعتمدنا أثناء التحقيق على نشرة شمىل الفارسية ، ثم أطلعنا بعد ذلك على ترجمة شتا وأفدنا منها فى إعداد هذه المقدمة . هذا ، وقد أعيد نشر تحقيق شمىل فى طهران بعناية توفيق سبحانى سنة ١٩٨٤ . وللديلمى مؤلفات أخرى لم تزل مفقودة ، وإن وصلنا أجزاء من أحدها ، وهو

٣ - كتاب « المشيخة » ، الذى ذكر

(١) شد الإزار ١٠٤

(٢) العطف ٥٦ ص .

فيه بعض الأعلام من الصوفية والعلماء وتراجمهم ، وهو ، وإن لم يزل مجهولا في صورته الكاملة ، قد بقيت منه أجزاء متثرة ، ليست بالقليلة ، في بعض المصادر ، من أهمها :

- « شيرازنامه » ، لمعين الدين زرکوب شيرازى ، وقد طبع أكثر من مرة ، نشره بهمن كرىمى فى طهران سنة ١٩٣١ ، ثم أعيد تحقيقه ونشره بعناية إسماعيل واعظ جوادى ، فى طهران أيضاً .

- كتاب « شد الإزار فى حط الأوزار عن زوار المزار » ، تأليف معين الدين أبى القاسم الجنيد الشيرازى ، الذى حققه كل من الأستاذين محمد قزوينى وعباس إقبال ونشراه فى طهران سنة ١٣٢٨ هـ / ش / ١٩٤٩ ، وتتضمن نشرتهما تعليقات نفيسة مستفيضة على النص ، وإحالات بالغة الفائدة إلى مراجع هامة تتعلق بما احتواه الكتاب .

ويبدو أن كتاب « المشيخة » قد أثر

على الحياة الصوفية وتقاليدها ، وخاصة بمدينة شيراز ، واتخذ بعض كتاب السير نموذجاً للتأليف فى هذا الباب ، ومنهم الجنيد الشيرازى ، صاحب « شد الإزار » المذكور آنفاً ، وغيره^(١) .

أما المؤلفات التى لم يصل إلينا منها شىء سوى العنوان فاثان ، هما :

٤ - كتاب « أسرار المعارف » ، الذى ذكره الديلمى نفسه مرة واحدة فى كتاب « العطف » ، حيث أورد الحديث : « أنا أكرم على الله من أن يتركنى فى قبرى فوق ثلاث » ، ثم قال « وقد ذكرت شرح هذا فى كتاب أسرار المعارف »^(٢) .

٥ - وقد ذكر المستشرق الألمانى هـ . ريتز فى مقدمة نشرته لكتاب « مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب » لعبد الرحمن بن محمد الأنصارى المشهور بابن الدباغ ، أن للديلمى أيضاً رسالة باسم « العقيدة الصحيحة » ، وإن لم يبين ما اعتمد عليه فى ذلك^(٣)

(١) انظر شد الإزار ٤ ، ١٧٧ حيث يذكر ترجمة الشيخ صائى الدين حسين بن محمد (ت ٦٦٤ / ١٢٦٥ - ١٢٦٦)

وأن له رسالة عن « تاريخ فارس » كتبها على طريقة الديلمى والمقارضى .

(٢) ٢٨٠ - ٢٨١ ص .

(٣) ابن الدباغ : مشارق ، ص هـ من المقدمة .

(ب) الكتاب

وقد يشهد لهذا أو يرشح له ما يتداوله
شيوخ « الطريقة الأويسية » المعاصرون عن
« سند » طريقتهم الذي يبدأ بعلى - كرم
الله وجهه - فأويس ، فسلمان ، فابن
سليم ، فابن أدهم ، فالبلخي ، فالنخشي ،
فالإصطخري ، فالخذاء ، فابن خفيف
الذي يعد عندهم « خاتم المتقدمين وإمام
المتأخرين » وعنه أخذ الأكار فالكارروني ،
ثم جماعة بعد ذلك منهم رزوبهان البقلي
الشيرازي ونجم الدين الكبرى^(١) .

وقد أورد الهجویری فی « كشف
المحجوب » بعض المعلومات عن فرقة أو
طريقة صوفية أسماهم « الخفيفة »^(٢) ،
يبدو أنها جماعة كانت تنتمي إلى التيار
الصوفي المعروف اليوم باسم « الأويسية »
ولكنها تأثرت بطريقة التربية الروحية لابن

ستناول هنا أهمية الكتاب وأثره ،
ونسبته إلى مؤلفه ، وعنوانه ، ومضمونه
بوجه عام ، وأهم مصادره . ونبدأ الآن
بالنقطة الأولى .
أهمية الكتاب وأثره :

المحنا فيما سبق إلى ما يتميز به كتابنا
هذا من مكانة خاصة في التسلسل
التاريخي للمؤلفات الإسلامية في « نظرية
المحبة » بأبعادها الروحية والاجتماعية ،
و إلى ما حفظه لنا من نصوص هامة ، في
هذا الصدد ، نفتقد الآن مصادرها الأصلية .
وإلى ما عساه قد أحدثه من تأثير روحي
وفكري في هذه البيئة التي شغل فيها
الديلمي وشيخه ابن خفيف - كما لعله قد
ظهر مما سبق - مكاناً مرموقاً .

(١) انظر مولانا محمد صادق عتقا شاه : من الفكر الصوفي الإيراني المعاصر ، ترجمة الدكتورين السباعي وشتا ، ص ٥ .

(٢) الهجویری : كشف المحجوب ٢/ ٤٨٨ - ٤٩٢ .

خفيف . غير أنه لم يذكر اسم الديلمي في هذا الموضوع .

وبالرغم من المكانة التي يبدو أن الديلمي كان يتمتع بها بين صوفية شيراز ومن الأثر الذي مارسه كتبه في أوساطهم ، وبخاصة كتاباه : « المشيخة » و « السيرة » ، كما ذكرناه فيما سبق ، فإننا لم نكد نعثر ، بشأن كتاب « العطف » ، على دلائل واضحة تبين أثره في هذه البيئة ذات الطابع الصوفي العميق ، اللهم إلا أمرين :

الأول : الرجلان اللذان يتضمنهما الإسناد المدون على صفحة العنوان بالمخطوطة الوحيدة لكتاب « العطف » وهما من أبرز رجال المدرسة الصوفية الشيرازية ، وقد أولى الدكتور فاديه اهتماماً كبيراً لهذا الإسناد في مقدمة ترجمته الفرنسية ، وإن كان الدكتور صبيروى قد تعقب هذا الجانب من عمل فاديه بالنقد

والمراجعة^(١) . ونظراً لكثرة التفاصيل التي أورداها ، والتي تتضمنها مصادرنا أيضاً ، فسنكتفى هنا بملخص تبيين مدى الاهتمام بالكتاب وروايته في البيئة المذكورة .

والثاني : ما تضمنته مؤلفات روزبهان البقلي الشيرازي (ت ٦٠٦ / ١٢٠٩) الثلاثة ، « عبهر العاشقين » و « شرح شطحيات » بالفارسية ، و « مشرب الأرواح » بالعربية ، من اقتباسات ونقول عن كتب الديلمي ، مما أشار إلى بعضه فاديه في مقدمة ترجمته . ويصرح الشيرازي نفسه في « مشرب الأرواح » بأخذه عن الديلمي .

(١) فاما الإسناد ، فيرجح صحته ورود رجاله عدة مرات في ترجمة ابن عساكر لابن خفيف في « تاريخ مدينة دمشق »^(٢) .

فأول راو للكتاب هو أبو الحسن بن بكران بن الفضل ، الذي

(١) انظر فاديه : ترجمة ، المقدمة ، وصبيروى : ابن خفيف الشيرازي ٢٦ - ٢٧ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٥/٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

يرويه - فيما يبدو - عن مؤلفه مباشرة .
ويمكن الاطمئنان إلى ما قرره فاديه من أنه
هو الشخص الذي ذكره الهجویری باسم
أبي الحسن علي بن بكران الشيرازي ،
ووصفه بأنه من أكابر صوفية فارس (١) ،
وروى عنه بطريق السماع خبرا يتعلق
بحياة الشيخ ابن خفيف . ونحن لانعرف
شيئا عن تاريخ مولده أو وفاته ، ولكن
يمكن أن نفترض ، بناء على معلوماتنا عن
الهجویری نفسه ، أنه قد لقي أبا الحسن
بن بكران في وقت ما خلال النصف الأول
من القرن الخامس الهجري ، وهذا يتيح
لابن بكران ، على كل حال ، أن يدرك
الدلمي ويروي الكتاب عنه بطريق مباشر .
والرجل الثاني في هذا الاسناد ،
الذي يروي الكتاب عن ابن بكران ، هو

أبو شجاع محمد بن سعدان المقاريضي
(ت ٥٠٩ / ١١٥ - ١١١٦) ، الذي
لا نعرف تاريخ ميلاده أيضا ، غير أننا
نستطيع أن نفترض أنه ، مع تأخر تاريخ
وفاته ، قد روى الكتاب عن شيخه ابن
بكران في شبابه الباكر . وقد يعين على
ذلك أنه في سلسلة أتباع الشيخ ابن خفيف
يأتي في الجيل الثاني ، وبينه وبين ابن
خفيف رجل واحد هو الشيخ أبو علي
الحسين بن عبد الله المقاريضي (٢) ،
ولأبي شجاع « مشيخة » كتلك التي
كتبها الدلمي ذات ذكر في الحياة
الصوفية بشيرار (٣) .

ويؤكد ما افترضناه من طول عمر أبي
شجاع ومكانته بين صوفية شيراز ما قاله
صاحب « فردوس المرشدية » كان الشيخ أبو
شجاع . . عالما فاضلا كاملا ، وكان
القطب نحو خمسين عاما (٤)

(١) انظر الهجویری : كشف المحجوب ٣٨٨/١ . ٤٨٨/٢ ، وفاديه : ترجمة ١٩ - ٢٠ ، وقارن بابن
عساكر ، الذي يذكر ابن بكران في مكانين في ترجمته لابن خفيف باسم « أبي الحسن علي بن
بكران الصوفي » (تاريخ مدينة دمشق ٢٩٦/١٥ ، ٢٩٩) .
(٢) انظر شد الإزار ١٠١ .
(٣) السابق ١٠١ ، ١٧٧ .
(٤) محمود بن عثمان : فردوس المرشدية (تحقيق Meier) ، ٣٢ .

فكلا الشيخين اللذين يضمهما إسناد « العطف » ، كما ذكرنا ، من كبار صوفية شيراز ، مما يوحى بحرص هذه البيئة الصوفية على تداول الكتاب وتدارسه ، والعناية بتوريثه للأجيال المتعاقبة طبقا لتقاليد الرواية والإسناد فى العلوم الإسلامية . ويبدو أن هذه العناية قد استمرت بعد كتابة نسختنا المروية بالإسناد المذكور - أو الأصل الذى أخذ عنه ناسخها - كما سيتبين فى الفقرة التالية .

(ب) وأما المجال الثانى ، وهو تأثر روزبهان البقلى بالديلمى ، فتبدو مظاهره واضحة فى تأثر روزبهان فى كتبه الثلاثة المذكورة آنفا ، بمحتويات كتاب « العطف » على نحو بالغ الوضوح والعمق ، وبمحتويات كتاب « السيرة » للديلمى أيضا ، مع التصريح بمصدر هذا التأثر فى بعض المواضع القليلة .

فأما كتاب « مشرب الأرواح » ، وهو المشهور باسم « ألف مقام ومقام » ، فيورد فيه البقلى وصف الديلمى للعشق بأنه « غليان الحب^(٢) » ، ويصرح بنقله عنه ، ومن الواضح أنه ينقل ذلك عن الباب الرابع من كتاب « العطف » . على أن الكتاب يحتوى - فى السياق نفسه - أقوالا أخرى مقتبسة من كتاب « العطف » . دون تصريح بالنقل عنه ، منها أقوال أبى حفص الحداد ، وأبى القاسم الجنيد ، وهرقل ، وابن خفيف فى العشق ، بنفس الصيغة الواردة فى « العطف » تماما أو على نحو قريب جدا منها ، بما يقطع بنقله عنه^(٢) . ويفعل البقلى نفس الشيء عند بيان « حد الصبابة » الذى رواه الديلمى عن أبى سعيد ابن الأعرابى^(٣) .

وأما فى « شرح شطحيات » ، فيورد روزبهان نصا مطولا على مدى أربع

(١) روزبهان البقلى : مشرب الأرواح ١٣٥ ، وقارن العطف : ٤٧ ص .

(٢) مشرب الأرواح ١٣٥ ، وقارن العطف : ٢٥ - ٢٦ ، ٣٥ ، ٤٩ ، ٧١ ص .

(٣) مشرب الأرواح ١٥٥ ، وقارن ٣٧ ص .

عناوين العديد من الفصول وترتيبها وكثير من محتوياتها ، وقد لفت هذا التشابه الشديد نظر « فاديه » ، فضمن مقدمة ترجمته الفرنسية لكتاب « العطف » نصا من كتاب روزبهان ، مقارنة إياه بما يقابله من أوائل « العطف » عن جواز إطلاق العشق على الله ومن الله ، على نحو يبرز تأثره بالديلمي ومدى دينه له ، وإن كان روزبهان نفسه لا يصرح بذلك^(٣) . غير أنه في نقله لعبارة الديلمي ، يصف ابن خفيف بقوله « شيخنا وسيدنا أبو عبد الله محمد بن خفيف » ، بعد أن ذكر مشايخ كثيرين دون أية صفة ، وهذا أحرى أن يصدر عن الديلمي ، لا عن روزبهان ، وهو الموجود لفظا وسياقا - بخلاف قليل - في كتاب « العطف »^(٤) .

صفحات عن رأى الحلاج فى أصل العشق نعتقد - مع ماسينيون - أنه مأخوذ من كتاب « العطف » ، لوحدة السياق والمضمون واللغة ، مع ملاحظة فروق الترجمة ، كما أشرنا فى تعليقاتنا^(١) . وفى مواضع أخرى من الكتاب ينقل روزبهان عن بعض كتب الديلمي ، ويصرح باسمه فى موضعين يتعلقان بأخبار الشيخ ابن خفيف : أحدهما عن رأيه فى الحلاج وفى بعض أشعاره ، والآخر عن صلته ببعض شيوخ البيضاء . ومن المؤكد أن روزبهان كان ينقل عن كتاب « السيرة » فيما يتعلق بالواقعة الأولى^(٢) .

وأما فى « عبهر العاشقين » ، فإن روزبهان يعتمد اعتمادا واضحا على كتاب « العطف » ، وينسج على منواله ، فى ذكر

- (١) شرح شطحيات ٤٤١ - ٤٤ . وكان ماسينيون قد أشار إلى هذا النص ، وألحقه بكتابه Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane (ط ١٩٥٤ ، ٤٢٤ - ٤٢٦) الذى أصدره فى باريس عام ١٩٢٢ وانظر مقاله : Interférences philosophiques ٢٣٢ هامش ٣ ، وقارن ٥٠ - ٥٦ ص
- (٢) شرح شطحيات ٤٢ - ٤٣ ، ٤٣٢ - ٤٣٣ ، وقارن السيرة ١٦٥ - ١٦٦ .
- (٣) انظر فاديه : ترجمة ١٣ - ١٤ ، وقارن العطف ٩ - ١٠ ص ، وعبهر العاشقين ٩ - ١٠ .
- (٤) انظر عبهر العاشقين ١٠ وقارن العطف : ٩ ص .

والمواضع المتشابهة كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال ، لا الحصر ، الفصل السادس من « العبير » فى « كيفية جواهر العشق الإنسانى وماهيته » ، الذى يتضمن المعانى وبعض الأشعار التى أوردها الديلمى فى الفصل الثالث من الباب الرابع من كتاب « العطف » خاصة برتب المحبة ودرجاتها . وكذا فى بداية الفصل السابع من « العبير » يقترب روزبهان مما أورده الديلمى عن الحلاج فى « العطف » عن العشق الذاتى^(١) . وأخيرا فإن قارىء كتاب « العطف » سيكتشف بنفسه طبيعة العلاقة بين الكتابين حين يجد فى فهرس موضوعات « العبير » : « الفصل الرابع : فى فضيلة المحيين الذين يألفون الحسن والمستحسن ، والمحبوين المستحسنين » ، و « الفصل الخامس : فى الحُسن والحَسَن والمستحسن ، الخ(٢) » .

نسبة الكتاب :

أما عن نسبة كتاب العطف إلى الديلمى ، فبالرغم من أننا لا نجد التصريح بهذه النسبة فى المصادر القديمة التى تيسرت لنا فهناك شواهد خارجية وأخرى داخلية على صحتها .

(أ) فأما الخارجية : فاتفق الباحثين المعاصرين على تلقى هذه النسبة بالتسليم والقبول ، من أمثال ريتز وماسينيون وفاديه وشميل ، وعدم تشكك أى منهم فى صحة هذه النسبة .

وأهم من ذلك شهادة روزبهان البقلى ، وتوازى نصوصه فى كتبه المذكورة آنفا مع محتويات كتاب « العطف » ، وتصريحه فى أحد المواضع بالأخذ عن الديلمى ، عند تعريفه العشق بأنه غليان الحب ، وإن لم يصرح باسم الكتاب

(١) عبهر العاشقين ٤٤ ، وقارن العطف ٥١ ص وما بعدها .
(٢) عبهر العاشقين ١٢ - ١٣ ، وقارن العطف ، الباب الثالث .

المأخوذ منه ، لكن المقارنة تدل على أنه مأخوذ من كتاب « العطف » كما ، سلف بيانه (١) .

(ب) وأما الشواهد الداخلية فتتمثل في:

١ - ما ورد على صفحة العنوان من المخطوطة الوحيدة الباقية لكتاب « العطف » ، من تصريح بنسبة الكتاب إلى « أبي الحسن علي بن محمد الديلمي » برواية ابن بكران عنه ، ثم المقارضي عن ابن بكران ، وقد أوضحنا حال هذين الراويين اللذين تضمنهما الإسناد المذكور فيما سبق ، بما يدعو إلى قبول ما تقرره صفحة العنوان من المخطوط الوحيد ؛ لاتساقه مع المصادر التاريخية الأخرى .

٢ - والتصريح داخل صفحات المخطوط - لا على صفحة العنوان فحسب - بقول مؤلفه ، أو راويه ، في بعض المواضع: « قال صاحب الكتاب » (٢) ، وفي

مواضع أخرى مماثلة : « قال علي بن محمد » (٣) ، وهو اسم الديلمي .

٣ - التشابه القوي بين ما حكاه الديلمي عن الشيخ ابن خفيف عن شيخه بمكة أبي الحسن المزين عند تلقيه الشهادات لابن يعقوب الأقطع ، في كل من كتاب « العطف » وكتاب « السيرة » (٤) ، وهذا الأخير يقطع الباحثون - فضلا عن مضمون الكتاب نفسه - بنسبته إلى أبي الحسن الديلمي ، تلميذ ابن خفيف (٥) . هذا بالإضافة إلى وحدة أسلوب الكتابين ، وما يدل عليه أسلوب كتاب « العطف » ومضمونه من أنه تأليف تلميذ مباشر لابن خفيف يعرف تطور آرائه ، ويسجل وقائع من حياته الخاصة ، ويطلع على بعض مؤلفاته بخطه بعد موته ، ويتابعه في آرائه ومشربه . وكلها ملامح تتفق مع شخصية

(١) راجع ما مر عن البقلي الشيرازي ١٣٩ - ١٤١ .

(٢) انظر مثلا العطف : ٣١ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ص .

(٣) انظر السابق ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ١٧١ ، ٢٢ ص .

(٤) انظر ٢٩٦ - ٢٩٧ ص ، وقارن السيرة ١٢١ - ١٢٢ .

(٥) انظر السيدة ٨٧ ، ٨٩ ، ٢٥٨ حيث يصرح المترجم الفارسي لكتاب السيرة بنسبته إلى الديلمي .

أبى الحسن الديلمى صاحب « السيرة » ،
مما يؤكد صحة نسبة « العطف » إليه (٢) .

وبهذه الشواهد مجتمعة ، داخلية
وخارجية ، يمكن للمرء أن يطمئن علميا
إلى صحة نسبة الكتاب إلى على بن محمد
الديلمى ، الذى تبينا ملامح شخصيته فى
الجزء الأول من هذه المقدمة .

مضمون الكتاب :

يتناول الكتاب - كما ألمحنا من قبل -
ظاهرة الحب الإلهى ، والحب بوجه عام ،
بالدراسة والتحليل الدقيق المستوعب ، فى
مستوياتها المختلفة ، الإلهية والإنسانية
والكونية ، ويعنى بالبحث عن حقيقتها
وعلتها ، ومظاهرها وآثارها ، وآراء
الباحثين فيها على اختلاف مشاربهم
وانتماءاتهم الفكرية ، من أطباء وحكماء ،
ولغويين وأدباء ، وصوفية وعرفاء ،
ومتكلمين وفقهاء ، وغير هؤلاء ، حتى
مجاهيل الأعراب وعوام الناس . ولا يفوت

المؤلف دوما أن يعقب برأيه الخاص ،
وتجاربه الذاتية ، وملاحظاته الطريفة ، إلى
جانب ما تلقاه من شيوخه ورواه عنهم ،
مع تأويله وفهمه لهذه المرويات والآثار .

يبدأ الكتاب بالخطبة التفصيلية للأبواب
والفصول ، التى اتبعها المؤلف فعلا
بتصرف قليل ، ثم يقدم - بعد تمهيد سريع
فى الاستدلال على جواز إطلاق العشق
والمحبة على الله - تعالى ومنه ، أى كونه
موضوعا للمحبة والعشق وقاعلا لهما
أيضا - بمقدمات عن فضل الحب والمحبوب
والمحب ، ثم يتبع هذه الأبواب بابا رابعا
عن سر التسمية وأصل كلمتى الحب
والعشق واشتقاقهما فى اللغة العربية
مزاوجا بين أقوال اللغويين من جانب ،
وأقوال شيوخ الصوفية من جانب آخر .

ويدخل بعد ذلك فى صميم الموضوع
فيفرد بابا للكلام عن « أصل المحبة والعشق
ومبدئهما » ، ثم يعرض لتلوه المحبة
وحقيقتها ، ثم يدرس « أقاويل الناس فى

(٣) قارن ٩ - ١٠ ، ٢٨٩ - ٢٩١ ، ٢٩٦ - ٢٩٩ ص .

المحبة » ، ثم صفة العشق والمحبة وخاصة لدى الأدباء ، ثم يبين صفات المحبة المحمودة ، لدى طوائف المفكرين والصوفية ، ثم يدرس أقوال « من ذم المحبة لعله » ، لأنها لا تدم لذاتها أبدا ، ثم يبين « أفعال المحبة والعشق وشواهدهما » لدى مختلف الباحثين وخاصة الصوفية ، ثم يفصل الكلام عن الآثار والشواهد ، فيفرد بابا لشواهد محبة الله للعبد ، ثم لشواهد محبة العبد له ، ثم لشواهد المتحابين في الله ، ويلى ذلك باب في ذكر محبة الخواص من المؤمنين ، وآخر في ذكر محبة عامة المسلمين ، ثم في ذكر الحب لدى كل ذى روح ، ثم يعرض بعد ذلك لمعنى كلمة « شاهد » ، ولحد كمال المحبة ، ثم يذكر من مات عشقا ومن قتل نفسه عشقا ، ويختتم الكتاب بدراسة بعض الأخبار في موت المحبين من الإلهيين ، من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومن

الأولياء - ربوان الله عليهم أجمعين ، ويعجب القارئ لهذا الكتاب ، الذى مضى على تأليفه ألف عام ، لما يستم به من تناسق فى التركيب ، واستيعاب فى التناول ، وموضوعية فى الشرح والتحليل ، مع غلبة الطابع الصوفى والتزعة الروحية بطبيعة الحال . كل أولئك يعرض فى طرافة محببة ، ممتزجا بمشاعر حميمة ، وملاحظات دقيقة ، لا تصدر إلا عن نفس مهذبة ، وعقل متفتح ، وتأمل طويل ، وذات تكاد تختلط بطبيعة الموضوع .

عنوان الكتاب :

عنوان الكتاب يرجع إلى تراث المفكرين المسلمين الذين اهتموا بأسرار الحروف ورمزيتها ، كالحلاج والتستري وابن مسرة وغيرهم من المفكرين والصوفية (١) .

(٣) ينظر أخبار الحلاج (ط ماسينيون وكراوس) ٩٦ ، ومحمد كمال جعفر : من التراث الصوفى لسهل بن عبد الله التستري ١ / ٢٦٩ ، وله أيضا : من قضايا الفكر الإسلامى ٣٢٢ - ٣٢٤

ويرمز العنوان إلى العلاقة بين الله
وخلقه ، وهي علاقة المحبة والتعاطف
والألفة ؛ فالألف رمز للذات الإلهية مع
كمالاتها (= الله جل جلاله) ، التي هي
معدن الحب الحقيقي والجمال الخالص ؛
واللام هي رمز الوجود الإنساني أو الكون
الجامع المخلوق (= آدم أو الإنسان) ،
والعلاقة بينهما (ويرمز لها بالألف واللام
أو اللام ألف : لا) هي علاقة الألفة
والعطف والمحبة في أكمل صورها وأصفاها .
والعنوان يشي بمذهب المؤلف الذي عبر عنه
في مواضع عديدة من كتابه - وبخاصة في
المقدمات بالباب الثالث ، وفي الباب
العشرين الذي شرح فيه المعنى الاصطلاحي
لكلمة « شاهد^(١) » - وهو أن أصل الحب
وسره وحقيقته ومبذاه هو من الله عز وجل .
، وأن « العطف » منه - تعالى - هو إمالته

زمام إرادة العبد إليه سبحانه ، فينشغل
به عما سواه ، وإن كان يرى - في الوقت
نفسه - مجالى الجمال في كل شيء ،
ويمارس الحب بمستوياته وألوانه المحمودة^(٢)
فالحب دوما هو للحبيب الأول ،
والحنين إنما هو لأول منزل ، حتى يعود
الإنسان المحب بعد رحلة الاغتراب في
عالم الأكون إلى مرجعه ومشواه ، في
جوار حبيبه ومولاه ، وهو ما اعتبره
الديلمي خاتمة المطاف ، وجعله آخر
أبواب الكتاب .

ونحن نتفق مع « ماسينيون » في
ترجيحه أن هذا العنوان مقتبس من تراث
الحلاج^(٣) بوجه خاص ، وعلى نحو أكثر
تحديدا ، من المقطوعة الشعرية الحلاجية
التي رواها الديلمي نفسه في الباب السادس

(١) انظر ٣٢٠ - ٢٣٤ ص ، وقارن رسالة كتاب الميثاق للجنيد ضمن « رسائل الجنيد » (تحقيق على حسن عبد القادر)
٤٣ - ٤٤ .

(٢) انظر روزبهان البقلی : مشرب الأرواح ١٠٤ - ١٠٥ ، حيث يورد روزبهان فصلا في معنى العطف ويصف أصل
العطف بأنه حفظ الله المرید « عن الوقوف على شيء دونه » .

(٣) انظر ماسينيون Interférences philosophiques ٢٢٩ .

من « العطف » ، والتي تشرح طبيعة
العشق الأزلية ، وحقيقة العلاقة بين العبد
ومولاه في رأى الحلاج ، والدلالة الرمزية
للألف واللام على هذه العلاقة الخاصة
بينهما في حالى الجمع والفرق ، والمحو
والصحو ، على حد سواء ؛ إذ يقول :

لما بدا البدءُ أبدى عشقهُ صفةً

فيمن بدا ، فتلا فيه للاءُ
واللام بالألفِ المعطوفِ مؤتلفٌ
كلاهما واحدٌ فى السبقِ معناهُ
وفى التفرقِ إثنانِ ، إذا اجتماعا

فى الافتراقِ ، هما عبدٌ ومولاءُ^(١)
وبرغم التفاوت اللفظى بين ما فى
عنوان كتابنا وما فى هذه الأبيات ، إذ
الألف هنا معطوفة وفى العنوان مألوفة ،
واللام هنا مؤتلفة وفى العنوان معطوفة ،
برغم ذلك ، فالمعنى فى النهاية واحد ،

والتشابه أوضح من أن يؤكد ، وإن كنا لا
نستبعد فى الوقت نفسه أن يكون الديلمى
قد راعى - فى هذه التسمية - عنوان كتاب
للحلاج ، ينسب إليه صاحب الفهرست ،
هو « خزائن الخيرات ، المعروف بالألف
المقطوع والألف المألوف^(٢) » ، ولا نستبعد
أيضا أن يكون الديلمى قد اطلع على هذا
الكتاب الحلاجى المفقود الآن . على أن
الحلاج يكثر من استخدام المعنى الرمضى
للألف واللام فى التعبير عن علاقة العارف
بمولاه فى مواضع أخرى من الأقوال
والأخبار المنسوبة إليه^(٣) ، التى كانت
متاحة للديلمى - مع اهتمامه الخاص
بالحلاج - على نحو أوضح مما هى بين
أيدينا الآن .

ولعل فيما أوردناه هنا ، عن مغزى
التسمية ومصدرها ، ما يغنى عن
الإطالة فى موضوع الحروف وأسرارها ،

(١) ٩٠ ص

(٢) انظر ابن النديم الفهرست (ط فلوجل) ١٩٢ ، وقارن ماسينيون Passion (ط ١٩٢٢) ٨١٩/٢

(٣) انظر أخبار الحلاج مع الطواسين (مكتبة الجندى بمصر) ٤٥ ، ٦٦ - ٦٧ .

الذى كان يحظى - كما يستفاد من كلام
الديلمي نفسه - بعناية صوفية عصره (١) ،
والذى استفاض واستبحر بعد ذلك
وكانت له آثاره السلبية والإيجابية (٢) .

مصادر الكتاب

سبق أن ذكرنا فى حديثنا عن حياة
المؤلف بعض مصادر فكره بوجه عام ،
ومن تأثر بهم من الشيوخ والعلماء من
خلال شيخه ابن خفيف أو من طرق أخرى ،
ونذكر الآن بعض المصادر المهمة التى يظهر
أثرها فى كتاب « العطف » بوجه خاص ،
بادئين بالمصادر الصوفية لأهميتها ، ثم
نرض بعد ذلك للمصادر غير الصوفية .

١ - ابن خفيف . لعل أهم هذه
المصادر - كما هو متوقع - شيخه أبو
عبد الله بن خفيف ، سواء بما ورثه عنه ،
فيما نرجح ، من اهتمام بدراسة موضوع
المحبة والعشق ، كما مر آنفاً ، أو بما
اقتبسه الديلمي من رسائل شيخه المفقودة

(١) انظر ٧٥ - ٧٦ ص .

(٢) انظر مثلاً ابن عربى : فتوحات ١ / ٢٦٠ وما بعدها ، وروزيهان البقلى: شرح شطحيات ٦٠ - ٦١

الآن فى هذا الموضوع ، أو بما أورده فى
« العطف » من أقواله وآرائه المثورة .

وقد سبق أن ذكرنا ثلاثة أعمال
لابن خفيف فى المحبة ، ماتزال كلها
مفقودة . ومن النصوص القليلة التى
أوردها المترجمون لابن خفيف ومن
تعرضوا لآرائه فيما بعد أقوال ومرويات
تتعلق بالمحبة والعشق ، ربما يكون البعض
منها من بقايا هذه الأعمال .

ومن أهم هذه الشذرات والمرويات ما
تورده شميل فى ملاحق كتاب « سيرت »
عن سؤال جرى فى مجلس ابن سريج ،
شيخ ابن خفيف فى الفقه ، وأجاب عنه
ابن خفيف إذ يقول : سألنا يوماً القاضى
أبو العباس بن سريج - وكنا نحضر
مجلسه لدرس الفقه - فقال : محبة الله
فرض أو غير فرض ؟ قلنا : فرض ،
قال : ما الدلالة على ذلك ؟ فقرأت قوله -

تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم . . . أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا ﴾ (١) ، فتواعدهم (٢) الله - تعالى - على تفضيل محبتهم لغيره على محبته ومحبة رسوله ، والوعيد لا يقع إلا على الفرض (٣) .

ويأخذ الديلمي هذا المعنى عن شيخه لإثبات وجوب المحبة في موضعين من كتاب « العطف » ، دون أن يصرح بنسبته إلى شيخه (٤) . وهذا الخبر يظهر أين يقف الديلمي وشيخه من الخلاف الذي بدأت به « الجهمية » في أمر المحبة لله ومن الله فأنكروهما ، وتابعهم في ذلك المعتزلة ومتأخرو الأشاعرة ، مخالفين في ذلك جمهور علماء المسلمين (٥) .

والقارىء لكتاب « العطف » يجد الكثير من الآراء والأقوال المنسوبة لابن

خفيف متعلقة بنظرية المحبة عما قد لا يجد له نظيراً في مصدر آخر . ولعل من أكثرها أهمية ما يورده الديلمي في أوائل الكتاب عن جواز « إطلاق العشق على الله ومن الله » ، من أن شيخه كان ينكر ذلك زمناً حتى قرأ مسألة لأبي القاسم الجنيد في العشق « ذكر فيها معنى العشق واشتقاقه وماهيته ، فقال به ورجع عن إنكاره ، وجوزه وصنف فيه مسألة (٦) . ونحسب أن هذه « المسألة » كانت ضمن مصادر الديلمي ، الذي يأخذ برأى شيخه في جواز العشق على الله ومن الله ، وفي بيان ماهية العشق واشتقاقه (٧) ؛ وفي تقسيم كتاب « العطف » بوجه عام ، كما قد يفهم من الشواهد التالية :

* يورد الديلمي في « الباب الرابع » :
في معنى اسم المحبة واشتقاقها ومعانيها ،

(١) التوبة : ٢٤ .

(٢) كذا ، ولعلها : فوعدهم أو فتوعدهم .

(٣) سيرت (شميل) ٢٥٨ ، وقارن السيرة (شتا) ٣٠٧ .

(٤) ٩٧ ، ١٩٧ ص .

(٥) انظر بل : Love Theory ٥٦ - ٥٩ ، ١٠٩ - ١١٠ ، ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٦) ٩ - ١٠ ص . قارن ص ١٢٩ فيما سبق .

(٧) السابق ٣٦ ص

وفى الفصل المتعلق بأقوال شيوخ الصوفية فى ذلك ، رأى شيخه ابن خفيف فى اشتقاق لفظ المحبة : « وقال شيخنا أبو عبد الله محمد بن خفيف : يحتمل أنه مأخوذ من قوله - تعالى : ﴿ يحبهم ﴾ فأفاض على الأسرار من حبه فاحتواها ، وألبسها لبسة من محبوبها ، فساغ فى وصفها أن يسمى ذلك حبا ، باسم الحق ووصفه » (١) .

* ثم يذكر الديلمى شيخه فى « الباب الخامس : فى أصل المحبة والعشق ومبدهما » مرتين :

أولاهما : ما يحكيه عن ابن خفيف متعلقا بأهل دمشق « أنهم قالوا : إن أصل العشق الحب ، ثم الرؤية ، ثم العشق . . . » ويتبعه بخبر عن أرميا النبى وخطاب الله - تعالى - إياه (٢) .

والأخرى - وهى أهم من سابقتهما :

(١) السابق .

(٢) السابق ٧١ ص

(٣) السابق ٧٣ ص

(٤) ٩٢ ص .

(٥) ٢٨٩ ش ٢٩٠ ص .

(٦) ٢٩٦ - ٢٩٧ ص .

ما يحكيه عن ابن خفيف فى بيان أصل المحبة « من محبة الحق لعباده تتولد تأثيرات لابسة لقلوبهم ، وغشاوة تظهر على أسرارهم ؛ فيكونون بذلك موصوفين ، وإن لم يكونوا لها كاسيين ٠٠٠ » (٣) وربما كان أصل المحبة هذا متصلا بفكرة « الشاهد » التى يشرحها الديلمى فى الباب العشرين من كتاب العطف .

وفى كتاب « العطف » مواطن أخرى

يذكر فيها الديلمى آراء شيخه وأقواله ، سواء صرح بذلك أم لم يصرح ، منها ما يذكره عن شيخه فى بيان المحبة (٤) ، وبشأن بعض الأخبار عن ماتوا عشقا ، كخبر شعوانة الأبلية ، إذ يقول الديلمى : « ووجدت فى كتاب للشيخ أبى عبد الله محمد بن خفيف - رحمة الله عليه - ويخطه ، قال : . . الخ » (٥) ، وكخبر أبى يعقوب الأقطع (٦) ، وخبر الشاب

المباركي^(١) ، ومواضع أخرى ، أشرنا إلى بعضها فيما سبق . وخبر الأبلية يؤكد اعتماد المؤلف أثناء كتابته على بعض أعمال شيخه التي عثر عليها بعد موته ، كما يؤكد أن بعضها - على الأقل أحدها - كان بخط الشيخ .

(ب) - الحلاج : ربما جار لنا أن نذكر المصدر الحلاجي تاليا للشيخ ابن خفيف ضمن مصادر الديلمي في «العطف» سواء كان ذلك من طريق شيخه أو من طريق آخر ، فقارىء «العطف» يجد أثر الحلاج واضحا ، وآراءه مبثوثة في مواطن عدة ، نشير إليها هنا بالإيجاز .

يذكر الديلمي الحلاج في كتابه لأول مرة ضمن شيوخ الصوفية المشاركين له في الرأي بشأن جوار استخدام العشق في معنى المحبة بين العبد وربه^(٢) .

ثم ينقل عنه نصا مطولا بشأن أصل العشق ، باعتباره أثرا للوجد الإلهي الذاتى فى الأزل ، والخطاب العلوى بين الذات وبين صفاتها ، وهى نظرية «العشق الذاتى» عند الحلاج ، ومن وافقه . ومن الخطاب بين الذات والصفات - كما يصفه الحلاج فى هذا النص - يكون التجلى فى عالمى الملك والملكوت ، مضمخًا بآثار العشق الذاتى القديم ، فيظهر عندئذ الفرق بين الملك والمالك والمملوك ويعرف الفعل والفاعل والمفعول ، وذلك فى الباب الخامس من العطف ، « فى أصل المحبة والعشق »^(٣) .

ويبدو الديلمي فى الفصل السادس منه متأثرا بفكر الحلاج على نحو ما ، إذ

(١) ٢٩٧ - ٢٩٩ ص .

(٢) ٩ ص .

(٣) ٥٠ - ٥٦ ص .

(٤) ٩ ص .

يقول: فأبرز الحق - تعالى - من الأزل لجميع أسمائه المشتركة تأثيرات هي كانت الحدث ، الذي هو جنب الأزل . . . فالمحبة التي كانت أول بارز برز . . . فانقسم ثلاثة : محبا ومحبويا ومحبة ، وهي كانت في الأصل واحدا . . . (١) ولعل النفس الحلاجي واضح في ذلك .

٣ - ثم ما يرد في العطف بعد ذلك من آراء وأقوال حلاجية بشأن « ماهية العشق والنور الأزلية ، وعن الطبيعة الخاصة للعشق ، وما يتخلل ذلك من شعر للحلاج ، وهي الأبيات التي رجحنا - فيما سبق - أن الديلمى قد استوحى منها عنوان كتابه العطف (٢) . وعن مفهوم « المحو » تصوفى في بيتين للحلاج ضمن قصة وقعت له في الأهواز (٣) ، وعن « شواهد المحبة » وما يترتب عليها

(١) السابق ٧٤ - ٧٥ ص .

(٢) السابق ٩٠ - ٩٣ ص .

(٣) السابق ١٤١ - ١٤٢ ص .

(٤) السابق ١٧٩ ص .

(٥) السابق ٢٣٩ ص .

(٦) ١٠٨ ص .

من فناء صفات المحيين (٤) . وأخيرا يورد الديلمى بضعة أبيات للحلاج تصور فكرة « الاتحاد » الحلاجية ، ويعقب عليها بقوله : هذا من الاتحاد (٥) .

ولعله من المناسب هنا أن نورد رأى الديلمى في مثل هذه الفكرة ؛ إذ يقول : في الفصل السابع من الباب السابع من « العطف » : « وفرقة رعمت أن المحبة ، ألا تفارق محبوبك ولا يفارقك ، ولا يكون بينك وبينه خلاء ، ويقولون : نحن الله ، والله نحن - تعالى الله وجل » (٦) .

فآخر هذا القول يوحى برفضه لفكرة الاتحاد .

(ج) هذا ، وللديلمى في كتاب « العطف » - بالإضافة إلى أقوال وكتابات كل من شيخه ابن خفيف والحلاج - مصادر صوفية أخرى عديدة ، ومن أهمها

عمرو بن عثمان المكي وأبو القاسم الجنيد وأبو سعيد ابن الأعرابي ، ولكل منهم - كما ذكرنا آنفا - مؤلف مفقود في المحبة والعشق ، يظهر أثره في كتابنا هذا :

(أ) فأما عمرو بن عثمان فيضمن الديلمي كتابه آراء له ونصوصا مطولة أحيانا في مواضع ثمانية ، بعضها مجرد تكرار لما أورده في موضع سابق ، نشير إلى أهمها فيما يلي :

١- أول من يذكره الديلمي ، ويقتبس من أقواله في الفصل الخاص بأقوال شيوخ الصوفية في اشتقاق لفظ المحبة هو المكي^(١) .

٢ - ثم يورد ثلاثة أقوال له في الفصل الخاص بآراء الصوفية ، في أصل العشق والمحبة ؛ تتضمن كون المحبين أعلاما لمحبتة - تعالى - وبيان سر فرحهم بذكره ، وكيف تصير المحبة عشقا^(٢) ،

وأن أصلها يرجع إلى النظر إليهم بعين المحبة ، يوم استخراج الدر من ظهر آدم .
٣ - وينقل عنه في الفصل الخاص بأقوال الصوفية في نفس المحبة جوابا لمن سأله عن المحبة : بأنها ما دخل في القلوب من لطيف المعنى الذي تعلق به بحق المحبوب^(٣) . ويرجع معناه إلى نظرية المحبة في عالم الدر التي ذكرها في أصل المحبة ، كما أشرنا آنفا .

٤ - ثم يذكر له قولاً في « دلائل المحبة » وأنها الشوق والحنين إلى اللقاء والتحرق والألم لامتناعه^(٤) .

٥ - وفي حد كمال المحبة : ينقل عنه نصاً في المحو والفناء والاصطلام ، بلا وفاة الموتى ولا بقاء الأحياء^(٥) .

(١) السابق ٣٥ ص .

(٢) السابق ٦٩ - ٧١ ، ٧١ - ٧٣ ص .

(٣) السابق ٨٧ ص .

(٤) السابق ١٧٨ - ١٧٩ ص .

(٥) السابق ٢٤٠ - ٢٤١ ص .

٦ - وآخر المنقبسات وأطولها عن
المكى ما يورده الديلمى فى خواتيم كتابه -
فى باب « موت الإلهيين » من العشق
والمحبة - وهما قصتان : إحداهما قصة
حكاهما عمرو عن الزقاق عن أحد أصحابه
الذى حضر موت أحد الصوفية ودفنه ،
وكيف ظهر له فى المنام بعد موته ، فى
موكبه إلى الجنة ، وكيف لقيه فى قصره
بالجنة ، فأوصى بإكرامه . والأخرى قصة
حكاهما عمرو أيضا عن أبى سعيد الخزاز
عن بعض متعبدى بغداد ، بشأن ميت نزل
ليدفنه فى قبره ، فلما انحلت عقدة الكفن
خاطبه الميت : أما إني سأنفعلك ، فغشى
عليه ، وأخرج محمولا (١) .

(ب) وأما الجنيد بن محمد ، فلعله
فى استخدام مصطلح « العشق »
كان متأثرا بشيخيه : الحارث
المحاسبي ، الذى ترك مقالة فى

المحبة رواها أبو نعيم فى الحلية (٢) ،
وأبى يزيد البسطامى المعروف
بالفناء والقول بالعشق الإلهى .
وكثير مما فى العطف من أقوال
الجنيد يتصل بمسألة العشق ،
ولعله مأخوذ من « مسأله » التى
أشار إليها الديلمى فى أوائل
كتابه (٣) وإلى تأثيرها على شيخه
ابن خفيف .

والموضوع الثانى الذى يقتبس فيه
الديلمى من الجنيد هو المتعلق باشتقاق
كلمة « العشق » (٤) .

ثم يذكر رأيه فى صيرورة المحبة عشقا
جوابا لمن سألته عن أصل العشق ، بأن
أصله المحبة ، وتزداد حتى تصير عشقا .
وفى هذا الموضوع نفسه يورد الديلمى
قصيدة طويلة للجنيد بالغة الأهمية ،

(١) السابق ٢٩١ - ٢٩٦ ص .

(٢) انظر الحلية ١٠ / ٧٦ وما بعدها .

(٣) العطف ٩ - ١٠ .

(٤) السابق ٣٥ ص .

لاتخلو من غموض فى كثير من آياتها،
فى معنى مبدأ العشق والمحبة وامتثالهما ،
وفناء المحبة عن جميع الصفات ، وسائر
النسب والإضافات(١) .

وفى باب « نفس المحبة وماهيتها »
يورد جواب الجنيد لمن سأله عن نفس
المحبة والعشق ، بما يؤكد رأيه السابق فى
صيرورة المحبة عشقا ؛ فالعشق عنده غليان
المحبة عند بلوغها الغاية(٢) .

ثم يروى عن الجنيد قصة تتعلق بأحد
مريديه الذى غاب عن الحلقة ؛ حياء من
شيخه ، لانشغاله بذى وجه جميل ، فزاره
ولم ينكر حاله ، وقال هى محبة لا نقمة .

وفى ختام القصة يورد الديلمي بيتين فى
المحبة للجنيد ، ويعد أن يلم بأقوال شيوخ
آخرين يذكر مقالة الجنيد : « فقدنا ثلاثة
أشياء لا نكاد نجد لها حتى الممات : حسن

(١) السابق ٦٥ - ٦٨ ص .

(٢) السابق ٨٧ .

(٣) السابق ١٣٩ - ١٤١ ص .

(٤) السابق ١٧٨ ص ، وقارن رسائل الجنيد ، ص ٤٣ .

الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع
الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء(٣)

وفى باب « شواهد المحبة » يورد
الديلمي أبياتا ثلاثة رائعة الجمال تلقاها
الجنيد مكتوبة فى رقعة من شيخه وخاله
السرى السقطى(٤) . وهو آخر المواضع
التي ترد فيها أقوال الجنيد .

(ج) وأما أبو سعيد المشهور بابن

الأعرابى - وهو أقرب هؤلاء

الشيوخ الثلاثة زمنا من الديلمي

- فقد نقل الديلمي عن كتابه

المفقود « اختلاف الناس فى المحبة »

فى مواضع ثلاثة :

أولها : نص هام فى باب (معنى

اسم المحبة واشتقاقها) عن درجات المحبة

ومراتبها ومقاماتها ، والاسم الذى تعرف

به عند كل درجة ، ثم ينقل عن أبى سعيد

شرحه لمعاني هذه الأسماء بلغة صوفية بالغة الدقة والعمق ، تكشف - فضلا عن قيمتها الروحية الذاتية - مرحلة من مراحل تطور المصطلح الصوفي^(١) .

والنصر الثانى : وهو أكثر نفاسة وأهمية من سابقه ، على أهميته ونفاسته أيضا ، يرد فى الباب السابع من كتاب « العطف » ، الذى أعطاه الديلمى عنوان كتاب ابن الأعرابى : « اختلاف الناس فى المحبة » . ويبدأ بقول الديلمى : « قال أبو سعيد أحمد بن [محمد بن] زياد الأعرابى فى كتاب « اختلاف الناس فى المحبة » أقاويل بلا ذكر قائلها ، فقال : اختلفوا فى المحبة ، فكانوا فى الأصل سبعة أصناف » . ثم يذكر الأصناف السبعة التى يحتوى كل منها على بضع فرق ، يبلغ مجموعها أربعا وأربعين فرقة

تمثل مختلف اتجاهات الفكر الإسلامى حينذاك فى باب المحبة ، بما فى ذلك آراء المحافظين من أهل السنة ، وآراء الفرق الأخرى من معتدلى الشيعة وغلاتهم . ويغلب على ظننا أن الباب السابع من « العطف » كله اختصار أو اقتباس لما احتواه كتاب ابن الأعرابى ، ولا يبعد أن يكون الديلمى قد ضمنه بعض التفاصيل من مصادر أخرى . ويستغرق هذا الباب ما يربو على عشر صفحات من مخطوطة كتاب « العطف » ، فهو يمثل - إن صح حدسنا - أطول نص مقتبس فى الكتاب ، ويقدم إلينا قطعة هامة جدا ، لا نجد لها فى مصدر آخر ، من عمل ابن الأعرابى المفقود - إن لم يكن كله^(٢) .

وفى منتصف كتاب « العطف » تقريرا يورد الديلمى نصا آخر لابن

(١) السابق ٣٦ - ٣٨ ص .

(٢) ٩٨ - ١٠٩ ص .

الأعرابي ، يشرح فيه قول ، رابعة حين
سئلت : « كيف حبك للرسول ؟ »
فأجابت : « إنى أحبه ، إلا أن حب
المخالق شغلنى عن حب المخلوق » . وهو
شرح ينم عن الفهم لحقائق التصوف من
ناحية ، ولذوق رابعة فيه من ناحية
أخرى (١) .

هذا ولا يخفى على قارئ كتاب
العطف أن هناك مصادر صوفية أخرى قد
استعان بها مؤلفه ، إلا أنها أقل أهمية مما
سبق ، ومن ذلك ما نقله عن أبى سليمان
الدارانى (ت ٢١٥ / ٨٣٠ - ٨٣١) عن
طريق تلميذه أحمد بن أبى الخوارى (ت
٢٣٠ / ٨٤٤ - ٨٤٥) ، وعن ذى النون
المصرى (ت ٢٤٦ / ٨٦١) ، ويتضمن
أشعارا تنسب إليه ، وعن المحدث الكوفى
الزاهد سفيان الثورى (ت ٩٥ / ٧١٣) ،
وعن سمنون المحب المعاصر للجنييد ،
وكثير غير هؤلاء .

ولا نستطيع أن نغفل فى هذا المجال
التعرض للنص الذى رواه الديلمى عن
سهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣ /

٨٩٦) ، متعلقا بنظرية « النور المحمدى »
الشائعة لدى الصوفية ، وهو نص مطول
هام جدا (٢) . ويأتى ذكر التستري مرتين
بعد ذلك فى كتاب « العطف » (٣) . هذا
بالرغم مما عرف عن ابن خفيف من مقاومة
لمذهب « السالمية » الذين تتلمذ شيخهم
على التستري (٤) .

(د) من الطبيعى أن يستعين الديلمى
فى تأليف كتابه بمصادر غير صوفية ، وأهم
هذه المصادر ما يلى :

(أ) الطبرى محمد بن جرير ،
صاحب التاريخ والتفسير ، الذى ينقل
الديلمى عنه عدة أخبار تاريخية بشيء من
التصرف ، ويصرح بذلك فى الموضع الذى
يروى عنه فيه خبر الخضر - عليه السلام (٥)
وقد ساعدتنا المقارنة بين نص « العطف »
وكتابى الطبرى ، المشار إليهما آنفاً على
تحرير النص فى عدة مواضع من الباب
الأخير كما قد يلاحظ القارئ فى تعليقاتنا
عليه وقد يكون من المناسب أن نشير هنا ما
سبق من إلى أن الديلمى يذكر ابن جرير
ضمن شيوخ ابن خفيف الذين سمع منهم
الحديث فى بغداد (٦)

(١) انظر ١٥٢ ص . وهناك موضع آخر فى العطف يُذكر فيه قول منسوب لشخص كنيته أبو سعيد ، لكن لا نقطع بأنه
ابن الأعرابي ، وذلك فى ٧٠ ص .
(٢) السابق ٦٧ - ٦٨ ص .
(٣) السابق ٨٧ ، ٢٩١ ص .
(٤) شمائل : سيرت ٢١٢ .
(٥) العطف ٢٧٢ ص . وقارن هوامشنا على المواضع الأخرى .
(٦) شتا : السيرة ٢٥٣

(ب) ومن رجع إليهم الديلمي من المؤرخين أيضا - فيما يبدو - المسعودي، صاحب « مروج الذهب » وصاحب « أخبار الزمان » وهو الكتاب الذي تناول فيه موضوع « العشق » بالتفصيل ، كما ينص المسعودي في « المروج » (١) . ومن أهم النصوص التي يبدو أن الديلمي قد نقلها عن المسعودي ما أورده في الفصل الرابع من الباب الخامس ، « في قول المتكلمين في أصل العشق والمحبة وما تولدا منه » . وقد وردت هذه الأقاويل في المروج ، « في سياق مجلس عقده الوزير البرمكي يحيى بن خالد (ت ٨٠٥/١٩) ودعا إليه نخبة من متكلمي عصره (٢) . ويغلب على ظننا أن أقوال المتكلمين في المحبة كانت تحت يد الديلمي اعتمادا على كتاب

المسعودي : « أخبار الزمان » ، أو مصدر مشترك لهذين الكتابين ثم قام بتوزيعها على مواضع عديدة من كتابه عند بيان رأى المتكلمين (٣) .

(ج) ويرجع الديلمي أيضا إلى أبي العباس أحمد بن منصور ، أحد علماء شيراز البارزين في عدة فنون ، ووالد أبي عبد الله البيطار الذي سلف ذكره في حياة المؤلف (٤) ، وصاحب « مشيخة » ينقل عنها الديلمي خبرا عن ثابت البناني ، وآخر يتعلق بالعمامي ، أحد صوفية الرقة (٥) .

ومناك مصادر أخرى عديدة في مجالات متنوعة ، لا يعينها المؤلف على وجه التحديد ، لكنه يذكرها على وجه الإجمال ، كإهل اللغة ، والأدباء ، والأعراب ، والفلاسفة الأوائل ،

(١) المسعودي : مروج ٦ / ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) ٦٢ - ٦٤ ص ، لاحظ هوامشنا عليها ، وما مر في ص ٣٣ ، وقارن المروج ٦ / ٣٦٨ - ٣٨٦ .

(٣) انظر ص ١٣١ فيما سبق .

(٤) راجع ما سبق في ص ١٢٣ ، ١٣١ - ١٣٢ .

(٥) ٢٨٧ ، ٢٩٩ ص .

والأطباء ، والمنجمين ، والمتكلمين ، مما هو مثبت في فصول الكتاب كله .

وقد يكون من قبيل ذلك أيضا ما نقله في بعض المواضع عن « أحد الفلاسفة »^(١) وما نقله عن كتاب للعالم الفلكي أبي معشر ، ولكن بطريقة غير مباشرة ، بل نقلا عن بفعل أهل العلم^(٢)

والكتاب يكشف عن ثقافة متنوعة رجة الأبعاد ، وليس من اليسير في هذه المقدمة أن نحصى مصادره ومراجعته ، فنكتفي بما تيسر من ذلك .

وقد يسوغ لنا - بالنسبة لما زخر به من أشعار في الحب - الإنساني منه والإلهي - أن نتوقع أن المؤلف كان يعتمد على كتب من طراز « الزهرة » لابن داود و « اعتلال القلوب » للخرائطي ، ومجموعات الشعر المتداولة حينذاك ، وأنه كان يرجع أيضا إلى مصادر أخرى صوفية ، قد لا تكون موجودة الآن ، نظرا لما يحويه الكتاب من أشعار للجنييد والحلاج وغيرهما من أعلام الطريق ، ومنقطوعات أخرى لا توجد في دواوين أصحابها المتداولة الآن والله أعلم .

(١) ص ٥٦ ، وقد رجحنا أن المقصود به أبو حيان التوحيدى ، كما اقترح ماسينيون ، راجع مامر في ١٢٣ - ١٣٣ -

١٣٤ فيما سبق .

(٢) ص ٥٦ .

(ج) طريقة التحقيق

١- أسباب إعادة التحقيق :

إلى الناس لأول مرة فى أوائل الستينات ،
وإن كانت نشرته تلك قد جاءت مشوية
ببعض العيوب والأخطاء فيما يتعلق بالنص
نفسه ، كما أنها نلت من التعريف
بالكتاب ومؤلفه ، ومن الفهارس المعتادة ،
وقد كان النص بحاجة إلى بعض التعليقات
والإيضاحات التى لم يتم بها محققه .
وإن كان قد قام ببعض هذه الأمور فى
ترجمته الفرنسية للكتاب فيما بعد .

ولهذا كله قمنا بإعداد هذه النشرة التى
راعينا فيها - بتوفيق الله - التعريف
بالمؤلف وكتابه أولاً . ثم تحرير النص طبقاً
للأصل وللنصوص الموازية له ، والأبحاث
المتعلقة به فى اللغات العربية والفارسية
والتركية من ناحية ، والإنجليزية والفرنسية
والألمانية من ناحية أخرى .

كما عينا بالتعليق عليه : للتعريف بما

اتجهت همتنا أول الأمر - أنا والدكتور
يوسف بل أستاذ العربية فى جامعة برجن
بالنرويج - إلى ترجمة هذا الكتاب من
العربية إلى الإنجليزية ، لتيسير الإفادة منه
للناطقين بهذه اللغة ، ثم وجدنا أنه من
الضرورى ، بعد مراحل العمل الأولى التى
اعتمدنا فيها على نشرة الأستاذ « فاديه » ،
وبعد اكتشافنا لل صعوبات التى تكتنفها ،
أن نقوم بإعادة تحقيق النص العربى من
جديد ، اعتماداً على المخطوطة العربية
الوحيدة ، المحفوظة فى مكتبة « توبنجن »
لكى نقدم للباحثين وللمثقفين نص الكتاب ،
وترجمته الإنجليزية ، بطريقة تمثل قراءتنا
نحن للأصل ، وفهمنا له ومعالجتنا إياه .

ونجد من الحق علينا أن نشكر الأستاذ
« فاديه » الذى كان له فضل إخراج الكتاب

ورد فيه من أعلام ، إلا ما فاتنا أو تعذر التعريف به أو كان بالغ الشهرة . ولتخريج النصوص الواردة فيه سواء كانت قرآنية أو نبوية أو شعرية أو غيرها . كما ألحقنا به فهارس تفصيلية على النحو المعهود .

وحاولنا - بوجه عام - أن نقوم النص بقدر الاستطاعة ، وأن نضئ جوانبه بالتعليقات التي بدلنا فيها جهداً كبيراً ، استغرق أمداً طويلاً ، ونأمل أن يجد المطلعون على هذه النشرة الجديدة بأنفسهم مبررات إعادة التحقيق ، ويستقبلوها بشيء من الثقة والاطمئنان بإذن الله .

٢ - وصف الأصل :

اعتمدنا - كما سلفت الإشارة على نسخة مكتبة « توينجن » الخطية ؛ حيث لم نستطع العثور على سواها ، وسنعمد في وصفها هنا على صورتها « الفوتوجرافية » التي تفضلت

إدارة المكتبة بإرسالها إلينا، وهي تقع في ثلاثمائة صفحة عدا صفحاتي العنوان والخاتمة ، وفي كل صفحة ١٣ سطراً . ويحيط بالصفحات الأولى منها - من صفحة البسملة إلى ص ١٧ - إطار مستطيل (١٠ × ١٤ سم) أهمله الناسخ بعد ذلك فيما بقي من الكتاب .

وقد روجعت هذه النسخة بعد كتابتها ، حيث دونّ الناسخ ، بالخط نفسه ، ما سقط من النص أثناء النسخ على الهامش الأيمن أو الأيسر مع الإشارة إلى ذلك في موضع السقط ، وهذا السقط يكون أحياناً كلمة أو بعض كلمة^(١) ، وأحياناً عبارة أو جملة^(٢) وأحياناً أخرى سطراً كاملاً^(٣) . وقد تتعدد مواضع هذا السقط المضاف على الهامش فيصل أحياناً في الصفحة الواحدة إلى أربعة مواضع^(٤) ، مما يدل على عناية طيبة بالمراجعة ، وإن كنا نعتقد أن هناك مواضع من السقط

(١) انظر مثلاً ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٩ . ص .

(٢) انظر مثلاً ١١ ، ٢٤ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ص .

(٣) كما في ٦٣ ، ١٨٩ ص .

(٤) كما في ٩٠ ، ١١٤ ص مثلاً .

لم تتدارك عند المراجعة ، نبيها نحن إليها على طريقتين : الأولى بزيادتها في صلب المتن داخل معقوفتين علامة الزيادة لضرورتها للسياق (١) والأخرى بالإشارة إليها في تعليقاتنا بالهامش إن لم تكن ضرورية (٢)

وعلى « صفحة العنوان » من الصورة يوجد بخط الناسخ نفسه : « كتاب عطف الألف والمألوف { كذا } على اللام المعطوف تأليف الشيخ الإمام العارف أبي الحسن على بن محمد الديلمي - رحمه الله تعالى - برواية الشيخ أبو { كذا } الحسن ابن بكران بن الفضل رواه عنه أبي { كذا } شجاع محمد بن سعدان المقاريضي (٣) - رضى الله تعالى عنه وأرضاه . » وحول هذا إطار في شكل مثلث مقلوب ، ينتهى عند رأسه فى أسفل الصفحة بحلية زخرفية ، لعله من عمل الناسخ أيضاً

(١) كما فى ١٧١ ، ٢٢٧ ص مثلاً .

(٢) كما ٣٧ ص مثلاً .

(٣) انظر ما كتبناه فيما سبق عن سند الكتاب ونسبته .

ويوجد فوق الإطار كلمات قليلة ، وإلى جانبه «ختم عربى» يبدو أنه لأحد من تملكوا الكتاب ، وفى أقصى الشمال من أسفل الصفحة يوجد « تملك » آخر على النحو التالى : « كتاب الألف من كتب الفقيه الخ » يبدو أنه أقدم من تملك صاحب الختم ، وضرب عليه بالقلم لإخفائه ، وقد حاولنا قراءة بعض محتوياتهما وتعذرت قراءة البعض الآخر .

وأما صفحة الخاتمة فى آخر الكتاب فتحوى على سطرين كاملين ويضع كلمات أخرى ملونة بشكل رأسى ، علامة الختام . وهى تتضمن جزءاً من الدعاء الذى ختم به الديلمي كتابه على النحو التالى : « عند لقاء ربنا ، والعفو العام عند حسابنا ؛ إنه ولينا والقادر عليه { كذا } وصلى الله على سيدنا { كذا } محمد ، وآله ، أصحابه { كذا } ،

الطبيين الطاهرين أجمعين إلى يوم الدين ،
وسلم . . . »

ويوجد بعد ذلك سطر واحد ، ضرب
عليه بالقلم بحيث تصعب قراءته جدا
وبرغم الصعوبة البالغة يمكننا أن نتوقع -
على تردد شديد - أنه يتضمن شيئا يتعلق
بالناسخ .

وقد أحيطت أكثر الكتابات التي وردت
في هذه الصفحة الأخيرة بإطار في شكل
مثلثين متداخلين يحيطان بالكلمات الختامية
المرتبة رأسيا بما يقرب من شكل المثلث
المقلوب ، كالعادة في خواتيم الكتب ،
ومنها السطر الذي ضرب عليه .

وطراز الخط الذي استخدمه الناسخ
هو قلم نسخ معتاد . وكان يحرص في
الصفحات الأولى على تشكيل أكثر
الكلمات ، وإن كان التشكيل ، وبعض
الشواهد الأخرى ، تدل على أن الناسخ

لا يتقن قواعد اللغة العربية^(١) ، كما أن
النقط بالنسبة للحروف المعجمة جاء
مضطربا في أحيان كثيرة ، كما تدل عليه
تعليقاتنا وخاصة في الأجزاء الأولى من
النص . وكان الناسخ يبرز عناوين الأبواب
والفصول وبدايات الأشعار وبعض الأقوال
بتكبير الأحرف واستخدام حبر مغاير^(٢) وقد
يلجأ أحيانا إلى استخدام أشكال زخرفية
في هذه المواضع ، وفي غيرها
أحيانا ، وغالبا ما يقصد بهذه الزخارف
استكمال الأسطر الناقصة في المواضع
الهامة وحول العناوين^(٣) .

خطوات التحقيق

١ - بدأنا بنسخ المخطوطة طبقاً
لقواعد الإملاء الحديثة ، مراعين في ذلك
تقسيمها إلى فقرات بحسب مقتضيات
المعنى وطبيعة الأسلوب ، مستخدمين
علامات الترقيم المستقرة في العربية

(١) انظر صفحة العنوان في أول النص للمحقق .

(٢) انظر الصفحات المصورة من الأصل ، و صفحة العنوان من النص للمحقق .

(٣) انظر مثلا ٧ ، ٨ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ١٨٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ من المخطوطة الأصلية .

المعاصرة ، مصلحين اختلال النقط
والتشكيل المشار إليه آنفا ، مع الإشارة إلى
بدايات صفحات المخطوط بخط مائل في
الصلب وذكر رقم الصفحة على الهامش
بحذاء هذا الخط . ويؤسفنا أن نوع «البنط»
الذى استخدم فى الطباعة لم يسمح بوضع
أية علامة تشكيل فوق الألف المهموزة ،
كما لم يسمح بوضع علامة المد فى
مثل كلمة « الله » وكلمة « الرحمن » .
وعيننا بمراجعة هذا النسخ مرات
عديدة للاطمئنان إلى سلامته ، ووضعنا
التصحیحات التى أثبتتها الناسخ بخطه على
الهامش وحدد مواضعها - كما ذكرنا فيما
سبق - فى صلب المتن ، وقلما أضفنا
إلى المتن ما ليس فى الأصل (الذى
رمزنا له بالحرف ص) ، فإن فعلنا
جعلناه بين معقوفتين علامة الزيادة ،
وذلك حين تقتضيه الضرورة فحسب . وقد

لاحظنا أن أخطاء الناسخ التى صحح منها
الكثير فى المخطوط ترجع إلى أمور منها
الضعف اللغوى للناسخ كما ذكرنا ، وإلى
أنه - فيما نرجح - كان يعتمد أثناء النسخ
على أصل مكتوب بين يديه ينقل عنه ؛ إذ
هناك أخطاء نظرية ترجع إلى تشابه
الكلمات وتداخل السطور مع العجلة فى
النقل^(١) ، وترجع أيضا إلى أسباب
سمعية ؛ إذ يبدو أن الناسخ كان يعتمد
أحيانا على من يقرأ له من الأصل
المكتوب . فيخطئ فى تسجيل ما يسمع^(٢) .

٢ - ومن الطبيعى أن تصادفنا فى هذه
المرحلة مشكلات القراءة ، وقد استعنا
أحيانا - كما ذكرنا فى تعليقاتنا بالهامش -
بما أثبتته الأستاذ « فاديه » فى نشرته لهذا
الكتاب (التى رمزنا لها بالرمز ف) ، وقد
حرصنا أن نشير بالهامش إلى ما أفدنا فيه
من قراءاته ، إن كانت ذات مغزى ، أما ما

(١) كما فى ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢١٣ ،
٢٥٣ ، ٢٥٤ من المخطوطة الأصلية .

(٢) كالتى نبهنا عليه فى ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٩ ، ٢٥٢ ص .

اتفقنا فيه معه من الكلمات العادية فكثير
بطبيعة الحال ، ولا يستحق التنبيه عليه .
وحين خالفناه لتغييره ما فى الأصل
أو لاجتهاد له فى القراءة لا نقره عليه
أشرنا إلى ذلك بالهامش أحيانا ، وخاصة
فى الأجزاء الأولى من النص ، وسكتنا
عن هذه الإشارة فيما بعد ذلك .

واستعنا أيضا بالاجتهادات التى قام بها
الأستاذ « ريتز » فى قراءة مواضع قليلة من
الأصل ، ألحقها الأستاذ « فاديه » بنشرته
المذكورة ، وأشرنا بالهامش إلى ما كانت
فيه معونة حقيقية لنا ، وقد نشير أحيانا
إلى ما نخالف فيه كلا من « فاديه »
و « ريتز » كما يلاحظ القارئ .

كما استفدنا أيضا - فى هذا الصدد -
بتحقيق الأستاذين « بيستر فلت »
و « جوتاس » (المشار إليهما فى الهوامش
بالرمز : بيج) للحوار الذى دار بين أرسطو

وتلاميذه ، وحكى الديلمى أجزاء منه فى
عدة مواضع من الكتاب (١) .

وكان لما قام به الأستاذ « فالزر » من
ترجمة لأحد فصول الأصل إلى
الإنجليزية (٢) ، وما قام به الأستاذ
« ماسينيون » من عمل مماثل فى الفرنسية (٣) ،
وما قام به الأستاذ « فاديه » من ترجمة
النص كله إلى الفرنسية - كان لهذا كله
فائدة قيمة لنا ، سواء فى مرحلة القراءة
وتحرير النص ، أوفى مرحلة التعليق عليه
والإيضاح له .

وقد استعنا فى هذه المرحلة والتى تليها
بمصادر صوفية وتاريخية وأدبية ودينية تضم
نصوصا موازية لما فى الأصل أعانت
على حسن قراءته أيضا كما سيلاحظه
القارئ فى مواطن عديدة ، ومن أهمها ؛
« مروج الذهب » للمسعودى ، و « روضة
المحبين » لابن القنيم ، و « الواضح

(١) انظر العطف ٥٩ - ٦٠ ، ١٥٦ ت - ١٦٠ ، ٢٤١ - ٢٤٢ ص والتعليقات بهوامشها .

(٢) السابق ٥٩ - ٦٠ ص هوامشها .

(٣) السابق ٤٨ - ٥٠ ، ٧٤ - ٧٨ ، ٩٠ - ٩١ ، ١٤١ ، ١٧٩ ، ٢٣٩ ص وهوامشها .

المبين « لغلطاي ، و « مصارع العشاق »
للسراج ، و « ذم الهوى » لابن الجوزى ،
و « منازل الاحباب » للحلبى ، و « منية
المحبين » للحنبلى ، و « تزيين
الاسواق » للانطاكى ، و « حلية
الاولياء » لآبى نعيم ، و « الرسالة »
للقشبرى ، و « كشف المحجوب »
للهجويزى ، و « التاريخ - وجامع البيان »
للطبرى ، وكثير غيرها .

٣ - وعيننا فى المرحلة الثالثة بالتعليق
على النص لإيضاحه وتنوير جوانبه ،
والتعريف بأعلامه ، وتخرىج نصوصه ،
وربط أجزاء بعضها ببعض ، وبما قد يعين
قارئه أثناء المطالعة بوجه عام .

وفى هذا الصدد ، عيننا بالنصوص
القرآنية أولا ، ومراجعتها على « مصحف
الملك » المطبوع بالقاهرة ، مع ذكر اسم
السورة ورقم الآية فيها بالهامش . كما
أولينا عناية خاصة بتخرىج الأحاديث
القدسية والنبوية ، مستعينين بدواوين السنة
ومصادرنا المتعددة التى تسرت لنا ، وإن
فاتنا - على ما بذلنا من جهد - تخرىج

القليل منها . ونظرا لطول فترة العمل فى
التحقيق ، فقد ظهر كتاب « موسوعة
أطراف الحديث النبوى الشريف » لآبى
هاجر محمد السعيد بن بسيونى
رغلول (بيروت ١٤١٠ / ١٩٨٩) بعد
أن كدنا نفرغ من عملنا ، فاستعنا به فى
بعض النصوص (ورمزنا له بالحرفين
« مط ») ، وخاصة تلك النصوص التى
لم نكن قد عثرنا عليها فى مراجعتنا السابقة
وحاولنا أن نقارن النصوص الشعرية
الكثيرة الواردة فى الأصل بمظانها من
الدواوين ، والمجموعات الشعرية ، وكتب
الادب المتعددة ، للتوثيق والإيضاح وخدمة
للقارئ المعنى بذلك ، وإن تعذر علينا
القيام بذلك فى القليل منها . وقمنا بجهد
مماثل بالنسبة للنصوص التاريخية ،
وبخاصة تلك التى تتصل بقصص الأنبياء
السابقين وأممهم ، فقارناها بما فى المصادر
الإسلامية وغيرها - وبخاصة
العهدين القديم والجديد - على النحو
الذى يلمسه القارئ المتخصص . كما

حاولنا أن نعرف بالأعلام الواردين في النص - إلا ما اشتهر جداً - وفاتنا من ذلك القليل النادر .

ونظراً لأن النص الصوفي يلم بجوانب فلسفية - فضلاً عن طابعه الدينى - فقد عينا ، خدمة للقارئ المتخصص ، بمقارنته بالعديد من النصوص المماثلة والمشابهة في مختلف المجالات الفكرية والروحية - كما ألمحنا فيما سبق ، مستفيدين في ذلك بما نشر من نصوص ودراسات في العربية والفارسية والتركية من اللغات الشرقية ، وفي الإنجليزية والفرنسية والألمانية من اللغات الغربية ، وربما كان الجهد المشترك لباحثين ، أحدهما عربى مصرى وهو شخصى الضعيف ، والآخر مستشرق أمريكى وهو الأستاذ الدكتور/ يوسف بل ، نموذجاً للتعاون الجاد بين رجال البحث العلمى فى الشرق والغرب .

هذا ، وقد اضطررنا أحياناً ، لأسباب عملية ، أن نلجأ أثناء التحقيق أو إعداد المقدمة إلى استخدام أكثر من نشرة

للمرجع الواحد ، فما كثر استخدامه حاولنا أن نثبت بياناته أولاً فى قائمة المراجع ، ثم أوردنا ما قل استخدامه ، مع الإشارة فى الهوامش إلى ما يعين النشرة عند الضرورة .

ونظراً لقيامنا بترجمة الكتاب إلى الإنجليزية ، قبل دفع هذا العمل إلى المطبعة ، فقد أحلنا إلى تلك الترجمة فى بعض المواضع ، كما يلاحظ القارئ .

٤ - وقد حرصنا أن نمهد للنص بمقدمة عن المؤلف وأعماله ، وبخاصة كتاب « العطف » ، على النحو الذى سبق ، نظراً لعدم شهرته لدى القارئ العربى ، ولخلو النشرة السابقة من مثل هذا التمهيدي ، الذى نأمل أن يعين القارئ فى مطالعة النص نفسه ، واستيعابه ، والاستمتاع به .

كما ألحقنا بالنص فهرس تفصيلية على النحو المعهود فى التحقيق ، راعينا فيها - عدا فهرس الموضوعات بطبيعة

الحال - أن نذكر أرقام صفحات الأصل
المخطوط المثبتة على هوامش نشرتنا هذه ،
نظرا لثباتها ، ولتيسير المقارنة بين نشرتنا
هذه والترجمة الإنجليزية التي قمنا بها على
من يرغب في ذلك من القراء .

ولا يفوتنا أن نشكر من أعانونا على
إخراج هذا النص الهام من العلماء
والباحثين الذين لا نستطيع أن نحصيهم
أو نوفيهم حقهم من الشكر ، وفي
مقدمتهم : عبد الفتاح الحلو - رحمه الله ،
ومحسن مهدي ، والسعيد بدوي ، وچان
كلود فاديه ، وجون هنويك ، وج .
فان إس ، وإميل كومرر ، وأنجليكيا
هارتمان ، وفؤاد سزكين ، وحامد طاهر ،
وعلى عشري زايد ، وأحمد محمود
إبراهيم ، وفلوريان صبيروى ، وريجيس
مورلون ، والفقيه جورج شحاته قنواتى .

كما نتوجه بالشكر إلى أعضاء مجلس
البحوث القومى بالنرويج ، ومركز

البحوث الأمريكى بالقاهرة ، وجامعة ولاية
نيويورك ، وجامعة برجن بالنرويج ،
لإسهامهم فى تيسير إتمام هذا العمل ،
بدعم رحلات الزميل الأمريكى المشارك فيه
إلى القاهرة ، أثناء فترة النهوض به .

ونأمل أن يكون هذا النص - بإذن الله
- فاتحة خير لسلسلة من النصوص فى
الحب الإلهى ، نشرف بتقديمها للباحثين
والمتقنين فى الشرق والغرب ، ومن حسن
الطالع أن تكون الفاتحة أقدم نص عربى من
نوعه فى أيدي الناس اليوم ، فلقد سبق
الديلمى رجال - ممن ذكرنا ومن لم نذكر -
بالتأليف فى « ظاهرة الحب » ووصلت إلينا
أعمالهم ، لكنهم عنوا - كما أشرنا
سلفا - بالجوانب الأدبية ، لا بالجوانب
الميتافيزيقية والروحية والكونية ، وهذه
الجوانب الأخيرة هى التى أفاض فيها
الديلمى على نحو لم يسبق إليه
فيما نعلم من نصوص الصدر الأول ،
وإن كان قد تبعه كثيرون من
الصوفية والفقهاء وخاصة من رجال

المذهبين الظاهري والخبلي الذين أفاضوا
وأمتعوا ، وبرعوا وأبدعوا ، في تناول هذه
الظاهرة - كما بينت ذلك الدراسات
الحديثة^(١) - على غير ما قد يتوقع بعض
المثقفين المعاصرين .

ولعل في النص الذي بين أيدينا ، وما
يمثله من تراث عريض في الفكر الصوفي
والثقافة الإسلامية ، ما يحقق إحدى حاجات
الإنسان من حيث هو إنسان ، وخاصة في
عصرنا الذي كادت تعصف فيه المادة
وإحباطها بحقيقة الحب بل بحقيقته الإنسان
نفسه .

وبعد ، فقد قال صاحب الكتاب :
قد نشرت في هذا الكتاب نكاتا وإشارات
كثيرة - كرهنا تعدادها - لم نشرحها ولم
نبن عنها ، وتركناها لمن بعدنا ؛
رياضة لعقولهم وامتحانا لمعرفة
فليطلبها طالب الحق بجهد ، فإنه يظفر

بها على قدر حظه من المعرفة . وذكرنا فيه
الفاظا يحتاج فيها إلى شرح العبارة ،
فأهملناها لمعنيين : أحدهما خوف
التطويل ، والثاني رجاء منا أن يتولى
شرحها من بعدنا من أعطى منها شيئا إن
أعطى . ونسأل الله التوفيق في جميع
أمورنا^(٢) . ونحن لاندعى أننا من
هؤلاء الذين كان يتوقع المؤلف أن سيأتوا
من بعده ، ويضموا جهدهم إلى جهده ،
بفهم إشارته وشرح عبارته ، وإن كنا قد
بدلنا في ذلك غاية جهدنا ، ولعلنا قد
مهدنا سبيل القارئ الفطن ليظفر ، هو -
على قدر جهده الخاص - بأسرار
الخطاب ، والمضامين الحقيقية لهذا
الكتاب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب
العالمين .

حسن محمود عبد اللطيف الشافعي

عضو المجمع

(١) انظر مثلا : يوسف بيل : نظرية الحب عند متأخري الخنابلة ، وابن حزم طوق الحمامة تحقيق الطاهر مكي . ومصطفى
عبد الواحد : دراسة الحب في الأدب العربي ، ودين محمد ميرا صاحب : الحب الإلهي في التصوف ، بين الإسلام
والنصرانية . ومحمد حسن عبد الله : الحب في التراث العربي . ومحمد غنيمي هلال : الحياة العاطفية بين العلوية
والصوفية .

(١) العطف : ٣١ ص .

الجملة الاسمية بين الإطلاق والتقييد

رأى وتصنيف

للأستاذ الدكتور / محمد حماسة عبد اللطيف

مدخل:

من قبل عن طريق عنصر لغوى جديد على العنصرين المكونين (المسند إليه - المسند) وتتمثل هذه المعانى المقيدة فى معانى المقاربة، والرجاء، والشروع والتوكيد، والتمنى، والاستدراك، والتشبيه والنفى. هذا المعنى الجديد الذى يضيفه الناسخ على الجملة الاسمية يستتبعه تأثيرا عرابى يغير الحالة التى كانت عليها الجملة الاسمية قبل دخوله . فالجملة الاسمية المطلقة - إذن- هى الجملة الاسمية التى لم يَنْصَبْ على طرفيها معا ناسخ من النواسخ أى أطلقت من قيد الناسخ بما يقيدها به من معنى .

فجملة مثل «الله غفور رحيم» جملة مطلقة ، وإذا قلنا «كان الله غفورا رحيمًا» أو «إن الله غفور رحيم» فإنها تصبح جملة اسمية مقيدة ؛ لأن كلا من الناسخين المقيدين «كان» و«إن» قد انصب على المبتدأ والخبر معا ، أما إذا كان فى الخبر وحده نوع من التقييد - بهذا المعنى- كما

يمكن القول بأن هناك نوعين من الجملة الاسمية ، النوع الأول الجملة الاسمية المطلقة والنوع الثانى هو الجملة الاسمية المقيدة .

والذى أعنيه بالجملة الاسمية المطلقة هو الجملة الاسمية التى لا تقييد فيها من أى نوع . والمقيد فى هذه الحالة هو « الناسخ » بأنواعه المختلفة . وقد اخترت هذه التسمية: «المطلقة» لتكون فى مقابل «المقيدة»؛ فقد قال النحاة من لدن سيبويه عن كان وأخواتها إنها لمجرد إفادة الزمن فى الجملة الاسمية ، فهى قيد يضاف إلى الجملة لم يكن موجودا من قبل ، ومثل كان وأخواتها أفعال المقاربة فهى جميعا «روابط وقيدو للمسند وهو الخبر»^(١) وقالوا أيضا إن «المسند فى باب كان هو الخبر و« كان » قيد له»^(٢) فكل جملة اسمية دخل عليها ناسخ من النواسخ «جملة مقيدة» سواء أكان هذا التقييد بإضافة الزمن إلى الجملة الاسمية أم بإضافة معنى آخر إليها لم يكن موجودا

(١) انظر حاشية الخضرى على ابن عقيل ١ / ١٥٦

(٢) حاشية الصبان على الأشمونى ٢ / ٢٣٥

إذا قلنا مثلاً : «محمد كان صادقاً أميناً» فإن هذه الجملة ليست جملة اسمية مقيدة بل مطلقة ؛ لأن انصباب «كان» هنا ليس على المبتدأ بل على ضميره ، والجملة على هذا النحو مكونة من (مبتدأ وجملة اسمية مقيدة هي الخبر) ، والإسناد فى «كان صادقاً أميناً» ليس إسناداً أصلياً ولكنه إسناد فرعى ، ومعنى هذا أن الجملة الاسمية لا تعد جملة اسمية مقيدة إلا إذا كان الناسخ منصباً بتأثيره الإعرابى على كل من المبتدأ (لاعلى ضميره) والخبر معاً ، أو بعبارة أخرى على طرفى الإسناد الأسمى فى الجملة الاسمية .

وتتمثل دراسة الجملة الاسمية المطلقة فى بيان أنواعها ، ومعرفة مكونات كل نوع أو أجزائه ، والتعريف بكل مكون أو جزء وخصائصه ، والربط بين هذه الأجزاء ومعرفة وسائل هذا الربط ، والتطابق بين هذه الأجزاء ، والترتيب بينها ، ومدى حرية هذا الترتيب أو التزامه ، ويمكن تصنيف الجملة الاسمية المطلقة فى ثلاثة أنواع :

- الأول - الجملة الاسمية التامة .
 الثانى - الجملة الاسمية المجزوءة .
 الثالث - جملة الوصف مع مرفوعه .
- ١ - الجملة الاسمية التامة :
- هناك فكرة أساسية فى نظرية النحاة العرب إلى الجملة وهى أنه لا بد من وجود «الإسناد» بطرفيه . وطرفاه فى الجملة الاسمية هما (المبتدأ والخبر) . ولا بد أن يراعى هذان الطرفان فى اعتبار الجملة مراعاة كبيرة ، فإذا كانا مذكورين فإن الجملة حيثئذ قد اكتمل لها عنصرها ، وإذا ذكر أحدهما دون الآخر فإن العنصر الثانى لا بد أن يكون فى الحسبان ، ولا يمكن اعتبار أحدهما فحسب جملة مستقلة ، مع إفادته معنى يحسن السكوت عليه ، فى نظر كثير من النحاة ، وذلك لأن الإسناد فى تعريفهم «رابطة» بين شيئين ، أو «حكم» بأحد الطرفين على الآخر^(١) ، أو «تعليق خبر بمخبر عنه»^(٢) فى الجملة الاسمية .
- والذى أعنيه بالجملة الاسمية التامة هو الجملة التى اكتمل لها عنصرها ، وتحقق فيها الإسناد بطرفيه (المبتدأ والخبر) ،

(١) انظر : الرضى ٨/١ (٢) السيوطى : همع الهوامع ٥/١ (٣) الفتح ، الآية ٢٩ (٤) الفتح : الآية ٩٠

(٥) آل عمران ، الآية : ١٣٩ (٦) يوسف ، الآية ٩٠ (٧) لقمان ، الآية ١١ (٨) الجاثية ، الآية : ٢٩

(٩) الفاتحة ، الآية ٢ (١٠) الفرقان ، الآية ٢٤ (١١) البقرة ، الآية ٢٢٦ (١٢) لقمان ، الآية : ١٢ .

وكان المبتدأ فيها من أسماء الأعلام مثل «محمدٌ رسولُ الله»^(١) أو الأسماء الموصولة مثل «والذين معه أشداء على الكفارٍ رُحَماءٌ بينهم»^(٢) أو الضمائر المنفصلة للرفع مثل «وأنتم الأعْلَوْنَ»^(٣) و «أنا يوسف»^(٤) أو أسماء الإشارة مثل «هذا خلق الله»^(٥) و«هذا كتابنا»^(٦) أو المعرف بالإنشاء مثل «الحمدُ لله»^(٧) أو بالإضافة مثل «أصحابُ الجنة يومئذ خيرٌ مستقراً»^(٨) أو من النكرات المخصصة مثل «ولعبدٌ مؤمنٌ خيرٌ من مشرك ولو أعجبكم»^(٩) أو العامة مثل «ومن يشكُرْ فإنما يشكُرُ لنفسه. ومن كفر فإن الله غنيٌ حميدٌ»^(١٠) ويمكن تحديد الجملة الاسمية التامة بعبارة أكثر اختصاراً فيقال : «هى ما لم يكن المبتدأ فيها وصفاً رافعاً لما يكتفى به ، ولم يجب حذف أحد طرفيها ، وتطابق فيها الجزآن . فقد اشترط في هذا التحديد ثلاثة شروط : الأول :

الأى يكون المبتدأ وصفاً رافعاً لما يكتفى به فإذا كان كذلك فهذا ما سوف يُتناول تحت عنوان جملة الوصف مع مرفوعه .

الثانى : ألا يكون أحد جزأيه واجب الحذف ، فإذا كان كذلك فهذا ما سوف يتناول تحت عنوان الجملة الاسمية المجزوءة . أما إذا كان أحد الجزأين محذوفاً لدواعٍ اقتضاها الموقف اللغوى فى التعبير - وهو ما يسمى بالحذف الجائز - فهذا داخل فى النوع الذى نتناوله هنا . وهو الجملة الاسمية التامة ، فالحذف الجائز لأحد عنصري الجملة الاسمية لا يغير نوعها فهى ماتزال تامة لأن العنصر الآخر مفهوم من السياق وذلك كما فى قوله تعالى : «قال فرعون : وما رب العالمين. قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما»^(١١) فالإجابة تضمنت الخبر فقط «ربُّ السموات» ، وحذف المبتدأ لأنه مفهوم من سياق الكلام وتقديره «هو» يعود على «رب العالمين» ، وهذا الحذف ليس لازماً ، لأنه قد يذكر هذا المحذوف فى مواقف مماثلة كما فى قوله تعالى : «وما تلك بيمينك يا موسى. قال : هى عصاى»^(١٢) .

وفى قوله تعالى : «قال : فمن ربكما يا موسى. قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى»^(١٣) .

(١) الفتح ، الآية ٢٩ (٢) الفتح : الآية ٢٩

(٣) آل عمران ، الآية : ١٣٩ (٤) يوسف ، الآية : ٩٠ (٥) لقمان ، الآية ١١ (٦) الجاثية ، الآية : ٢٩

(٧) الفاتحة ، الآية ٢ (٨) الفرقان ، الآية ٢٤ (٩) البقرة ، الآية ٢٢٦ (١٠) لقمان ، الآية : ١٢ .

(١١) الشعراء : الآية ٢٣ ، ٢٤ (١٢) طه ، الآية ١٧ ، ١٨ (١٣) طه ، الآية ٤٩ ، ٥٠

والإجابة هنا تضمنت المبتدأ والخبر معا، ولم يشأ أن يحذف أحد العنصرين وهو هنا «المبتدأ» لأن الموقف هنا يقتضى ذكر الطرفين معا استلذاذا للحديث مع الذات العلية فى الآية الأولى «هى عصاى» ومحاولة للإطالة فى الكلام ، وكان من الممكن فى الإجابة أن يقول «عصاى أتوكأ عليها» وأما الجملة الثانية «رينا الذى أعطى كل شى خلقه ثم هدى» فإن الموقف هنا اقتضى ذكر المبتدأ (رينا) ، وكان من الممكن حذفه اعتماداً على السياق ، لكن موسى - حسب التعبير القرآنى - أراد أن يؤكد هذا المعنى عن طريق حصر إعطاء كل شى خلقه وهده فى (رينا) لبيطل دعوى فرعون المزعومة بربوبيته هو دون سواه ، وقد أراد أيضا أن يكشف لفرعون عن اعتزازه الشديد بإضافة (رب) إليه هو وأخيه وقد التقط هذا من قول فرعون المنكر المستهزئ «فمن ربكما» حيث يبين أنه يؤمن بما ينكره ويوقن بذلك يقينا لا ينارعه فيه شى من الشك . هذه الجملة التى يذكر أحد طرفيها المبتدأ أو الخبر ، ويكون

الطرف الآخر مفهوما من السياق ، ويكون المتكلم مختاراً بين ذكره أو حذفه حسبما يحدده الموقف وتعليه ملابساته - هذه الجملة تعد من الجمل الاسمية التامة .

الثالث :

أن يتطابق الجزآن فى العدد (الأفراد والتثنية والجمع) والنوع (التذكير والتأنيث) فإذا قلت مثلاً :

«محمدٌ ناجحٌ» فهذه جملة اسمية تامة سواء تقدم «محمد» أم تأخر . فإذا قلت «ناجحٌ محمدٌ» فكلمة «محمدٌ» مبتدأ مؤخر، وكلمة «ناجح» خبر مقدم سواء سبقت بنفى أو استفهام أم لم تسبق بواحد منهما ، وهذا هو تحليل الكوفيين والزمخشري وابن الحاجب لمثل هذا التركيب الذى يكون فيه كل من المبتدأ والوصف (الاسم المشتق) مفرداً وتقدم فيه الوصف ؛ ولهذا أوجبوا فى قوله تعالى «أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم» (١) أن يكون محمولاً على التقديم والتأخير . (٢)

(١) مريم ، الآية ٤٦ .

(٢) انظر : شرح شلور الذهب لابن هشام ١٨٢ . وقد أعرب هذه الآية على أنها مبتدأ وفاعل سد مسد الخبر كل من ابن الأثير (البيان فى غريب إعراب القرآن ١٢٧/٢) والمكبرى (إملاء ما من به الرحمن ١١٤/٢ ، ١١٥) ومكى بن أبى طالب القيسى (مشكل إعراب القرآن ٤٥٦) . وهو اتجاه البصريين الذين يجيزون هذا الوجه (مبتدأ + فاعل سد مسد الخبر) والوجه الآخر (مبتدأ مؤخر وخبر مقدم) فى حالة أفراد كل منهما واعتماده على نفى أو استفهام .

ويقول الزمخشري عن هذه الآية «وقدم الخبر على المبتدأ في قوله (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم) ؛ لأنه كان أهم عنده، وهو عنده أعنى ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لـ رغبتة عن آلهته ، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه»(١).

ولكن أبا حيان يبين أن المختار في إعراب «أراغب أنت» أن يكون «راغب» مبتدأ ، لأنه قد اعتمد على أداة الاستفهام و«أنت» فاعل سد مسد الخبر ، ويقول في ترجيح هذا الإعراب : «ويترجح هذا الإعراب على ما أعربته الزمخشري من كون «أراغب» خبراً و«أنت» مبتدأ بوجهين :

أحدهما : أنه لا يكون فيه تقديم ولاتأخير، إذ رتبة الخبر أن يتأخر عن المبتدأ.

والثاني : أن لا يكون فصل بين العامل الذى هو «راغب» وبين معموله الذى هو «عن آلهتى» بما ليس بمعمول للعامل ، لأن

الخبر ليس هو عاملاً في المبتدأ بخلاف كون «أنت» فاعلاً فإنه معمول (أراغب) فلم يفسصل بين (أراغب) وبين «عن آلهتى» بأجنى ، إنما فصل بمعمول له»(٢).

إذن أمامنا اتجاهان في إعراب مثل هذا التركيب ، ومن الواضح أن اتجاه الزمخشري - ومعه الكوفيون وابن الحاجب - قائم على فهم النص في سياقه وملابساته ويرتب عليه معنى لطيفاً يدرك من خلال تركيبه ، ولذلك أميل إلى هذا الاتجاه وأدعو إلى تعميمه في كل نظائره فكل وصف مفرد بعده اسم مفرد يكون الوصف فيه خبراً مقدماً والاسم التالى له مبتدأ مؤخرًا .

وأما الترجيح الذى قدمه أبو حيان لإعراب هذه الآية على النحو الذى أعربها به ، فإنه ترجيح قائم على أساس قواعد وضعها النحاة أنفسهم ، وهى غير مسلمة عند الجميع ، وأبو حيان لا يراعى فى ترجيحه إلا هذه القواعد فحسب دون النظر إلى النكتة اللطيفة التى يتضمنها

(١) الزمخشري ، الكشاف ٤١٣/٣

(٢) أبو حيان ، البحر المحيط ١٩٥/٦ وانظر له أيضا : النهر الماد بهامش البحر المحيط ١٩٢/٦ وانظر أيضا بهامشه بدر اللقيط لتاج الدين الحنفى ١٩٤/٦ .

توجيه الزمخشري الذي نظر للآية نظرة بلاغية يقتضيها سياق الآية وملازمات الموقف .

وما أسمىه هنا بالجملة الاسمية التامة يسميه النحاة بالمبتدأ الذي له خبر. والجملة الاسمية التامة تفترق عن غيرها في أمور : أولها- أن المبتدأ فيها - وهو المسند إليه-

يكون اسما صريحا نحو «الله ربنا» و«محمد نبينا» ومؤولا بالاسم الصريح نحو «وأن تصوموا خيرا لكم»^(١) أى «وصيامكم خيرا لكم» ف (أن تصوموا) مؤول ب«صيامكم» .

ثانيها- أن المبتدأ فى الجملة الاسمية التامة لا يحتاج إلى شئ يعتمد عليه ، وأما الوصف مع مرفوعه فلا بد أن يعتمد على نفي أو استفهام.^(٢) فى رأى كثرة النحاة .

ثالثها - أن الجملة الاسمية التامة يجوز أن تدخل عليها

النواسخ المختلفة ، على خلاف جملة الوصف مع مرفوعه التى لا تقبل من النواسخ إلا ما يفيد النفى^(٣) فحسب بخلاف الجملة الاسمية المجزوءة التى لا تقبل النواسخ مطلقا^(٤) .

رابعها- أن الجملة الاسمية التامة يجوز فيها أن يتقدم الخبر على المبتدأ إلا إذا طرأ على التركيب ما يمنع ذلك ، على خلاف جملة الوصف مع مرفوعه .

وتتألف الجملة الاسمية التامة من المبتدأ والخبر . والمبتدأ لابد أن يكون اسما صريحا أو مؤولا بالاسم . وأما الخبر فلا بد أن يكون واحدا مما يأتى :

١ - الوصف : والمقصود به اسم الفاعل أو اسم المفعول أو الصفة المشبهة أو صيغة المبالغة أو اسم التفضيل ، وبعبارة أكثر اختصارا يقال إن الوصف هو ما أخذ من الفعل للدلالة على حدث وصاحبه . فكلمة (كاتب) مثلا تدل على أمرين : الكتابة ، والذات التى اتصفت بها ،

(١) البقرة ، الآية ١٨٤ (٢) انظر شرح شذور الذهب لابن هشام ١٨٠ (٣) انظر شرح الكافية للرضى ٢٩٧/٢

(٤) انظر شرح الكافية ٨٧/١ والأخفش والفراء يجيزان : إن قائما الزيدان . والكوفيون يجيزون هذه ويجيزون أيضا : ظننت قائما الزيدان . وكلاهما بعيد عن القياس على حد تعبير الرضى .

وكلمة (مضروب)- وهي اسم مفعول-
تدل أيضا على شيئين : الضرب - وهو
الحدث- والشخص أو الذات التي اتصفت
بوقوع الضرب عليها ، وهكذا كل مشتق
من الفعل على هذ النحو . والإخبار
بالوصف هو الأكثر .

٢ - الاسم الذى فى قوة
الوصف - على حد تعبير
النحاة- وهو الاسم الذى يؤدى
ما يؤديه الوصف ، أى ينقل إلى
الوصفية ، وذلك كقولك : « محمدٌ أسدٌ »
ف (أسد) اسم جامد ولكن معناه هنا
«شجاع» ، وإذا قلت «هذا زيد» ف«زيد»
هنا اسم جامد ، ولكن معناه «صاحب
هذا الاسم» وإذا قلت «محمد ذو خلق»
ف (ذو) اسم جامد ولكن معناه «صاحب
خلق» وهكذا .

٣ - الجملة ، سواء أكانت جملة اسمية
أم فعلية .

٤ - شبه الجملة (الظرف والجار
والمجرور) .

والمبتدأ - إذا كان معربا - لابد أن يكون
مرفوعا بعلامة الرفع المعروفة له (الضمة)

(١) الفجر ، الآية ١٥ (٢) البقرة ، الآية ١٨٤ .

إذا لم يكن مما يرفع غيرها ، أو (الواو)
أو (الألف) ، وتقدر عليه الضمة فى
المواضع الآتية :

١ - إذا كان المبتدأ مفردا مضافا إلى ياء
المتكلم مثل «ربى أكرمَن»^(١) .

٢ - إذا كان المبتدأ اسما مقصوراً مثل :
« الهُدَى هُدَى الله » .

٣ - إذا كان المبتدأ اسما منقوصا مثل :
« القاضى عادل » .

٤ - إذا كان مصدرا مؤولا مثل «وَأَنْ
تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ»^(٢) .

٥ - إذا كان اسما منقولا عن جملة مثل :
«تَابَطَ شَرًّا شَاعِرٌ قَدِيمٌ» .

٦- إذا كان المبتدأ مجرورا بحرف الجر
الزائد مثل قولهم «بِحَسْبِكَ دِرْهَمٌ» .

ولست أرى رأى من يقول - كابن
خالويه - إن المضاف إلى ياء المتكلم
لا علامة فيه لأن الياء تذهب بالعلامة ،
ولا رأى من يقول إن الاسم المنقوص
والمقصور لا علامة فيه ، ولا رأى من يقول
إن المضاف إلى ياء المتكلم مبنى^(٣)؛ لأن كل
وظيفة نحوية لابد لها من علامة إعرابية
تخصها وتعرف بها ، ولأن كل اسم من

(٣) أنظر إعراب ثلاثين سره لابن خالويه : ٧٩ ، وشرح الرضى للكافية/١/٣٥ . ولست أميل مع الرضى إلى أن المضاف

إلى ياء المتكلم مبنى لأن مسلك العربية مع المبنيات أنها لاتضاف ، ولكن هذا مضاف إلى ياء المتكلم يمكن وصفه .

هذه إذا أتبع باسم آخر تظهر عليه العلامة الإعرابية كان مرفوعا ، فليست العلامة في الحقيقة للاسم من حيث هو اسم ولكنها للموقع الذي يكون فيه ، ولهذا السبب نفسه يكون المبتدأ ، إذا كان اسما مبنيا ، في محل رفع . وبذلك يكون المصطلح «مبتدأ» ملخصا لأمورة كثيرة منها الرفع ، والرتبة لأن المبتدأ لا يكون إلا مرفوعا مقدما إلا إذا طرأ على التركيب ما يستدعى تأخيره ، ومنها الصيغة لأن المبتدأ لا يكون إلا اسما أو مافى تأويله ، ومنها التعيين (التعريف والتنكير) لأن المبتدأ لا يكون إلا معرفة أو مافى حكمها وهو النكرة المخصصة .

وما ينطبق على المبتدأ من حيث العلامة الإعرابية ينطبق أيضا على الخبر غير أن الخبر يفترق عن المبتدأ في أنه من الممكن أن يكون جملة فتكون في محل رفع ، أو شبه جملة فتكون بحسب متعلقها على التفصيل الذي توردته كتب النحو .

٢ - الجملة الاسمية الجزوءة :

لم يتناول النحاة هذا النوع من الجمل

على الوجه الذي أحب أن أتناولها به ، ولكنهم - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - لا يقرون بوجود الجملة إلا إذا كان هناك إسناد بطرفيه (المبتدأ والخبر) ، وهناك بعض التراكيب لم يكتمل لها هذان الطرفان ، بل وجد طرف واحد فقط ولم يمكن في التعبير المستعمل أن يظهر الطرف الآخر مطلقا ، ومع ذلك نجد كثيرا من النحاة لا يعترف بهذا ، ويصر على اعتبار طرف آخر ، ويرى أنه محذوف «وجوبا» ومعنى الحذف الواجب أنه لا يمكن أن يظهر على الإطلاق بل إن ظهوره في بعض هذه التراكيب قد يخل بالمعنى المقصود ويذهب به .

ونحن لا نعيب على نحائنا هذا المسلك ، فهم قد أرادوا الأطراد لنظامهم الذي وضعوه لتحليل اللغة وفهم تراكيبها ، وقد يكونون في كثير مما ذهبوا إليه على حق ، ولكننا نسمح لأنفسنا أيضا أن نعيد النظر فيما قدموا إلينا ، وبطبيعة الحال لن نغير اللغة نفسها ، فليس هذا في وسع أحد ، ولكن الذي نود تغييره بعض هذه النظرات الخاصة بتحليل بعض التراكيب ،

وليست مخالفتهم في ذلك خروجاً
أومروقاً على إجماعهم يوجب العذل
واللوم ، وإجماعهم لا يلزم أحدًا باتباعهم
فإن «إجماع النحويين ليس بحجة على من
خالفهم»^(١) كما يقول ابن مضاء ، وقد قال
أبو الفتح ابن جنى من قبله « اعلم أن
إجماع أهل البلدين (يعنى أهل البصرة
وأهل الكوفة) إنما يكون حجة إذا أعطاك
خصمك يده إلا يخالف المنصوص
والمقيس على المنصوص ، فأما إن لم يعط
يده بذلك فلا يكون إجماعهم حجة عليه ،
وذلك أنه لم يرد ممن يُطاع أمره في قرآن
ولا سنة أنهم لا يجتمعون على الخطأ ،
كما جاء النص عن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - من قوله : « أمتي لا تجتمع
على ضلالة » وإنما هو علم متزع من
استقراء هذه اللغة ، فكل من فُرِقَ له عن
علةٍ صحيحة وطريقٍ نهجَةٍ كان خليل نفسه
وأبا عمرو فكره»^(٢) .

إننا نرى أن المعول كله على إفادة
المعنى ، فإذا كان التركيب مفيداً لمعنى يحسن
السكوت عليه ، فلا داعى لتكلف البحث
عن طرفى الإسناد ، ومعنى هذا أننا ننظر

إلى هذه التراكيب على أنها جمل مفيدة ، وإن
لم يتحقق لها اكتمال طرفى الإسناد . إذن
مانعنيه بالجمل الاسمية المجزوءة هو الجمل
التي أفادت معنى يحسن السكوت عليه من
غير أن يكون موجوداً فى التركيب إلا اسم
واحد مرفوع ، وقد تناولها النحاة من قبل
على أن بعضها قد حذف منه الخبر ،
وبعضها الآخر قد حذف منه المبتدأ ، وسوف
أعرضها أولاً كما عرضها النحاة ثم أعقب
عليها بما أرتثيه فيها من رأى :

يقول النحاة : يجب حذف الخبر
وجوباً فى أربعة مواضع هى على النحو
الآتى :

١- إذا وقع المبتدأ بعد «لولا» الامتناعية
وكان الخبر كونا عاماً مثل «لولا أنتم لكنا
مؤمنين»^(٢) .

٢- إذا كان المبتدأ نصاً فى اليمين مثل
« لعمر ك إنهم لفى سكرتهم يعمهون»^(٣) .

٣- إذا وقع بعد المبتدأ واو هى نصٌ
فى العطف والمعية مثل «كلُّ رجلٍ
وضيعته» .

٤- إذا كان المبتدأ مصدراً أو اسم
تفضيل مضافاً إلى مصدر بعده حال تسد

(١) الرد على النحاة لابن مضاء : ٧٤ (ط دار الاعتصام) .
(٢) الخصائص لابن جنى ١/ ١٨٩ ، ١٩٠ (ط دار الكتب) .
(٣) سورة سبأ ، الآية ٣١ . (٤) سورة الحجر ، الآية ٧٢ .

مسد الخبر ولا تصلح أن تكون هي الخبر
مثل «ضربى العبد مسيتاً»، و«أكثر ضربي
العبد مسيتاً»

كما يجب حذف المبتدأ في مواضع
هي:

١ - إذا كان الخبر نعتاً مقطوعاً للرفع
مثل «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»
يرفع الرجيم .

٢ - إذا كان الخبر مخصوصاً بالمدح
أو بالذم مثل «نعم الرجل أبو بكر».

٣ - إذا كان الخبر صريحاً في القسم
مثل «في ذمتي لأحجن إلى بيت الله» .

٤ - إذا كان الخبر مصدراً نائباً مناب
فعله مثل «فصبرٌ جميلٌ» (١) .

بعد عرض هذه المواضع على الوجه
الذي قرره النحاة - أود أن أعرض ما أراه
في علاج هذه التراكيب المختلفة ، ولن
أبعد - في الوقت نفسه - عما يراه بعض
النحاة ، وسيرى أنني أهدى ببعض هذه
الآراء ، وأول ما أراه في ذلك أن ما يسمى
بالنعت المقطوع للرفع ينبغي أن نخرجه من
إطار الجملة المجزوءة ، لأن هذا لا يعدو

(١) سورة يوسف ، الآية ١٨

أن يكون مخالفة في الإعراب أو ترخصاً
فيه من أجل إثارة الانتباه ولفت النظر
للسامع بوسيلة صوتية لعلها تصدم أذنه
ومألوفه اللغوي فيلتفت إلى ما يقال بهدف
تأكيد هذه الصفة ، وذلك أن قطع النعت
مخالفته للمنعوت بالرفع إن كان المنعوت
منصوباً أو مجروراً ، وبالنصب إن كان
المنعوت مجروراً أو مرفوعاً ، ولا يخرج
في الوقت نفسه عن كونه «نعتاً» فإذا قلنا :
«رأيت محمداً العاقل» ونطقنا كلمة
«العاقل» مرفوعة فإن النحاة - كما سبق -
لا يرضيهم أن تكون هذه الكلمة مرفوعة
دون أن تكون في وظيفة نحوية تستحق
الرفع ولذلك قالوا إنها خبر لمبتدأ محذوف
تقديره «هو» وهذه لا يمكن أن تظهر على
الإطلاق ، وما قالوه هنا يتفق في غايته مع
ما نراه من إرادة توكيد صفة العقل في
الجملة السالفة ولكن عن طريق افتراض
جملة تؤكد هذه الصفة . وأرى أنه يكفي
في إعراب هذه الكلمة «العاقل» بالرفع هي
وأمثالها أن نقول إنها نعت مقطوع للرفع
فحسب دون أن نتكلف القول بأن هناك
مبتدأ محذوف وجوباً ، ففي هذا تعويض .

للمسائل، وهنا يجب أن نقول في تحليل النعت إنه يتبع منعوته ، وقد يرفع وقد ينصب لإرادة تأكيد الصفة المذكورة فهناك نعت مقطوع للرفع ، ونعت مقطوع للنصب .

ويجب أن نُخرج من إطار الجملة المجزوءة كذلك ما أورده النحاة في حذف الخبر وجوبا في أسلوب القسم مثل «لعمرك لأفعلن» وما أورده في حذف المبتدأ وجوبا كذلك مثل «في ذمتي لأفعلن» لأنني أرى أن أسلوب القسم يجب أن يعالج منفصلا تحت نوع خاص من الجمل يسمى بالأساليب الخاصة ، وكذلك أسلوب المدح والذم لأن هذه تراكيب خاصة تلزم طريقا واحدا في التعبير .

وفي تحليل أسلوب «لعمرك» يكفى أن نقول إن اللام للقسم وعمرك مقسم به مرفوع والكاف في محل جر ، وبعد ذلك تعرب جملة جواب القسم ، ولاداعي لأن نتكلف خبرا محذوفا وجوبا ، لأن الذي دفع نحاتنا القدماء إلى تكلف هذا أنهم لم يعترفوا بوجود ما يسمى بالجملة المجزوءة .

وأما أسلوب «في ذمتي لأجتهدن» مثلا فلا أرى بأسا على الإطلاق - برغم أن

النحاة يمنعون هذا - من أن يكون الجار والمجرور «في ذمتي» بغير متعلق ، لإفادة القسم ، ثم هي بعد ذلك عبارات محدودة جدا .

وأما أسلوب المدح والذم فإن النحاة لا يدخلونه في الجملة الاسمية المحذوف أحد طرفيها وجوبا - وهو المبتدأ- إلا إذا كان المخصوص بالمدح أو بالذم مؤخرا مثل «نعم الخلق الصدق» و«بئس الخلق الكذب» وكذلك «نعم خلقا الصدق» و«بئس خلقا الكذب» فإن كلاً من «الصدق» و«الكذب» تعربان إما مبتدأ والجملة قبله في محل رفع خبر مقدم ، وعلى هذا الوجه لا حذف في التركيب ، والتركيب بهذا الاعتبار جملة اسمية تامة ، وإما أن يعربا خبرا لمبتدأ محذوف تقديره «هو» وهو محذوف وجوبا في رأيهم .

وقبل تحليل هذا الأسلوب على الوجه الذي نرتضيه أشير إلى أنه كثيرا ما تكتفى أداة المدح (نعم) أو الذم (بئس) أو (ساء) بالاسم المرفوع بعدها أو بالتمييز وهذا هو الاستعمال القرآني فقد وردت هاتان الجملتان في القرآن الكريم إحدى وثمانين مرة^(١) موزعة على «نعم» و«بئس»

(١) يمكن مراجعة هذه الآيات في سورها مستعينا بالمعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم في مواد نعم وبئس وساء ص

و«ساء» ولم يرد من جميع هذه الجمل إلا أربع جمل فقط بها ما يسمى بالمخصوص بالذم ، وهذه الجمل هي «بئس الوردُ المورودُ»^(١) و«بئس الرقدُ المرفودُ»^(٢) و«بئس الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإيمانِ»^(٣) و«ساء مثلاً القومُ الذين كذبوا بآياتنا»^(٤).

وأود أن أشير أيضا إلى أنه عندما يكون المخصوص بالمدح أو بالذم مقدما ويعرب مبتدأ لا تكون جملة الخبر محتاجة إلى رابط يربطها بالمبتدأ من تلك الروابط اللفظية لوجود العموم فيه الذي يندرج تحته المبتدأ ، فكأن المبتدأ قد تكرر بنفسه ، يقول سيويه «وأعلم أنه محال أن تقول : عبد الله نعم الرجل ، والرجل غير عبد الله ، كما أنه محال أن تقول : عبد الله هو فيها ، وهو غيره»^(٥) فتطابق المخصوص بالمدح أو بالذم مع الاسم المرفوع بعد أداة المدح أو الذم كتطابق الاسم مع ضميره عند سيويه ، وعند المبرد أيضا^(٦).

وعندما يكون المخصوص بالمدح أو بالذم مقديما لا يختلف النحاة في إعرابه مبتدأ خبره الجملة بعده ، ولكنهم يختلفون عندما يؤخر ،

فمنهم من يعربه مبتدأ ، ومنهم من يعربه خبرا لمبتدأ محذوف وجوبا ، ومنهم من يعربه بدلا من فاعل نعم أو بئس ، ومنهم من يعربه مبتدأ خبره محذوف وجوبا^(٧). وهذا الاختلاف بطبيعة الحال يشير إلى الاضطراب في تفسير هذا التركيب وتحليله .

والذي نخلص إليه من كل هذا أننا لا نرى فعلية كل من نعم وبئس وما يؤدي معنى المدح أو الذم مثلهما ، بل هي أدوات لإفادة المدح أو الذم ، وكل أداة من هذه الأدوات تضام اسما مرفوعا ولا يليها إلا إذا كان معرفا بال أو مضافا إلى ما هو معرف بأداة التعريف (ال) مثل : «نعم الخلقُ الصدقُ» أو «نعم خلقُ المؤمنِ الصدقُ» ويكون تحليل هذه الجملة على

الوجه الآتي :

نعم : أداة مدح .

الخلق : ضميمة أداة المدح ، مرفوع .

الصدق : بدل من (الخلق) .

وقد رأى هذا الرأي من قبل ابن كيسان إذ ذهب إلى أن المخصوص بالمدح في حالة تأخيره يعرب بدلا من المرفوع قبله ، وكذلك أبو علي الفارسي وابن السراج

(١) سورة هود آية ٩٨ (٢) سورة هود آية ٩٩ (٣) سورة الحجرات آية ١١ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٧٧ (٥) كتاب سيويه ١٧٧/٢ (٦) انظر المقتضب ١٤٩/٢ .

(٧) انظر هذا الخلاف في الأشموني ٣٧/٣ وانظر خلافاً أخرى في صفحة ٣٣ من الجزء نفسه وانظر الهمع ٨٧/٢ .

وأشار الأشموني إلى أن ابن مالك يجيز هذا في شرح التسهيل .

وقد أخذ على هذا الرأي امران :

أولهما : أن هذا المخصوص لازم وليس البديل بلازم بل قد يؤتى به أو لا يؤتى به .

ثانيهما : أن هذا المخصوص لا يصلح لمباشرة أداة المدح في كثير من أمثله فإذا قلت : نعم الرجل محمد فلا يمكنك أن تقول : « نعم محمد » .

ونقل السيوطي الرد على الاعتراض الثاني وهو أنه يجوز أن يقع بدلا ما لايجوز أن يلي العامل بدليل «إنك أنت»^(١) حيث تعرب «أنت» بدلا من الكاف ولا يصح أن يقال «إن أنت» .

وقد نقل الصبان ردا على الاعتراض الأول فقال : قد يقال لا مانع من كونه لازما لكونه مقصورا ، وكونه تابعا لايقدم في اللزوم كتاب مجرور(رب)^(٢) .

وقد تُسبق ضميمة أداة المدح أو الذم باسم نكرة يعرب تمييزا مثل : « نعم رجلاً محمد » ويكون تحليل هذه الجملة على الوجه الآتي :

نعم : أداة مدح .

رجلا : تمييز منصوب .

محمد : ضميمة أداة المدح ، مرفوع .
ويؤيد إعراب (محمد) ضميمة لأداة المدح (نعم) أن الكسائي والفراء يذهبان إلى أن (محمد) في مثل هذا التركيب تعرب فاعلا لـ (نعم) ، ولكننا لا نرى فعلية نعم ويثنى ولذلك فليس لها فاعل ، ولكنها أداة تحتاج إلى ضميمة معينة ، وقد تحذف الضميمة المرفوعة ويكتفى بذكر التمييز المنصوب في التركيب الأخير .

بعد هذا يبقى من المواضع الثمانية التي عولجت في النحو القديم على أنها جمل اسمية تامة حذف أحد جزأها أربعة مواضع فحسب هي التي نعدها من الجمل الاسمية المجزوءة وهي كل تركيب أفاد معنى يحسن السكوت عليه من غير أن يتحقق فيه ركنا الإسناد .

إن الإيمان بالشكل اللغوي سوف يغنيننا عن كثير من الخلافات والتعسف وتكلف التأويل ، فعندما نعتد بالجملة المجزوءة قسما من أقسام الجملة نجد أنفسنا في غير حاجة إلى كثير من التأويلات البعيدة التي يرفضها الواقع اللغوي ، وبذلك نطبق ما نراه من أن الجملة الاسمية المطلقة خالية من نظرية العامل .

(٢) حاشية الصبان ٣٧/٣

(١) انظر الهمع ٨٧/٢

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن بعض النحاة القدماء يعترفون بالمبتدأ الذي لا خبر له ، وفي الوقت نفسه لا يجيزون حذف الخبر وجوبا إلا إذا كان هناك في التركيب ما يسد مسده ، ففي حالة الاسم المرفوع المعطوف عليه اسم آخر بواو تفيد معنى (مع) ذهب الأخفش والكوفيون وابن خروف وابن عصفور إلى أنه كلام تام لا يحتاج إلى تقدير مثل «كلُّ رجلٍ وَضِيعَتُهُ» وفي مثل «حَسْبُكَ يَنْمُ النَّاسُ» قيل عن حسبك: هو مبتدأ لا خبر له لأنه بمعنى «اكفف» واختاره ابن طاهر^(١) وقد ذهب الفراء إلى أن الاسم الواقع بعد «لولا» ليس مبتدأ بل مرفوع بها لاستغنائها بها كما يرتفع الفاعل بالفعل^(٢) .

فهذه إشارات نجد فيها سندا لدعوى وجود ما يسمى بالجملة الجزوءة ويقول المرحوم إبراهيم مصطفى «والذي عَوَّصَ الأمر على النحاة ما قرروه من أن كل جملة يجب أن تشمل مبتدأ وخبرا أو فعلا وفاعلا ولم يعرفوا الجملة الناقصة»^(٣) .

وينبغي أن نعيد النظر في تحليل ما

نسميه الجملة الجزوءة ، ولا بأس أن نضع مصطلحات خاصة تعين على تخلص هذه الجمل الجزوءة مما ألصقت به وحسبت عليه من قبل ، ولن نطلق على الاسم المرفوع في هذه الجملة الجزوءة «مبتدأ» لأنهم قالوا في تعريف المبتدأ إنه اسم مخبر عنه ، وهذه النماذج لا خبر فيها مطلقا .

أولا : الاسم المصاحب وهو الاسم المرفوع المعطوف عليه اسم آخر بواو هي نص في المعية مثل : كلُّ رجلٍ وَضِيعَتُهُ .

ومن المعروف أن النحاة يقدرّون خبراً محذوفا وجوبا تقديره «مقترنان» ولا نرى هذا التقدير ، لأن الجملة مفيدة من غير هذا التقدير ، ويكفى في إعرابها أن نقول :

كل : اسم مرفوع مصاحب (بفتح الحاء أو بكسرها) .

رجل : مضاف إليه .

الواو : عاطفة بمعنى مع .

ضيعة : معطوف على «كل» والهاء في محل جر مضاف إليه .

ومن الواضح أن الضمير هنا يربط بين الاسمين مع العطف .

(١) انظر الهمع ١/١٠٥ (٢) السابق نفسه (٥) إحياء النحو: ١٤٢

وقد ذهب الكوفيون والأخفش إلى أن « نحو: كلُّ رجلٍ وضيعته ، مستَغْنٍ عن تقدير خبر لأن معناه : مع ضيعته ، فكما أنك لو جئت بمع موضع الواو لم تحتج إلى مزيد عليها ، وعلى ما يليها في حصول الفائدة ، كذلك لا تحتاج إليه مع الواو ومصحوبها،^(١) وقد اختار هذا المذهب ابن عصفور ورأى أن هذا كلام تام لا يحتاج إلى خبر^(٢) وعبارة السيوطي نقلا عن الكوفيين أن الخبر لم يحذف وإنما أغنت عنه الواو^(٣)، وأشار أيضا إلى أن ابن خروف اختار هذا المذهب .

ونحن نرى أنه لا يصح أن يوجد مبتدأ بدون خبر ، فإذا كان هذا التركيب في غير حاجة إلى الخبر فلا داعي للقول بأن الاسم الموجود مبتدأ لأن هذا يدفع إلى تقدير خبر واعتقاد أنه محذوف ، ويكفي أن نقول في إعرابه: « اسم مرفوع مصاحب » ومصاحب بصيغة اسم الفاعل أى بكسر الحاء أو بصيغة اسم المفعول أى بفتح الحاء

أيهما شئت لأنه من المفاعلة وما صاحب فقد صوحب .

ثانيا : المصدر المضاف الواقع بعده حال لا تصلح أن تكون خبرا ، وكذلك « أفعل » إذا أضيف إليه هذا المصدر ، وقد مثل له النحاة بقولهم : « ضَرَبَ رِيْدًا قَائِمًا » و« أتمُّ تبييني الحقَّ منوطًا بالحكم » ومثل له الأشموني بقوله صلى الله عليه وسلم: « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »^(٤) ومن ذلك في الشعر قول رؤبة بن العجاج^(٥) :

وَرَأَى عَيْنِي الْفَتَى أَبَاكَ

يُعْطِي الْجَزِيلَ فَعَلَيْكَ ذَاكَ

وقول الأعشى^(٦) :

عَهْدِي بِهَا فِي الْحَى قَدْ سُرِبَلَتْ

بِيضَاءَ مِثْلِ الْمَهْرَةِ الضَّامِرِ

وقول الآخر^(٧) :

خَيْرُ اقْتِرَابِي مِنَ الْمَوْلَى حَلِيفَ رَضًا

وَشَرُّ بَعْدِي عَنْهُ وَهُوَ غَضْبَانٌ

(١) الأشموني ٢١٧/١

(٣) الهمع ١٠٥/١

(٥) الدرر اللوامع للشنقيطي ٧٧/١ .

(٧) السابق

(٢) إنظر شرح ابن عقيل ١٠٧/١

(٤) الأشموني ٢١٩ / ١

(٦) الدرر اللوامع للشنقيطي ٧٧/١

وقد اختلف النحاة فى تحليل هذا التركيب اختلافا غير يسير ، ولذلك يقول السيوطى «وهذه المسألة طويلة الذبول كثيرة الخلاف ، وقد أفردتها قديما بتأليف مستقل^(١)» وحتى لانقع فى مثل هذا الخلاف أرى أن نكتفى فى تحليل هذا التركيب (ضربى زيدا قائما) بما يأتى :

ضربى : مصدر فعلى^(٢) مضاف والياء فى محل جر مضاف إليه .

زيدا : مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة .

قائما : حال منصوب .

وهناك كثير من النحاة قالوا عن هذا المصدر إنه «لاخير له»^(٣) .

فإذا كان لاخير له فليس مبتدا ، لأن المبتدا هو ما له خبر فى رأينا .

ثالثا : المصدر الذى يؤتى به بدلا من اللفظ بفعله سواء أكان يقصد به الخير أم الإنشاء ، وسواء أكان مرفوعا أم منصوبا مثل :

«سمع وطاعة» و «صبر جميل» والمصادر التى يدعى بها وذلك قولك : تُربا وجندلا وما أشبه هذا^(٤) ، ومن ذلك قولهم

«مرحبا وأهلا وإن تأتنى فأهل الليل والنهار» ، وزعم الخليل رحمه الله - حين مثله أنه بمنزلة رجل رأته قد سدد سهمه فقلت : «القرطاس» أى أنت عندى ممن سيصيه وإنما رأيت رجلا قاصدا إلى مكان أو طالبا أمرا فقلت : مرحبا وأهلا ، أى أدركت ذلك وأصبت فحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه فكأنه صار بدلا من «رحبت بلادك وأهلكت»^(٥) ويقصد سيويوه وأستاذه الخليل بهذا أن دلالة الحال المشاهدة وملابسات الموقف اللغوى أغنت عن ذكر الفعل ، فصار حذفه من الكلام ضروريا ، لأن ذكره يعد فضولا من القول ولغوا ، ونحن نوافقهما على هذا ، ونزيد عليه أن هذا المحذوف المرفوض لا اعتداد به ، إذ إن دلالة الكلام المذكور كافية فى إفادة المعنى ومغنية عما سواه .

ويكفى فى تحليل هذا النوع من الجمل المجزوءة أن نقول فى مثل : «صبر جميل» مصدر مرفوع إذا كان مرفوعا أو مصدر منصوب إذا كان منصوبا ، وقد ذكر سيويوه أن هذه المصادر قد ترفع يقول : «ومنهم من يرفع» ويقول «وقد رفعه بعض

(١) الهمع ١٠٥/١ (٢) المقصود بكلمة «فعلى» أن المصدر يعمل عمل فعله فى هذا التركيب

(٣) انظر الهمع ١٠٥ / ١ (٤) انظر سيوية ٣١٤ / ١ (بولاق) (٥) سيويوه ٢٩٥ / ١ (بولاق)

العرب» وقد أفاض سيبويه في ذكر نماذج كثيرة لهذه المصادر ونقل الرفع فيها والنصب كذلك ما عدا المصادر المضافة مثل : سبحان الله ومعاذ الله وحنانك وليك وسعديك فليس فيها إلا النصب ، وقد نص على أن معنى الرفع من هذا هو معنى المنصوب «وفيه المعنى الذى يكون فى المنصوب»^(١) ولذلك قال المبرد عن هذه المصادر «كل هذا معناه فى النصب ومعناه فى الرفع واحد»^(٢) ويقول ابن يعيش «ألا ترى أنك إذا قلت : سلام عليك وويل له بالرفع كان معناه كمعناه منصوبا»^(٣).

رابعاً : الاسم المرفوع الواقع بعد لولا الامتناعية على شريطة أن تفيد مع هذا الاسم معنى مستقلاً مثل قوله تعالى « ولولا فضل الله عليكم ورحمته»^(٤) ويعرب على أنه اسم مرفوع بعد لولا وكفى ، وهذا هو مذهب الفراء^(٥) والكوفيين الذين يرون أن (لولا) ترفع الاسم بعدها وقد ناصرهم فى هذا رأى

وظاهرهم عليه ابن الأنبارى وتصدى لتفنيده آراء البصريين^(٦).

وأما لولا الامتناعية التى لا تستقل مع الاسم المرفوع بعدها بمعنى مستقل فليست من الجمل المجزوءة ، بل هى من الجمل الاسمية التامة ولكن ليس خبر المبتدأ بعدها محذوفاً وجوباً كما يرى كثير من النحاة بل إن خبرها مذكور وهو ما يسمى جواب «لولا» وبهذا تتجاوز كثيراً من الخلافات ، وما ذهبنا إليه هو رأى ابن الطراوة الذى يرى أن جواب لولا أبداً هو خبر المبتدأ ولم يرض رأيه هذا ابن هشام فصدره بقوله : وزعم ابن الطراوة ، ولكن السيوطى يعطى له ما يستحق فيقول : «وذهب قوم إلى أن الخبر بعد لولا غير مقدر وأنه الجواب ، وإن كان البصريون يرون أنه لا يصح أن يكون الخبر لخلوه غالباً من العائد ، مع هذا يرون أنه سد مسد الخبر . (٧) ولا بأس فى هذا لاختلاف لولا عن جميع أدوات الشرط فى أنها لا يليها فعل .

(١) سيبويه ٣١٤/١ (٢) المقتضب للمبرد ٢١٧ /٣ (٣) شرح المفصل لابن يعيش ٩٣/١
(٤) سورة النور فى الآيتين ٢٠٠، ١٠ (٥) انظر شرح الرضى على الكافية ١٠٤/١ .
(٦) انظر المسألة رقم ١٠ من الإنصاف ٧٠/١ (تحقيق محمد محبى الدين عبدالحميد) .
(٧) انظر : سيبويه ١٩٢ /٢ والمقتضب ٧٦ /٣ والإنصاف : ٥٢ والمغنى ٢١٥/١ والهمع ١٠٥ /١
(٨) انظر شرح الرضى على الكافية ١٠٤ /١ والهمع ١٠٥ /١ .

٣ - جملة الوصف مع مرفوعه :

يُدرج النحاة مثل هذا التركيب : «أقائم بالمحمدان» تحت الجملة الاسمية التامة، وعند تحليله يقولون إن الهمزة للاستفهام و«قائم» مبتدأ مرفوع و«المحمدان» فاعل سد مسد الخبر ، ويقولون مثل هذا في نحو «أحى والداك»^(١) وكذلك في مثل «أمحمود أخواك؟» غير أنهم يعربون كلمة «أخواك» نائب فاعل في المثال الأخير ، ويرون أن الاسم المشتق في هذا التركيب يؤدي ما يؤديه الفعل يقول ابن يعيش «واعلم أن قولهم «أقائم الزيدان ؟» إنما أفاد نظراً إلى المعنى إذ المعنى «أيقوم الزيدان؟» فتم الكلام لأنه فعل وفاعل ، وقائم هنا اسم من جهة اللفظ وفعل من جهة المعنى ، فلما كان الكلام تاماً من جهة المعنى أرادوا إصلاح اللفظ فقالوا أقائم مبتدأ والزيدان مرتفع به وقد سد مسد الخبر من حيث إن الكلام تم به ولم يكن ثم خبرٌ محذوف على الحقيقة»^(٢).

ومعنى هذا أن هذه الجملة تتألف إما من (مبتدأ وفاعل) أو من (مبتدأ ونائب

فاعل) وهم يقولون إن الإسناد بطرفيه هو الذي تنعقد به الجملة ، وطرفا الإسناد إما أن يكونا المبتدأ والخبر في الجمل الاسمية التامة أو أن يكونا الفعل والفاعل في الجمل الفعلية التامة أو الفعل ونائب الفاعل . وكل من المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل يعد مسنداً إليه في جملته .

إذن جملة «أقائم المحمدان ؟» تتألف من «مسند إليه + مسند إليه» وأحدهما من الجملة الاسمية والآخر من الجملة الفعلية ، أي أخذت المسند إليه من الجملتين . وهذا وضع غريب في تركيب هذه الجملة ، وهذا ما دعانا إلى إفرادها بمعالجة خاصة .

وينبغي أن يسمى هذا التركيب «الجملة الوصفية» جرياً على عادة النحاة في نسبة الجمل إلى صدرها ، وصدر هذه الجملة هو الوصف ، والمقصود بالوصف : اسم الفاعل مثل قائم وناجح ومكرم (بكسر الراء) ومستخرج (بكسر الراء) ، واسم المفعول مثل مضروب ومحمود ومنصور ومكرم (بفتح الراء) ومستخرج

(١) صحيح البخارى ٧١/٤ (ط الشعب) .

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ٩٦/١ .

(بفتح الراء) والصفة المشبهة مثل كريم وحليم وقوى وشهم وشجاع ، غير أن هذه التسمية قد تلتبس بالجملة الواقعة نعتا ، ولذلك أثرنا الإبقاء على تسمية النحاة لها «الوصف مع مرفوعه» مع ملاحظة أنها يجب أن تكون مستقلة عن الجملة الاسمية التامة والمجزوءة .

والذى جعل النحاة يعدون هذا التركيب من الجملة الاسمية التامة أنهم يجعلون مصطلح «الاسم» فى العربية شاملا لأنواع مختلفة منه مع أن بعض هذه الأنواع يمكن أن يستقل بصفات خاصة ومن هذه الأنواع التى يمكن أن تستقل بصفات خاصة تفردا عن الاسم «الوصف»^(١) ولما رأى النحاة أنه يختلف عن الاسم قالوا إن له مرفوعا أغنى عن الخبر ، وراعوا ذلك فى تعريفهم للمبتدأ حيث عطفوا بـ (أو) عليه «الوصف الرفع لما يكتفى به» وقالوا إن «أو» فى التعريف للتنويع لا للتخيير .

وهناك بعض النصوص للنحاة توحى بإدراكهم لهذه الفروق بين الوصف وغيره سأكتفى منها بنصين فقط أولهما للرضي

الذى يقول فى التعقيب على تعريف ابن الحاجب للمبتدأ الذى ذكر فى حده «أو» الصفة الواقعة بعد حرف النفى وألف الاستفهام رافعة لظاهرا ومثل لذلك بقوله : «ما قائم الزيدان وأقائم الزيدان» . يقول الرضى «هذا هو حد المبتدأ الثانى ، والنحاة تكلفوا إدخال هذا أيضا فى حد المبتدأ الأول فقالوا إن خبره محذوف لسد فاعله مسد الخبر ، وليس بشيء ، بل لم يكن لهذا المبتدأ أصلا من خبر حتى يحذف ويسد غيره مسده ، ولو تكلفت له تقدير خبر لم يتأت إذ هو فى المعنى كالفعل والفاعل لا خبر له فمن ثم تم بفاعله كلاما من بين جميع اسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة ولهذا أيضا لا يصغر ولا يوصف ولا يعرف ولا يشنى ولا يجمع^(٢)» والنص الثانى من كلام ابن هشام الذى يعقد مقارنة بين هذين النوعين من المبتدأ فيقول ضمن هذه المقارنة « ولا يكون المبتدأ المستغنى عن الخبر فى تأويل الاسم البتة ، بل ولا كل اسم بل يكون اسما هو صفة نحو «أقائم الزيدان» و «ما مضروب

(١) يفرده الدكتور تمام حسان «الصفة» بقسم مستقل ، وقد قسم الكلمة إلى سبعة أقسام بدلا من ثلاثة أقسام وهى الاسم والصفة والفعل والضمير والخوالب والظرف والأداة (انظر اللغة العربية معناها ومبناها من صفحة ٩٠ إلى ١٣٢) وانظر أيضا كتابي «العلامة الإعرابية فى الجملة» من صفحة ٦٤ إلى ٨٧ حيث ناقشت هذا التقسيم وتقسيمات أخرى (مطبوعات

. (٢) شرح الكافية للرضي ٨٦/١

جامعة الكويت ١٩٨٤ . ودار الفكر العربي ١٩٨٨

العمران» والمبتدأ المستغنى عن الخبر لا بد أن يعتمد على نفي أو استفهام^(١) :
ومن خلال هذين النصين نستطيع أن نتبين خصائص جملة الوصف مع مرفوعه ، غير أننا تلافياً للخلط بين هذا النوع وسابقه - نود ألا نقول عن الوصف هنا في تحليله إنه مبتدأ ، ويكفى في إعرابه أن نقول إذا كان اسم فاعل أو صفة مشبهة «وصف فاعل مرفوع وما بعده فاعل» وإذا كان اسم مفعول نقول «وصف مفعول وما بعده نائب فاعل» .
ومن خصائص هذه الجملة الوصفية أنه لا يتطابق فيها الوصف مع المرفوع بعده ، فيلزم الوصف الأفراد فلا يثنى ولا يجمع ، ويلزم التنكير فلا يعرف ولا يوصف أيضاً ولا يصغر ، ولا يشترط مثل هذا في «المبتدأ» . ومن أمثلة ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم «أحى» .
والسداك ؟^(٢) وقولنا : أناجح المحمدان؟ ، أناجح المحمدون ، وإذا أعربنا الجملة الأخيرة مثلاً قلنا :
الهمزة : للاستفهام .

ناجح : وصف فاعل مرفوع .
المحمدون : فاعل مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم .
فإذا ثنى الوصف أو جمع بحيث نقول أناجحان المحمدان؟ ، أو أناجحون المحمدون؟ فإن هذه تتحول إلى جملة اسمية تامة تقدم فيها الخبر وتأخر المبتدأ جوازاً .
فجملة الوصف مع مرفوعه لا تطابق بين جزأيهما ، ولذلك سبق أن اخترنا أن مثل «أراغب أنت ؟ » جملة اسمية فقط وهو ما ذهب إليه كثير من النحاة وليس الوصف فيها إلا خبراً مقدماً .
وجملة الوصف مع مرفوعه لا يدخل عليها من النواسخ إلا ما يفيد النفي وهى بذلك تختلف عن الجملة الاسمية ، ولا بد أن تسبق بنفى أو استفهام . ولا يشترط هذا في الجملة الاسمية .
الجملة الاسمية المقيدة .
وأما الجملة الاسمية المقيدة فالمراد بها كل جملة اسمية تامة قيدت بأحد المقيدات التى تسمى «النواسخ» ، وهذه النواسخ

(١) شرح شذور الذهب لابن هشام : ٢٣٠ .
(٢) صحيح البخارى ٤ / ٧١ (ط الشعب)

مقيّدات للجملة الاسمية لأنها تضيف إليها معانى لم تكن موجودة من قبل من جانب وتؤثر فى أجزائها إعرابيا من جانب آخر ، وقد تقيد الجملة بمقيّدات غير مؤثرة إعرابيا أيضا ، ولكننا لانعد المقيّدات هنا إلا ما كان له تأثير إعرابى ، والمقيّدات المؤثرة متعددة وهى على النحو الآتى :

(٢) - مقيّدات الزمن ، وهذه هى كان وأخواتها ما عدا «ليس» والمقيّدات الدالة على المقاربة تُضم هنا إلى كان وأخواتها لأنها تدل على قرب وقوع الخبر ، والقرب هنا زمنى ، وكذلك المقيّدات الدالة على الرجاء والشروع لأنها من حيث أدرتها وجدتها دالة على الزمن المرجو وقوع الخبر فيه أو الذى شرع فى حدوث خبرها فيه .

وقد نجد بين أخوات كان ما قد يكون ظاهر أمره ليس دالا على الزمن وهو «صار» وهو يفيد التحويل كما يقول نحائنا، ولكن مدلول التحويل نفسه لا يكون إلا بالانتقال من حالة إلى حالة ، وكل حالة ما دامت مختلفة عن الأخرى لا بد أن

تكون فى زمن معين ، لأن الشيء لا يكون على حالين فى زمن واحد، ومثل «صار» ما يلحق بها سماعا لا قياسا مثل آل ورجع وحال وارقد^(١).

(ب) مقيّدات النفى : وهى «ليس» والمشبهات بها «ما - لا - لات- إن» وهذه ترفع الاسم وتنصب الخبر ، و«لا» النافية للجنس ، وهذه تنصب الاسم إذا كان مضافا أو شبيها بالمضاف لأنها لا تتركب مع اسمها إذا كان غير مفرد ، أما إذا كان اسمها مفردا فإنها تتركب معه . ولذلك يبنى على ما ينصب به ، وأما خبرها فإنه يكون مرفوعا .

(ج) مقيّدات التأكيد : وهى إن وأن ، وهى تضيف معنى التأكيد إلى الجملة الاسمية التامة ، وإن كانت أن المفتوحة الهمزة - كما يرى بعض المحدثين^(٢) - ليست إلا واسطة لنقل التأثير إلى الجملة ، ولذلك فهى حرف مصدرى ، والحروف المصدرية وسائط لنقل التأثير إلى الجملة الفعلية والاسمية ، و«أن» هى المختصة بالجملة الاسمية فأنّ وما دخلت عليه تعد

(١) انظر شرح الكافية للرضى ٢ / ٢٩١

(٢) مثل برجستراشر فى كتابه « التطور النحوى » .

اسما أو مصدرًا مؤولا على حد تعبير النحاة ، وقد عبر عن ذلك سيويه بقوله : «أما أن فهي اسم ، وما عملت فيه صلة لها ، كما أن الفعل صلة لأن الخفيفة ، وتكون أن اسما . ألا ترى أنك تقول : قد عرفت أنك منطلق ، فأنت في موضع اسم منصوب كأنك قلت : قد عرفت ذاك وتقول بلغني أنك منطلق فأنت في موضع اسم مرفوع كأنك قلت بلغني ذاك : «فإن الأسماء التي تعمل فيها صلة لها ، كما أن أن الأفعال التي تعمل فيها صلة لها(١) وإذا أخذنا بهذا الرأي تكون إن المكسورة الهمزة هي مقيدة التأكيد أما (أن) المفتوحة الهمزة فتكون مقيدة الإيصال أي جعل الجملة معمولا لعامل قبلها لا يمكن أن يصل إليها إلا عن طريق (أن) .

والتأكيد - بلا شك - إضافة جديدة لمعنى لم يكن موجودا من قبل في الجملة ، ولذلك قد لا أوافق ابن الأنباري رحمه الله إذ جعل دخول إن على الجملة مما لا يغير المعنى ، وأقول إن المعنى لم يتغير ، بل زاد تأكيده وزيادة شيء عليه لم يكن

(١) سيويه ١١٩/٣ ، ١٢٠ (دار القلم)

(٢) تحقيق محمد بهجت البيطار (دمشق - ١٩٥٧ م) ، صفحة ١٣٠

(٣) السابق نفسه

(٤) معنى اللبيب لابن هشام ١/ ٢٢٣ .

موجودا من قبل تقييد له يقول ابن الأنباري في « أسرار العربية »(٢) « وأما ما يعبر اللفظ دون المعنى فهو إن تقول : إن زيدا قائم فد (إن) قد غيرت اللفظ ولم تغير المعنى ، لأن معناها التأكيد والتحقيق ، وتأكيد الشيء لا يغير معناه .

(د) مقيد التمني : وهو «ليت» يقول ابن الأنباري في كتابه المشار إليه أنفا «فأما ما يغير اللفظ والمعنى فنحو «ليت» فتقول : ليت زيدا منطلق «فليت» قد غيرت اللفظ وغيرت المعنى ، أما تغيير اللفظ فلأنها نصبت الاسم ورفعت الخبر ، وأما تغيير المعنى فلأنها أدخلت في الكلام معنى التمني»(٣) .

(هـ) مقيد الرجاء : وهو «لعل» وهي حرف يفيد معاني مختلفة هي التوقع والتعليل والاستفهام - كما حكى الكوفيون - ، ولكن أشهر هذه المعاني هو ترجى المحبوب والإشفاق من المكروه «وتختص بالممكن ، وقول فرعون «لعلني أبلغ الأسباب أسباب السموات» إنما قاله جهلا أو مخرقة وإفكا» على جد تعبير ابن هشام(٤) .

ولم أذكر هنا ما يفيد الرجاء من أخوات كاد ، وذكرتها في مقيدات الزمن لأن أخبارها هناك لا بد أن تكون فعلا مضارعا وإفادة أخوات كاد الرجاء مقرون برجاء حدوث الفعل، فهي بالزمن أشبه ، وأما لعل فهي ليست مختصة بالفعل بل قد يخبر عنها بالفعل أو بغيره، وإفادتها الرجاء من أصل وضعها .

(و) مقيد الاستدراك : وهو «لكن» وقد فسّر إفادتها الاستدراك بأن تنسب لما بعدها حكما مخالفا لحكم ما قبلها ، ولذلك لا بد أن يتقدمها كلام مناقض لما بعدها نحو : ما هذا ساكنا لكنه متحرك ، أو ضد له ، نحو ما هذا أبيض لكنه أسود، قيل أو خلاف ذلك نحو : ما زيد قائما لكنه شارب ، وقيل لا يجوز ذلك^(١) وقد تفيد معاني أخر مع الاستدراك ، لكن معناها الغالب عليها هو الاستدراك .

(ر) مقيد التشبيه : وهو «كأن» وقد تكون (كأن) لإفادة الشك والظن أو التحقيق أو التقريب ، ولكن هذه المعاني كلها قائمة على المعنى الأصلي وهو

التشبيه الذي يخرج عن مدلوله الأصلي إلى هذه المعاني الفرعية ، ولذلك يبقى هذا الحرف مقيدا للتشبيه في جميع أحواله .

والجملة مع بعض مقيدات النفي (كلها ماعدا ليس) وكل مقيدات التأكيد والتعني والرجاء والاستدراك والتشبيه لاتخرج عن اسميتها فهي جملة اسمية في نظر النحاة قديما وحديثا ، وذلك لأن النحاة اعتبروا هذه المقيدات حروفا أو أدوات وقد درسها المتأخرون تحت عنوان «إن وأخواتها» وقد اهتموا بالتأثير الإعرابي فحسب في التصنيف ، وكذلك «المشبهات بليس» لاتغير تصنيف الجملة الاسمية وتبقى لها اسميتها .

أما مقيدات الزمن وهي ما درست تحت عنوان «كان وأخواتها» و«كاد وأخواتها» فقد تردد النحاة القدماء في نسبتها إلى الفعلية أو الحرفية ، فقد ذهب بعض النحويين إلى أنها حروف وليست أفعالا ، لأنها لاتدل على المصدر ، ولو كانت أفعالا لكان ينبغي أن تدل على المصدر ، ولما كانت لاتدل على المصدر دل على أنها حروف^(٢) ولعل الذي أوقع النحاة في هذا التردد عدة أمور :

(١) السابق ٢٢٤/١ ، ٢٢٥ .

(٢) أسرار العربية لابن الأثير ١٣٢

١ - أنها تتصرف تصرف الأفعال فيصاغ من بعضها المضارع والأمر .

٢ - أنها تلحقها تاء التأنيث الساكنة ، وهم يعدون هذه التاء من علامة الفعل وتختص به .

٣ - أنها تلحقها تاء الفاعل. وألف الاثنين وواو الجماعة فتقول كنت وكانا وكانوا ، كما تقول : قمت وقاما وقاموا وما أشبه ذلك .

ومهما يكن من أمر فقد اتفق النحاة على أن هذه الأفعال أفعال غير حقيقية ولهذا تسمى «أفعال العبارة» كما يقول ابن الأثير .

ولو أن النحاة اعترفوا بما يسمى «الأدوات المتصرفة» لما حدث مثل هذا الاضطراب والخلاف ، والذي أراه أن جملة «كان زيد قائما» أي المبتدأ والخبر الذي تدخل عليه «كان أو إحدى أخواتها» ينبغي أن تعد من الجمل الاسمية لعدة أسباب :

أولا : أن الجملة الاسمية مبهمة الزمان فإذا قلت «محمد كريم» فأنت تثبت الكرم لمحمد مطلقا دون تحديد زمن معين ، فإذا

أدخلت «كان» أو إحدى أخواتها فأنت تحدد زمن هذا الإثبات أو تنفيه عنه إذا أدخلت «ليس» ولذلك قال بعض النحاة عن هذه الأدوات «بأنها بمجرد الزمن ولا دلالة لها على الحدث»^(١) ويقول سيبويه: تقول: «كان عبد الله أخاك» وإنما أردت أن تخبر عن الأخوة ، وأدخلت كان لتجعل ذلك فيما مضى^(٢) ويقول المبرد عنها: إنها «في وزن الفعل وتصرفه وليست فعلا على الحقيقة»^(٣) لأنها خالية من الحدث ، وأنها دخلت على المبتدأ والخبر «لتخبر أن ذلك وقع فيما مضى ، وليست بفعل وصل منك إلى غيرك»^(٤).

ثانيا : الفعل في الجملة الفعلية يعد «مسندا» وهذه لاتعد مسندا في جملتها ، وإنما المسند في جملتها هو «الخبر» والمسند إليه هو اسمها ، فالإسناد -إذن- بين اسمها وخبرها ، وأما «كان» فهي أداة لإفادة الزمن فحسب كما سبقت الإشارة إلى ذلك

(١) السيوطي : الهمع ٢ / ١٦٥ (٢) سيويه ١ / ٢١ .

(٣) المقتضب ٣ / ٣٣ (٤) انظر السابق ٢ / ٩٧ ، ٤ / ٨٦ .

ثالثا : إذا حذف الفعل من الجملة الفعلية لم يستقل ما بعده فمثلا إذا قلت «شرب الطفل اللبن» وحذفت «شرب» لا يصير الباقي جملة مفيدة فلا يقال «الطفل اللبن» ولكن إذا قلت «كان محمد حاضرا» وحذفت «كان» صار الباقي جملة مفيدة. فتقول «محمد حاضر».

رابعا : يرى ابن جنى أنه لا يلزم تأنيث كان لاسمها إذا كان مؤنثا لزوم تأنيث الفعل لفاعله إذا كان مؤنثا^(١) للسبب السابق وهو أن ما بعدها لا يحتاج إليها احتياج الفاعل إلى فعله .

خامسا : لم يتفق النحاة على فعليتها مع أخواتها ، إذ يرى ابن السراج وثعلب حرفية (عسى) ويتفق ابن السراج والفارسي وابن شقير على حرفية (ليس) استنادا إلى عدم تصرفها فلا يأتي منها مضارع ولا أمر ولا مصدر ولا غير ذلك ، وذهب الزجاجي إلى أن كان وأخواتها حروف.^(٢)

سادسا : لم يسخرج النحاة جملة الابتداء والخبر المنسوخة بـ (إن) أو إحدى أخواتها عن الاسمية ، ولذلك ينبغي ألا تخرج جملة الابتداء والخبر المنسوخة بـ (كان) أو إحدى أخواتها عن الاسمية كذلك .

سابعا : تستطيع أن تقول «أكل طفل تفاحة» فتأتي بالفاعل نكرة «طفل» ولكنك لا تستطيع أن تقول : «كان رجل حاضرا» فتأتي باسم كان نكرة لأنه لا يجوز الابتداء بالنكرة إلا في حالات معينة ليست هذه منها .

ثامنا : مما يدل على كون «كان» وأخواتها أدوات أنها تدخل على الأفعال كما تدخل الأدوات مع أنه «لا يلي فعل فعلا» كما يقول المبرد^(٣) .

ولذلك عدّها بعض الباحثين المحدثين أدوات منقولة من الفعل للدلالة على الزمن في الجملة الاسمية التي تخلو من الدلالة عليه^(٤) .

(١) انظر : الهمع / ١ / ١٠ (٢) المقتضب : ٤ / ١١٠ (٣) انظر : د. تمام حسان «اللغة العربية معناها ومبناها» ١٣١ ود عبدالرحمن أيوب «العربية ولهجاتها» ص ٧٩ - ٨٢ .

لهذه الأسباب مجتمعة يسوغ لنا أن نعد الجملة المنسوخة بـ «كان» أو إحدى - أخواتها - مثلها تماما «كان» وأخواتها - من الجملة الاسمية ، كما تعد الجملة المنسوخة بـ «إن» أو إحدى أخواتها جملة اسمية كذلك .

وأما مثال جملة «ظننت عمرا أباك» فإننا نجد كثيرا من الباحثين يعالجونه تحت الجملة الاسمية أيضا من قبيل أن الجملة في أساسها هي «عمرو أبوك» وهي جملة اسمية ولكن المتكلم يشك في نسبة الخبر إلى المبتدأ أو الأبوة إلى عمرو في هذا المثال ، ولذلك يصدر هذه الجملة بما يفيد الرجحان وهو «ظننت» أو «حسبت» ، وقد يكون متيقنا من هذه النسبة ويريد الإخبار عن ذلك فيقول «علمت عمرا أباك» أو «رأيت عمرا أباك» فيصدر الجملة بما يدل على تيقنه أي يأتي قبل الجملة الاسمية بـ (علمت) أو (رأيت) أو غيرهما من أفعال اليقين ، ولذلك نجد إمام النحاة سيبويه يقول عنها «هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين ، وليس لك أن تقتصر على أحد المفعولين

دون الآخر وذلك ، قولك : «حسب عبد الله زيدا بكرا ، وظن عمرو خالدا أباك ، وخال عبد الله زيدا أخاك ومثل ذلك : رأى عبد الله زيدا صاحبنا ، ووجد عبد الله زيدا ذا الحفظ .

وإنما منعك أن تقتصر على أحد المفعولين هنا أنك إنما أردت أن تبين ما استقر عندك من حال المفعول الأول يقينا كان أو شكاً^(١) . فدخول «ظن» أو إحدى أخواتها - وهي أفعال الرجحان واليقين - على الجملة الاسمية لإفادة الشك في نسبة المفعول الثاني - وهو الخبر في الأصل - إلى المفعول الأول - وهو المبتدأ في الأصل - وذلك إذا قلت مثلاً : ظننت محمداً حاضراً أو لإفادة التيقن من ثبوت المفعول الثاني - وهو الخبر في الأصل - للمفعول الأول - وهو المبتدأ في الأصل - وذلك إذا قلت : علمت العلم نافعاً ، فجملة «محمد حاضراً» و«العلم نافع» جملة اسمية ، ولكن المتكلم أوقع على الجملة الأولى حالته الخاصة وهي الظن أو الرجحان وأوقع على الجملة الثانية حالته الخاصة من إفادة التيقن الحادث له وهو العلم بذلك ، ولهذا يسوغ

(١) سيبويه ص ٨٨/١ .

الجمل وصفاً دقيقاً ، ولما كان الإسناد الأول فعلياً عدت الجملة فعلية وأغفل الإسناد الثاني^(١) . في هذا الذي قدمته شيء من إعادة النظر في الوصف والتصنيف ، وهو في كثير منه يعتمد على آراء لبعض النحاة السابقين ، ولا أريد أن أعيد هنا ما قاله ابن جنى عن النحو من أنه ليس ديناً ولا عملاً مسنوناً فليس التفتيش والنظر فيه محرماً أو مجزئاً ، وتكفى عبارته التي تعد مبدأً مهماً وفي الوقت نفسه دعوة متجددة لإعمال الفكر وإزالة الخاطر وهي «فكل من فُرق له عن علة صحيحة ، وطريق نهج كان خليل نفسه وأبا عمرو فكره» وعلى الله سبحانه قصد السبيل .

محمد حماسة عبد اللطيف

الخبير بالمجمع

لنا أيضاً أن نعالجها تحت الجملة الاسمية ، بسبب أن جزأى الجملة الاسمية يعرض لهما تغيير يلائم الحالة الجديدة التي طرأت فيصيران مفعولين .

ولكنه مما لا يحتمل الجدل أن الجملة مع ظن وأخواتها جملة فعلية لأن للفعل فاعلاً ، وبينه وبين الفعل إسناد أصلي ، وقد نحقت الإسناد بين المبتدأ والخبر اللذين تحولوا إلى مفعولين ، وعلى أية حال يمكن أن يكون ذلك من التقييد بالمفعولية ، وقد ينحل الإشكال إذا أطلقنا على مثل هذا النوع «جملة فعلية اسمية» والإسناد فيها إسناد مركب لأن بين الفعل وفاعله إسناداً ، وبين «المفعول الأول» و«المفعول الثاني» إسناداً كذلك وباعتبار الإسناد الأول تعد جملة فعلية ، وباعتبار الإسناد الثاني تعد جملة اسمية . مصطلح « الجملة الفعلية الاسمية » مصطلح يصف هذا النوع من

(١) انظر الفصل الثاني من كتابي « بناء الجملة العربية » دار الشروق .

تعريف ونقد

قراءة متأنية

فى كتاب (معجز أحمد) لأبى العلاء المعرى

تحقيق الدكتور عبد المجيد دياب

عرض وتعليق للفريق / يحيى بن عبد الله المعلمى

أربعة مجلدات يزيد مجموع صفحاتها على ألف وسبعمائة وعشرين صفحة ويلحق بها ما يزيد على مائتين وعشرين صفحة للفهارس .

وقد بذل المحقق جهداً كبيراً فى البحث عن نسخ متعددة لهذا الكتاب وفى معرفة ما إذا كان هو كتاب اللامع العزى الذى ألفه أبو العلاء المعرى فى شرح ديوان أبى الطيب المتنبى أم أنه كتاب آخر ، وخلص إلى أنهما كتابان مختلفان ، وقد كتب اللامع العزى قبل معجز أحمد وليس معجز أحمد اختصاراً للامع .

وقد قسم المعرى فى كتابه شعر المتنبى إلى مجموعات حاول فيها أن يجعلها متفقة مع تاريخ إنشاء القصائد أو فترة إنشادها ، ولعله اتبع فى ذلك سنن المتنبى

تضمن كتاب (معجز أحمد) شرحاً وافياً لشعر المتنبى يتضمن أوجه إعراب الكلمات ومعانى المفردات ثم المعنى الإجمالى للبيت مما يجعل من قراءته متعة وفائدة للقارىء وقد صدر المحقق الكتاب بترجمة وافيه لأبى العلاء المعرى وترجمة أخرى لأبى الطيب وختم الكتاب بفهارس شاملة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والقصائد والمقطعات والأمثال والأقوال الماثورة وأسماء القبائل والجماعات والشعوب والأرهاب وفوائد من النحو والعروض والبلاغة وأسماء الأعلام من الأشخاص والأماكن والبلدان فى البقاع والبحار والأنهار والكتب والمراجع .

صدر هذا الكتاب منذ عشرة أعوام فى

الذي قسم قصائده على حسب أماكن إنشادها .

ففى الديوان : العراقيات الأولى والشاميات والسيفيات والكافوريات والعراقيات الأخيرة والعضديات ، ويتخلل هذا التقسيم زيادات من شعر المتنبي .

وقد كنت فى الندوة الأدبية التى يعقدها الأخ اللواء الدكتور أنور عشقى فى دارته العامرة مساء كل يوم خميس وتجاوزنا الحديث عن شعر المتنبي وشروحه فأخبرنى بأن لديه نسخة من (معجز أحمد) للمعري فطلبت منه أن يفضل بإعارتى إياها لقراءتها فأفضل بإهدائها لى ، فبدأت فى قراءتها وعكفت على ذلك أربع ليال .

وقد لاحظت فى أثناء قراءتى لهذا الكتاب ملحوظات لا أزعج أن المعري قد أخطأ فيها وإنما أرجع ذلك إلى الناسخ ، فالمعري كما هو معروف لا يقرأ ولا يكتب وإنما يلى ما يقول على من يكتب ، ولا يستطيع أن يصحح ما أملاه تصحيحاً دقيقاً كما يفعل المبصرون الذين قد يفوت عليهم أيضاً بعض الأخطاء فلا يتنبهون إليها رغم حرصهم على تحرى الصحة والصواب .

١ - فى الصفحة (٩٠) من المقدمة للجزء الأول ورد البيت التالى من شعر أبى الطيب :

مِنَ الْجَارِرِ فِي رِيِّ الْأَعَارِبِ

حَمْرُ الْحَلَا وَالْمَطَايَا وَالْجَلَابِيبِ

وقد كتب كلمة الجآذر بالزاي بدلاً من الدال وهذا خطأ ؛ فالجآذر جمع جؤذر وهو الغزال ، أما الجآزر فلم أقف لها على معنى .

وكتبت الحلا بألف ممدودة والصحيح أن تكتب بألف لينة لأنها جمع حليه لا حلوة .

٢ - فى الصفحة ٣٢ من الكتاب فى الجزء الأول ورد هذا البيت من شعر أبى الطيب :

تَبْكِي عَلَى الْأَنْصُلِ الْغُمُودِ إِذَا

أَنْدَرَهَا أَنَّهُ يُجَرِّدُهَا

وقد ضبطت كلمة (الغُمُودِ) بكسر الدال والصحيح أنها بالضم لأنها فاعل مرفوع .

٣ - وفي الصفحة ٤١ ورد هذا البيت من شعر أبي الطيب :

أَرَى مِنْ فِرْنَدَى قِطْعَةً فِي فِرْنَدِهِ

وَجُودَةٌ ضَرَبَ الْهُمَامُ فِي جُودَةِ الصَّقْلِ

وقد وضعت بدل كلمة الهام كلمة (الهام) وضبطت بضم الهاء ، ولا يستقيم وزن البيت ، ولا معناه بذلك . وقد أشار المحقق إلى أن في نسخ الديوان كلمة الهام وأن في الديوان : الهام ، وليته أثبت الصحيح .

٤ - في الصفحة ٦١ ورد البيت

التالي من شعر الحكمي :

يَادَعْدُ قَدْ أَصْبَحَتْ مَبِيضَةً كَبِيدِي

فَاصْبِغِي بَيَاضاً بَعَصْفَرِ الْعِنَبِ

ولا يستقيم وزن الشطر الثاني ولعل

أصله : فَاصْبِغِيهَا بَيَاضاً عَصْفَرِ الْعِنَبِ .

والله أعلم . .

٥ - في الصفحة ٧٠ ورد البيت التالي من

شعر أبي الطيب :

دَرُّ دَرِّ الصَّبَا أَيَّامَ تَجْرِي

حِرِّ ذُبُولِي بِدَارِ أَثَلَّةِ عَوْدِي

ولا يستقيم الوزن إلا إذا وضعت

همزة النداء قبل كلمة أيام فيكون البيت

هكذا :

دَرُّ دَرِّ الصَّبَا أَيَّامَ تَجْرِي

حِرِّ ذُبُولِي بِدَارِ أَثَلَّةِ عَوْدِي

وقد جاء في الشرح أن الهمزة الأولى

همزة حرف النداء .

٦ - في الصفحة ٩١ جاء بيت أبي الطيب :

مَا ضَاقَ قَبْلَكَ خَلْخَالٌ عَلَى رَشِيٍّ

وَلَا سَمِعْتُ بِدِيْبَاجٍ عَلَى كَنْسٍ

بفتح النون في كلمة كنس .

وقال الشارح : الكنس (بفتح النون)

بيت الظبي ، وروى على كِنَسٍ ، وهو

صفة الظبي أي ذى كِنَسٍ .

وضبطت كلمة كنس الأخيرة بكسر

النون وقد سبق أن الكنس بفتح النون هو

بيت الظبي وعلى ذلك فإن ضبطها بالكسر

غير صحيح .

٧ - في الصفحة ٩٦ ورد البيت

التالى من شعر أبى الطيب :

أَيُّ الْمُلُوكِ وَهُمْ قَصْدِي ، أَحَاذِرُهُ

وَأَيُّ قِرْنٍ وَهُمْ سَيْفِي وَهُمْ تُرْسِي ؟

وجاء فى شرحه : " ... وترسى

الذى أحرس نفسى بهم " والصواب وهم

تُرْسِي الذين أحمى بهم نفسى ، بالجمع

بدليل أنه قال : بهم ولم يقل به .

٨ - فى الصفحة ٣٠٣ جاء بيت

أبى الطيب :

وَأَنْكَ لَا تَجُودُ عَلَى جَوَادٍ

هَبَاتِكَ أَنْ يُلْقَبَ بِالْجَوَادِ

وجاء فى شرحه : " أن هباتك أبت

أن يقلب أحد بالجواد غيرك "

والصحيح هو : " أن يلقب بالجواد " .

٩ - فى الصفحة ٣١٢ جاء البيت

التالى من شعر المتنبى :

لَحَاهَا اللَّهُ إِلَّا مَا مَاضِيَّهَا

زَمَانَ اللَّهْوِ وَالْحَوْدَ الشَّمُوعَا

ولا يستقيم الوزن بوجود ما قبل

ماضيها فتحذف .

١٠ - فى الصفحة ١٣ من الجزء

الثانى ورد البيت التالى من شعر

أبى الطيب :

لِجَنِّيَّةٍ أُمُّ غَاذَةٍ رُفِعَ السَّجْفُ !

لِوَحْشِيَّةٍ ؟ لَا ، مَا لِوَحْشِيَّةٍ شَنْفُ

وقد ضبطت كلمة (شنف) بفتح

النون ولا يستقيم الوزن بذلك وينبغى أن

تضبط بالسكون .

١١ - فى الصفحة نفسها ورد هذا

البيت لأبى الطيب :

نُفُورٌ ، عَرَّتْهَا نَفْرَةٌ فَتَجَاذَبَتْ

سَوَالِفُهَا وَالْحَلَى وَالْخَصْرُ وَالرَّدْفُ

وجاء فى الشرح : " أن هذه الجارية

نفور فلئن رمقن طرفاً إليها ،

نفرت منا ... "

ولا يستقيم المعنى بهذا وإنما يستقيم إذا

قلنا : فلئن رمقنا طرفاً إليها نفرت منا " .

١٢ - وفي الصفحة ١٤ أيضاً جاء بيت المتنبي :

وَخَيْلٍ مِنْهَا مَرِطُهَا فَكَأَنَّمَا

تَثْنَى لَنَا خُوطٌ وَلا حَظَّنَا خِشْفٌ
وجاء في الشرح : ' ... كأنما تمايل
مرط بان ' ولعلها خوط بان .

١٣ - في الصفحة ١٨ جاء بيت المتنبي :

جَوَادٌ سَمَتْ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَفُّهُ

سَمُوا أَوْدَ الدَّهْرَ أَنْ اسْمَهُ كَفُّهُ
وضبطت كلمة (سموا) بفتح السين
والصحيح هو (سُمُوا) بضم السين .

١٤ - في الصفحة ٢١ ورد البيت التالي للمتنبي :

تَفَكَّرَهُ عِلْمٌ ، وَمَنْطِقُهُ حُكْمٌ

وَبَاطِنُهُ دِينٌ ، وَظَاهِرُهُ ظَرْفٌ
وقد ضبطت كلمة (دين) بفتح الدال
ولا يستقيم المعنى بذلك وإنما بضبطها
بكسر الدال .

١٥ - في الصفحة ٧٥ ورد بيت أبي الطيب :

وَأَمْسَحًا ثَوْبَهُ الْبَقِيرَ عَلَى دَا

تِكْمًا تُشْفِيَا مِنَ الْإِعْلَالِ

قد ضبطت التاء في (تشفيا) بالضم
بينما ضبطت الفاء بالكسر .

والصواب : إما ضبط التاء بالفتح
وضبط الفاء بالفتح (تُشْفِيَا) أو ضبط التاء
بالضم وضبط الفاء بالفتح (تُشْفِيَا) فتكون
ألف الاثني عشر في الأولى فاعلاً وفي الأخرى
نائب فاعل .

١٦ - في الصفحة ٧٨ ورد بيت المتنبي :

وَأَغْتَفَارٌ لَوْ غَيْرَ السُّخْطِ مِنْهُ

جُعِلَتْ هَامُهُمْ نِعَالُ النِّعَالِ
وقد ضبطت كلمة نعال بضم اللام
والصواب فتحها لأنها مفعول به .

١٧ - في الصفحة ١٢٧ ورد بيت المتنبي :

وَمَهْمَةٌ جُبْتُ عَلَى قَدَمِي

تَعَجَّرُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الدَّلَلُ
وقد ضبطت كلمة (مهمة) بتاء
مربوطة في آخرها ، وجاء في الشرح : أن
المهمة (بتاء مربوطة) هي المفازة والصحيح

أن الكلمة : (مهمه) بهاء مهملة لا بتاء
مربوطة وقد تكرر هذا عدة مرات سنشير
إلى كل منها في موضعه .

١٨ - في الصفحة ١٩٠ جاء هذا
البيت للمتنبي :

مَنْ لَيْسَ مِنْ قَتْلَاهُ مِنْ طُلُقَائِهِ
مَنْ لَيْسَ مِمَّنْ دَانَ مِمَّنْ حِينَا
وجاء في الشرح أن (طلقائه) جمع
الطلائق والصحيح أن (الطلقاء) جمع
(الطليق) .

١٩ - في الصفحة ٢١٠ جاء هذا
البيت لأبي الطيب :

وَذَا انصرفت إلى محلى
أَذِنُ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؟
وفي البيت بهذه الصيغة زحاف ولو
عدل إلى : (أَذِنُ أَنْتَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ)
لاستقام الوزن .

٢٠ - في الصفحة ٢٩٨ ورد البيت
التالي لأبي الطيب :

وَتَسْحَبُ الْحَبْرَ الْقَيْنَاتُ رَافِلَةٌ
فِي جُودِهِ وَتَجْرُ الْحَيْلُ أَرْسَانًا

وجاء في شرحه : " رافلة : متبخرة " .
والصحيح أن معنى رافلة متبخرة
لا متبخرة .

٢١ - في الصفحة ٥٢٤ جاء بيت
المتنبي :

وَرَيْمًا أَشْهَدُ الطَّعَامَ مَعِيَ
مَنْ لَا يُسَاوِي الْحُبْزَ الَّذِي أَكَلَهُ
وجاء في شرحه أن : أشهد فعل مالم
يسم فاعله والواقع أنه فعل مضارع وفاعله
ضمير مستتر تقديره أنا ولو كان مبنياً
للمجهول لكانت الدال مفتوحة .

٢٢ - في الصفحة ٥٣٦ وردت عبارة
في الشرح تقول : فكثر غاشيه وسائله ،
وضبطت كلمة سائله بكسر اللام والصواب
ضمها لأنها معطوفة على فاعل مرفوع .

٢٣ - في الجزء الثالث في الصفحة
٢٩ جاء بيت أبي الطيب :

فِي سَبِيلِ الْعُلَا قَتَالَكَ وَالسُّلَّ
سُمُّ وَهَذَا الْمَقَامُ وَالْإِجْدَامُ

وجاء في شرحه : " ... فتنال معالٍ
مع معاليك "

وقد ضبطت اللام في (معال)
بكسرتين تحتها والصواب أن تثبت الياء
وتوضع فوقها فتحة (معالي) أو يكون
التنوين بفتحتين (معالياً) .

٢٤ - في الصفحة ٨١ ورد بيت
أبي الطيب :

لِللَّهِ قَلْبُكَ | مَا تَخَافُ مِنَ الرَّدَى

وَتَخَافُ أَنْ يَدْنُوا إِلَيْكَ الْعَارُ

وقد وضع في آخر كلمة (يدنو)
الْف و ليس لهذه الألف موضع فالواو
في (يدنو) ليست واو الجماعة على أن
في البيت ضرورة أوحى تقدير الفتحة
على الواو مع أنها تظهر على المعتل بالواو
وكان يمكن أن يقال (أن يدنى) بألف
لينة في آخره ولكن يجوز للشاعر ما لا
يجوز لغيره .

٢٥ - في الصفحة ١٢٦ جاء بيت
أبي الطيب :

يُقَصِّرُ عَنْ يَمِينِكَ كُلُّ بَحْرٍ

وَعَمَّا لَمْ تُلْقِهِ مَا آلاَقَا

وقد ضبطت كلمة (تلقه) بضم التاء
وسكون اللام وكسر القاف وكسر الهاء
وبهذا الضبط يختل الوزن والمعنى .

والصحيح هو ضبط كلمة (تلقه)
بضم التاء وكسر اللام وسكون القاف وضم
الهاء فبذلك يستقيم الوزن والمعنى لأن
كلمة (تلقه) من الإلقاء كما جاء في
الشرح وليست من الإلقاء .

٢٦ - في الصفحة ٢٧٦ جاء بيت
أبي الطيب :

هَذَا الْمَعْدُ لِرَيْبِ الدَّهْرِ مُنْصَلِتًا

أعدُّ هَذَا الرَّأْسِ الْفَارِسِ الْبَطْلِي
وقد وردت كلمة الرأس معرفة مجرورة
وهذا لا يستقيم وزناً ولا معنى ولا نحواً .

والصحيح هو (أعد هذا لرأس
الفراس البطل) بحرف جر هو اللام وكسر
السين بدون تنوين لأنها مضاف ولعل
الأصوب أن تكون كلمة (أعد) على
البناء للمجهول لأنها إذا كانت بصيغة
الماضي لم يتضح الفاعل .

٢٧ - فى الصفحة ٣٥٦ جاء بيت

أبى الطيب :

أَيَدْرِى مَا أَرَأَيْكَ مَنْ يُرِيبُ ؟

وَهَلْ تَرَقَى إِلَى الْفُلْكِ الْخُطُوبُ ؟!

وقد ضبطت كلمة (الفلك) بضم الفاء وسكون اللام ولا يستقيم المعنى بهذا الضبط فالفلك (أى السفن) معرضة للخطوب ولكن الصحيح هو (الفلك) بفتح الفاء واللام وهو لا ترقى إليه الخطوب فيما نعلم .

٢٨ - فى الصفحة ٣٨٧ جاء هذا

البيت من شعر المتنبى :

قَدْ فَضَّلُوا بِفَضْلِكَ الْقَبَائِلَ

وقد ضبطت كلمة (فَضَّلُوا) بتشديد الضاد والصحيح الذى يظهر من سياق القصيدة أن كلمة (فَضَّلُوا) بفتح الضاد دون تشديد لأنه ينسب الفضل إليهم ولا ينفى عنهم .

٢٩ - فى الصفحة ٤٢٥ جاء بيت

المتنبى :

وَكَيْفَ تُرَجِّى الرُّومَ والرُّوسُ هَدْمَهَا

وَذَا الطَّعْنُ أُسَاسٌ لَهَا وَدَعَائِمُ أ

وقد وردت كلمة (أساس) بهمزة

مفتوحة غير ممدودة وبذلك لا يستقيم

الوزن وإنما يستقيم إذا مدت الهمزة

فصارت (أساس) .

٣٠ - فى الصفحة ٤٤٣ جاء بيت

المتنبى :

أَذَا الْحَرْبِ قَدْ أْتَعَبْتَهَا فَالَهُ سَاعَةٌ

لِيُخَمَدَ نَصْلٌ أَوْ يُحَلَّ حِزَامٌ

وقد ضبطت كلمة (فاله) بفتح

الهاء ، والصواب ضم هاء (فاله) دلالة

على أن حرف العلة المحذوف هو الواو

لأن المضارع (يلهو) لا (يلهى) .

٣١ - فى الصفحة ٤٦٤ جاء بيت

المتنبى :

وَفِيكَ إِذَا جَنَى الْجَانِي أَنَاةٌ

تُظَنُّ كَرَامَةً وَهِيَ احْتِقَارٌ

وقد ضبطت كلمة (تظن) بضم التاء

وضم الظاء ولا يستقيم المعنى بذلك فما

فاعل تظن ؟ ولكن الصحيح هو تظن بضم
التاء وفتح الظاء على البناء للمجهول
ونائب الفاعل مستتر يعود على أناة .

٣٢ - في الصفحة ٤٦٥ جاء بيت
المتنبى :

فَأَقْرَحْتُ الْمَقَاوِدُ ذَفْرِيَّهَا

وَصَعَّرَ خَدَّهَا هَذَا الْعِدَارُ

وقد ضبطت كلمة أقرحت بسكون
على تاء التانيث ولا يصح ذلك لالتقاء
الساكنين وإنما تحرك بالكسر .

٣٣ - في الصفحة ٤٩٤ جاء بيت
أبي الطيب :

قَارَعَتْ رُمْحَكُ الرَّمَاحُ وَلَكِنْ

تَرَكَ الرَّامِحِينَ رُمْحَكَ عَزْلًا

وقد ضبطت كلمة (رمحك) في
الشرط الثاني بضم الحاء والصواب أن
تكون الحاء مفتوحة لأن الكلمة منصوبة
مفعولاً به .

٣٤ - في الصفحة ٤٩٥ ورد بيت
المتنبى :

وَلَكَشَفْتَ ذَا الْحَنِينِ بِضَرْبِ

طَالَمَا كَشَفَ الْكُرُوبَ وَجَلَّى

وقد ضبطت كلمة الحنين بكسر في
آخرها على أساس أن ذا بمعنى صاحب
والحقيقة أنها اسم إشارة بمعنى هذا كما جاء
في الشرح وبهذا المعنى تكون (الحنين)
منصوبة لأنها بدل من اسم الإشارة ذا .

٣٥ - في الصفحة ٥٠٩ جاء بيت
أبي الطيب :

وَإِذَا حَاوَلْتَ طِعَانَكَ خَيْلٌ

أَبْصَرَتْ أذْرُعَ الْقَنَا أَمِيالًا

وقد ضبطت كلمة حاولت بسكون
على اللام وفتحة على التاء ولا يستقيم
الوزن بذلك ولا المعنى وإنما يستقيم بفتح
اللام وتسكين التاء .

٣٦ - في الصفحة ٥٤٨ جاء
بيت المتنبى :

وَالنَّقْعُ يَأْخُذُ حَرَّانًا وَيَبْقَعْتِهَا

وَالشَّمْسُ تُسْفِرُ أَحْيَانًا وَتَلْتَمِمْ

وقد ضبطت كلمة (بقعتها) بكسر
التاء ولا موجب للكسر وإنما يجب فتحها
لأن بقعتها معطوفة على حران وهي
منصوبة للمفعولية .

٣٧ - في الصفحة ٥٦١ ورد بيت

المتنبى :

إِذَا تَذَكَّرْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

أَعَانَ قَلْبِي عَلَى الشُّوقِ الَّذِي أَجِدُ

وقد ضبطت كلمة تذكرت بفتح التاء
الأخيرة ولكن الصحيح هو الضم لأنها
للمتكلم .

٣٨ - في الصفحة ٥٦٥ ورد بيت

عبد بن الطبيب في رثاء قيس بن عاصم
المنقرى يقول فيه :

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هُلُكُ آدَمَ

وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدَمًا

والمعروف أن البيت هكذا :

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هُلُكُ وَاحِدٍ

وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدَمًا

٣٩ - في الصفحة ٥٧٩ جاء

بيت المتنبى :

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوِيٌّ يَا رَسُولُ ۱؟

أَنَا أَهْوَى وَقَلْبُكَ الْمُتَّبُولُ

وقد ضبطت كلمة (جوى) بكسر

الواو وبعدها ياء ولا يصح ذلك وإنما يصح
أن يقال :

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوِيٌّ يَا رَسُولُ ۱؟ بتنوين

الواو وحذف الياء فالتنوين عوض عن
الياء .

٤٠ - وفي الجزء الرابع في الصفحة

١٩ جاءت أبيات لعبد الرحمن بن ذارة
يقول في أحدها :

وَيَبِيعُوا الرُّدَيْنِيَّاتِ بِالْخَمْرِ وَأَقْعُدُوا

عَلَى الذَّلِّ وَابْتَاَعُوا الْمَغَارِلَ بِالنَّبْلِ

وقد ضبطت كلمة (بالخمر) بكسر

الميم ولا يتفق ذلك مع الوزن وإنما حقها

أَنْ تُسَكَّنَ الْمِيمُ . وجاءت فيها كلمة

(وابتاعوا) بدون ألف الجماعة .

٤١ - وفي الصفحة ١٧٧ جاء

بيت المتنبي :

جَزَى عَرَبًا أَمْسَتْ بِبَلْبَيسَ رَبِّهَا

بِمَسْعَاتِهَا تَقَرَّرُ بِذَاكَ عِيُونُهَا

وجاء في الشرح " وروى ببلبيس "

وهو مكان بأعلى الشام دون مصر على
بحر القلزم .

قلت : وليست بلبيس بأعلى الشام

ولا أدناه ، ولا تقع على بحر القلزم ،

وإنما تقع على فرع النيل الممتد إلى مدن

قناة السويس وهي قريبة من القاهرة ،

وتقع في محافظة الشرقية ، وليست قريبة

من بحر القلزم ، وأبو العلاء معذور في

قوله هذا ، فما هو رحالة يجوب

البلدان ، ولعله أخذ هذه المعلومات من

كتاب : ياقوت الحموي « معجم البلدان »

وهذا الكتاب لا يصح الرجوع إليه

أو الاعتماد عليه في تحديد المواقع ،

واسألوا علامة الجزيرة ، الشيخ حمد

الجاسر ، فهو قد وقع في حرج من طلاب

مدرسة في ينبع ، كان يدرس فيها ، عندما

اعتمد على قول ياقوت عن جبل رضوى ،
أنه جبل قرب المدينة وأشار له أحد طلابه
من خلال النافذة إلى جبل رضوى الذي
يربض قرب ينبع ، وبعد هذه الملاحظة
الجرئية لم يعد الشيخ حمد الجاسر ، يعتبر
الكتب القديمة في تحديد المواقع وإنما يذهب
ويقف عليها ويحقق مواقعها بنفسه ، وقد
أفاد بذلك من يقرأ كتبه عن المواقع في
جزيرة العرب فائدة عظيمة .

وإني أدعو أن يتدب المجمع من بين
أعضائه فريقاً يقوم بمراجعة المواقع المذكورة
في كتاب ياقوت ، ويصحح مواقعها
ويحددها بمقاييس محددة بالأكيال والزوايا
حتى يعود الكتاب مرجعاً صحيحاً
للمعلومات .

٤٢ - وفي الصفحة ٢٣٨ ، جاء بيت

لأبي الطيب هو :

وَمَنْ ضَاقَّتِ الْأَرْضُ عَنْ نَفْسِهِ

حَرَى أَنْ يَضِيقَ بِهَا جِسْمَهُ

وقد ضبطت كلمة (حرى) بفتحيتين

على السراء والصواب أن تكون السراء

مضبوطة بكسرتين تحتها وأن تحذف الألف

اللينة .

٤٣ - وفي الصفحة ٢٤١ جاء
البيت التالي المنسوب للأخطل :

كَأَنَّ يَدَيْهَا حِينَ جَدَّ نَجَاوَهَا

طَرِيدَانِ وَالرُّجْلَانِ طَالِبَتَا وَتَرَا

والصحيح هو :

كَأَنَّ يَدَيْهَا حِينَ جَدَّ نَجَاوَهَا

طَرِيدَانِ وَالرُّجْلَانِ طَالِبَتَا وَتَرَا

بصرف النظر عن اختلاف الروايات

في صدر البيت .

٤٤ - وفي الصفحة ٢٥٧ ورد البيت

التالي ، للمتنبى :

عَلَى نَسَائِكَ تَجَلَّوْا مِنْذُ سَنَبِهِ

وقد وضعت ألف الجماعة بعد واو تجلو

وليس لها موضع هنا .

٤٥ - في الصفحة ٣١٤ ، جاء بيت

أبي الطيب :

رَجَوْنَا الَّذِي يَرْجُونَهُ فِي كُلِّ جَنَّةٍ

بِأَرْجَانٍ حَتَّى مَا يَسْنَأُ مِنَ الْخُلْدِ

وقد وردت كلمة يرجونه بهاء الغائب

والصحيح حذفها لئلا يختل الوزن .

٤٦ - في الصفحة ٣٦٢ جاء

بيت المتنبى :

لَا تَلْقَ أَفْرَسَ مِنْكَ تَعْرِفُهُ

إِلَّا إِذَا مَا ضَاقَتْ بِكَ الْحَيْلُ

ووجود ما وبك في الشطر الثاني أدخل

بوزنه فإما (ما) وإلا (بك) ليستقيم الوزن .

إِلَّا إِذَا مَا ضَاقَتْ الْحَيْلُ (أو) إِلَّا إِذَا ضَاقَتْ

بِكَ الْحَيْلُ .

٤٧ - في الصفحة ٣٩٧ جاء بيت

لأبي الطيب من الرجز :

دَانِيَّ الْحَتَّانِيصِ مِنَ الْأَشْبَالِ

وقد ضبطت كلمة داني بفتحة على

الياء وهذا يكسر البيت .

٤٨ - في الصفحة ٤٣٢ ، جاء بيت

للمتنبى :

نظرت من طبعه إلى ملكٍ

يفضى حماة الشام من خلقه

ولا يستقيم الوزن إلا بمد الألف من

كلمة الشام فتصبح : الشام من خلقه .

٤٩ - فى الصفحة ٤٣٣ جاء بيت

للمتنبى :

وهَلْ أَنَا بَعْدَكُمْ عَائِشٌ

وقد بُنِيَ عَنِّي وَبَانَ السَّكَنُ ١٩

وقد ضبطت كلمة بعدكم بسكون الميم

ولا يستقيم الوزن بذلك ، والصواب أن

تضبط بضم الميم أو يزداد فى البيت كلمة

من فيقال : (وهَلْ أَنَا مِنْ بَعْدِكُمْ عَائِشٌ)

ليستقيم الوزن .

٥٠ - فى الصفحة ٤٤٢ ، ورد بيت

لأبى الطيب :

نُوبِيَّةٌ لَمْ تَدْرِ أَنَّ بَنِيهَا نُوبِيٌّ

يَبِيٌّ بَعْدَ اللَّهِ يُعْبَدُ فِي مِصْرًا

والبيت بهذا الشكل فيه زحاف ،

ويمكن أن يستقيم إذا كان هكذا :

نُوبِيَّةٌ لَمْ تَدْرِ أَنَّ بَنِيهَا نُوبِيٌّ

يَبِيٌّ بَعْدَ اللَّهِ يُعْبَدُ فِي مِصْرًا

وذلك بتصغير نوبية .

٥١ - وفى الصفحة ٤٤٣ ، جاء بيت

لأبى الطيب :

فَإِنْ بَلَغَتْ نَفْسِي الْمُنَا فَبِعَزْمِهَا

وإلا فَقَدْ أَبْلَغْتُ فِي حَرِصِهَا عُدْرًا

وجاءت كلمة المنا بألف ممدودة

والصحيح قصرها لأنها من أصل يائى .

٥٢ - وفى الصفحة ٤٤٤ ، جاء

بيت للمتنبى :

بِيَدَيَّ أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْأَرِيبُ

لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنِّي غَرِيبٌ

وقد ضبطت كلمة بيدى بفتح الدال

وتشديد الياء ولا يستقيم الوزن بذلك

والصحيح هو كسر الدال وسكون الياء .

وبعد :

فهذه اثنتان وخمسون ملحوظة

لاحظتها ، أثناء قراءتى لهذا الكتاب

النفيس ، وأرجو أن أكون قد وفقت فى

بيانها .

والله الموفق ..

.. يحيى عبد الله المعالمى

عضو المجمع المراسل من السعودية

شخصيات وجمعية

استقبال ثلاثة أعضاء علميين جدد

وبعد ذلك ألقى الأستاذ الدكتور محمد يوسف حسن كلمة في استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد وتلاه الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد فألقى كلمته .
وأخيراً ألقى الأستاذ الدكتور محمود حافظ عضو المجمع كلمة في استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح وتبعه الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح بإلقاء كلمته .
وفيما يلي نص الكلمات التي أقيمت في الحفل .

في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء الموافق ٢ من ديسمبر سنة ١٩٩٢ م أقام المجمع حفلاً لاستقبال ثلاثة أعضاء علميين جدد ، هم :
- الأستاذ الدكتور سيد رمضان هدارة
- الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد
- الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح
وقد بدأ الحفل بكلمة الأستاذ الدكتور محمود مختار في استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور سيد رمضان هدارة ، وتلاه الأستاذ الدكتور سيد رمضان هدارة فألقى كلمته .

كلمة المجمع فى استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور سيد رمضان هدارة

للأستاذ الدكتور محمود مختار

عضو المجمع

أضحى اليوم علما من أعلامها استحق
عليه شرف الانتماء إلى هذا المجمع العريق
عضواً عاملاً فيه .

عمل الدكتور سيد رمضان هدارة
خبيراً علمياً بالمجمع فأ اللغة العربية
العلمية بإنتاج وافر متميز فى مجال
حضارى هام ، مجال يضعها فى مصاف
اللغات المتقدمة فى العلوم والتقنيات الحديثة
كما ظلت هى اللغة الرائدة فى العلوم
الإنسانية والأدبية والاجتماعية على مدى
قرون طويلة .

وانى إذ أقوم اليوم بتقديم زميلى
وأخى وابنى الدكتور رمضان هدارة عضواً
عاملاً بمجمع الخالدين أذكر كلمة ما رالت
تتردد فى سمعى ، قالها رائد الفيزيقا
الأول فى مصر الأستاذ مصطفى نظيف
عند اختياره للدكتور سيد رمضان هدارة
خبيراً علمياً به عام ١٩٧٠ أى منذ أكثر من

السيد الأستاذ الكبير الدكتور إبراهيم
مدكور رئيس المجمع :

السادة الزملاء الأجلاء أعضاء
المجمع : سيداتى وساداتى ضيوف الحفل :

إنه لشرف أعتز به أن أنوب عن مجمع
اللغة العربية العريق فى إلقاء كلمة
الاستقبال والترحيب بدخول نجم من نجوم
اللغة العربية العلمية إلى محرابه ليتبوأ
مكاناً بين ساداته ويحظى بشرف خدمة
اللغة العربية الخالدة بخلود القرآن الكريم ،
ذلك هو الأستاذ الدكتور سيد رمضان
هدارة ، الذى أتوجه إليه بخالص التهنئة
والتقدير على هذا الاختيار الذى صادف
أهله ، والذى توج به عطاءاته وإبازاته
المطرده للغة العربية العلمية على مدى امتد
لأكثر من نصف قرن من الزمان منذ أن
تخرج فى كلية العلوم بجامعة القاهرة
وتجلت موهبته العلمية واللغوية حتى

عشرين عاما ، إذ قال : "أهدى المجمع
زهرة ناضجة في العلم واللغة" . كانت
كلمته هذه وساما يسجل له مكانته العلمية
واللغوية معا ويشير بمستقبل وضاء تحقق
اليوم في خدمة المجمع واللغة العلمية
العربية .

والمجمع إذ يستقبل اليوم الدكتور سيد
رمضان هدارة عضوا عاملا به يستحق هو
أيضا التهنئة على حسن اختياره للأستاذ
الذي جمع بين العلم التطبيقى الحديث
وماحققه من منجزات خارقة وبين اللغة
العربية الأصيلة ومالها من قدرات على
التجدد المستمر ومواكبة ركب الحياة الحديثة
في كل زمان ومكان واتخاذ مكان لائق بين
لغات العالم المتحضر .

وقد بدت المكانة العلمية للدكتور سيد
رمضان هدارة تزهو منذ عام ١٩٤٢
بتخرجه في كلية العلوم طالبا متميزا في
الفيزيكا والرياضيات ثم باحثا علميا في
الفيزيكا في مصر ثم في إنجلترا متخصصا
في أحدث مجالات الفيزيكا وأهمها وهو
الأشعة الكونية التي نعلم أنها تغمر الأرض
قادمة من أغوار الكون السحيق حاملة معها
العديد من أسراره وخبائاه التي تنم عن

الإعجاز المتناهي في الخلق والإبداع ،
وأقام الدكتور رمضان هدارة أول تلسكوب
لرصد هذه الأشعة الكونية في مصر
لدراسة طبيعتها ومكوناتها وبخاصة ما
تخويه من ميزونات أى الجسيمات المشحونة
الأولية ذات الكتلة المتوسطة بين الإلكترون
والبروتون . وكانت مدرسته هي أولى
المدارس البحثية في مصر والبلاد العربية
في هذا المجال .

ولما تجلت مواهبه العلمية ، تم اختياره
لإنشاء أول معهد قومي للفيزيكا خارج
الجامعات وهو المعهد القومي للقياس
والمعايرة عام ١٩٦٥ ليكون حجر الزاوية
في خدمة جميع البحوث العلمية والتطبيقية
والصناعية التي تعتمد على القياس الدقيق ،
وما زال المعهد صرحا من صروحنا العلمية
الشامخة . وترالت إنجازات الدكتور
رمضان هدارة ونضجت قدراته العلمية
فاختير أمينا عاما لأكاديمية البحث العلمي
والتكنولوجيا لتنشيط إقامة مدارس
للبحوث التطبيقية فيها ، وكان يطلق عليه
دينامو الأكاديمية ، وعند إنشاء وزارة البحث
العلمي عين الدكتور رمضان هدارة وكيلا
أول لها للإسهام في إرساء سياسة البحث

العلمى على أمس ثابتة ومستقرة لخدمة الاقتصاد القومى ووضع السياسات العلمية للبحوث المتقدمة ، ومن الجدير بالذكر أن هذه المراكز العلمية الرفيعة لم تشغله عن ممارسة نشاطه العلمى الأصيل ، فظل يوالى نشاطه أستاذا باحثا فى الإشعاعات المؤينة بالمعهد القومى للقياس والمعايرة حتى اليوم ، وقد وضع فيه حجر الأساس لإنشاء معهد قومى للإشعاع وقياساته .

وللدكتور سيد رمضان هدارة بصمات واضحة أخرى فى العديد من الهيئات العلمية فهو عضو مجلس بحوث العلوم الأساسية بالأكاديمية ، وهو نائب رئيس اللجنة القومية للفيزيكا فى مصر و عضو مؤسس لها . وعمل فى عدد من الهيئات والجمعيات العلمية ؛ منها الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والفيزيقية والجمعية الفيزيقية المصرية ، وهو من أنشط الدعاة إلى التعريف بأهمية العلم وعلاقته بالمجتمع ، حتى سجلت أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا اسمه بين رواد العلوم الفيزيقية فى مصر فى كتابها عن تاريخ العلوم فى مصر .

سيدى الرئيس - سادتى :
هذه صورة مقتضبة عن الدكتور سيد رمضان هدارة الأستاذ العلمى الفيزيقي .
أما صورة الدكتور سيد رمضان هدارة الأستاذ العلمى اللغوى فهى لا تقل بهاء وبريقا . فقد شغل منذ أمد بعيد بقضية القضايا فى العالم العربى وهى قضية اللغة العربية العلمية وتعريب العلوم حتى أصبح من أكبر دعائها ، إيمانا منه بأن اللغة العربية هى الأمة العربية ، وأن العلم ليس دخيلا على هذه الأمة ، بل هو عنصر أصيل كامن فيها ، وفى هذا يقول الدكتور سيد رمضان هدارة فى أحد أحاديثه : إن اللغة العربية التى ظلت على مدى العصور لغة الدين والأدب والإنسانية والاجتماع صالحة صلاح الإسلام نفسه فى جميع جوانبه لحياة البشر ، لا يمكن أن تعجز أو تتخلف عن ارتياد آفاق العلم التطبيقى الحديث بنفس القدرة والكفاءة ، وهى وإن كانت قد تأخرت بعض الوقت عن هذا الركب الحضارى تحت ضغط الهجمات الاستعمارية الشرسة إلا أنها مارالت تحتفظ فى داخلها بعنصر الأصالة الكامن فيها ، أما المزايم التى ينادى بها بعض أعدائها بقصورها عن مجاراة العلوم الحديثة فتلك

هي سياسة الغالب تجاه المغلوب ؛ لضمان تبعيته اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا . ويوالى الدكتور سيد رمضان هدارة رفضه القاطع لمثل هذه المزاعم السقيمة بكلمة فيها شيء من المرارة يقول فيها : " قد يكون من الطبيعي أن نسمع هذه النغمة المرذولة من أعداء يكيدون للأمة العربية ولكن المفرح حقا أن يكون نفر من بين هؤلاء الأعداء من بنىها عن قصد أو غير قصد " .

كل هذه الآراء والمزاعم عبر عنها الدكتور سيد رمضان هدارة ورددتها في عدد من المؤتمرات والندوات والإذاعات والمجلات في أسلوب عذب قوى . ومن بين كلماته الماثورة عن تعريب التعليم بالكليات العملية الجامعية : " إن تلقى العلم بلسان أجنبي كارثة بعيدة المدى لإعاقة التقدم الحضارى ودعوة مرذولة لنشر التبعية والانتماء الفكرى وجريمة في حق اللغة العربية " .

ولم تقتصر جهود الدكتور سيد رمضان هدارة على الأحاديث والمجلات بل إنه أيدها وأرساها بجهود علمية بناءة فقد كان يحاضر في موضوعات الفيزيكا بالعربية فى الصفوف الأولى بالجامعة وبالإنجليزية فى الصفوف العالية ، وكان

قريبا لنفوس طلابه تلين فى عباراته أعقد المسائل بأى من اللغتين . وألف فيها الكتب الدراسية وترجم العديد من الكتب العلمية المرجعية أذكر منها .

- الطبيعة النووية لهيزنبرج وبه ٣٣٦ صفحة ونشر عام ٥٦

- الفيزيكا للجامعات (هارفى هوايت) وبه ١١٠٠ صفحة ونشر عام ٦٤

- تجارب فى الذريات (برانلى) وبه ١٩٠ صفحة ونشر عام ٦١

- أصوات لاتسمع (فوق السمعيات) (فدريا نستف) ١٨٣ صفحة ونشر عام ٥٧

- مقدمة فى الفيزيكا الذرية والنووية (سمات) ٩١٥ صفحة ونشر عام ٦٧

- المبادئ الأساسية فى الفيزيكا الذرية (بيرنجر) ٥٩٠ صفحة ونشر عام ٦٢

ومن تأليفه : خواص المادة والصوت ١٧٠ صفحة عام ٦٠

- الكهرباء المغنطيسية ٣٢٤ صفحة عام ٦٢

ولم ينس الناحية الثقافية العلمية فى أعماله فكتب فيها وترجم العديد من الكتب العلمية العالمية الثقافية أذكر منها :

- آفاق العلم (باول) ٢٤٣ صفحة نشر عام ٦٠

اختيار المصطلح العلمى العربى ، يقول فيها : "إن السلوك العلمى للفظ قد يكون مطاذا فى بعض التعبيرات الأدبية أو الشعرية أو الفنية التى تتطلب أحيانا تجاوز الدلالة الظاهرة إلى دلالة مجازية أو إيحائية لإضفاء لمسة جذابة من الجمال عليها ، إلا أن اللغة العلمية لها أسلوب محدد صارم الدلالة لا يقبل الإيحاء أو الغموض أو اللعب بالألفاظ تحت أى مسمى" .

وقد شارك الدكتور رمضان هدارة فى وضع أسس اختيار المصطلح العلمى بالترجمة وبالتعريب بما يضمن سلامة البنيان اللغوى العربى للمصطلح والتعريف بمدلوله تعريفا علميا معجميا سلسا .

بهذه الآراء والأعمال شارك الدكتور سيد رمضان هدارة فى إخراج عدد من المعجمات العلمية الفيزيائية بالمجمع أذكر منها :

- معجم الفيزيكا النووية والإلكترونيات ١٢٠٠ مصطلح
- معجم الفيزيكا الحديثة (جزآن) ٥٠٠٠ مصطلح
- معجم المصطلحات النووية للجنة الطاقة الأمريكية ١٠٠٠ مصطلح .

- المعرفة والتساؤل (فايسكوف) ٢٥٣
صفحة نشر عام ٦٢

- رحلة إلى الفضاء (دوبرى) ٢٥٧
صفحة نشر عام ٦٢

- كوكب اسمه الأرض (جاموف)
٢٨١ صفحة نشر عام ٦٦

- حملة مشاعل التكنولوجيا (منستر)
١٦٧ صفحة نشر عام ٦٦

- الحياة والطاقة (أريموف) ٤٥٨
صفحة نشر عام ٦٨

- هذا الهواء وهذا الماء (بلزويرت)
٢٠٦ صفحة نشر عام ٦٧

- الذرات والطبيعة والإنسان (هانز)
٦١٠ صفحة نشر عام ٧٢

ومن مؤلفاته الثقافية :

- الضوء والألوان ٧٣

- قصة الطيران ٧٢

- الزمن ٧٣

- الطاقة الذرية ٧٣

- باقة من الأضواء ٧٤

وعندما توج جهوده بانضمامه إلى مجمع اللغة العربية خبيرا علميا شارك مشاركة فعالة فى وضع مصطلحات الفيزيكا الحديثة والتعريف بها . وله آراء بناءة فى

وعنى الدكتور سيد رمضان
هدارة بموضوع الرموز التعبيرية
والرسوم الإيضاحية والبيانية
وكتابة المعادلات الرياضية باللغة
العربية بأسلوب يتفق وطبيعتها
ويفى بمتطلبات التطبيقات والتقنيات
الحديثة ، وقد شارك فى إخراج
كتاب الوحدات والدالات
والرموز للمجمع . وهو يشارك
حاليا فى إخراج أكبر موسوعة
للفيزياء الحديثة سوف تشمل ٢٥ ألف
مصطلح .

وسيداتى سادتى :

من أجل هذا التاريخ الحافل
وهذا الإنتاج المتميز وهذه الجهود
الوضاءة فى خدمة اللغة العلمية العربية
اختار مجمع اللغة العربية الدكتور سيد
رمضان هدارة وهو يرحب به ويستقبله
اليوم عضوا عاملا يشغل كرسيه فى مجلسه
بين رواده وسدنته عن جدارة ، فهنئنا له
وللمجمع .

والله تعالى الموفق والمعين .

محمود مختار

عضو المجمع

كلمة العضو الجديد الأستاذ الدكتور

سيد رمضان هدارة :

في حفل استقباله عضوا بالمجمع

عجزوا عن رؤية ما فيها من قدرات
تستطيع بها مسaire كل عصر وكل حضارة.

سيداتى وسادتى :

لقد قدمنى أستاذى الدكتور محمود
مختار بما رآه فى من صفات ، وهذه هى
رؤية عين الرضا ، وإنى أقولها كلمة حق
إنه لولا أستاذى الدكتور مختار ما
استطعت أن أخطو خطوة فى مسيرتى
خلال الخمسين عاما الماضية ، فهو الأب
الجنون والمعلم الأمين والحل الوفى يسعد
بدفع أبنائه وتلاميذه وخالانه قدما ويزهو
بهم ، يمدهم بالعلم والنصح ما وسعه
ذلك . وإنى لأدعو الله أن يتمتع بالصحة
والعافية ، وأن يحقق له الدعوات
الصالحات التى يدعو له بها الأعداد التى
لا حصر لها من أبنائه وتلاميذه لما أمدهم به
من فيض علمه وكرمه .

سيداتى وسادتى :

شاء الله أن أخلف عملاقا عظيما ،
هو أستاذنا الراحل عبد السلام هارون

أستاذى الدكتور إبراهيم مذكور
رئيس المجمع :

الأساتذة أعضاء المجمع :

سيداتى وسادتى :

قيض الله لى شرف الانضمام إلى
مررتكم وجعلكم السبب ، فله الحمد
والشكر ، وإنى لأسأله جلت قدرته أن
يجزيكم عنى خير الجزاء ، فمهما أوتيت
من قوة البيان فلن أستطيع أن أوفيكم
حقكم من العرفان بالجميل ، الجميل الذى
بلغ ذروته بمنحى شرف صحبتكم فى أداء
الرسالة المقدسة التى وقفتم حياتكم عليها .
لقد ظللت أكثر من عشرين عاما أعمل فى
رحاب مجمعنا هذا ، أنهل من فيض
علمكم وأقتدى بكم وأسترشد بحكمتمكم ،
وما أنتم الآن تمنحوننى فرصة مواصلة
المسيرة وتحققون أمنية غالية كنت أدعو الله
دائما أن يحققها لى بأن أكون من خدام
لغتنا العريقة ، وأسهم فى إزالة ما علق بها
من غشاوة حجبت ثراءها ورحابتها عن

رحمه الله ، وهذا شرف أزهو به ، ولكنى أشفق على نفسى من العبء الذى يقتضيه هذا الشرف .

فإننى أعتقد أن الخلف محمل بأمانة ومسئولية ضخمة ، أقل ما فيها أن يتخذ من سلفه قدوة ، وأن لا يكون أبطاً منه خطى ، ولا أقل عطاء . وهذا هو ما يؤرقنى فنحن أمام عملاق فى العلم والأدب والأخلاق والعطاء قلما يوجد له مثل ، فسيرته مليئة بالأعمال والمنجزات التى لا يضارعه فيها إلا القليل ، وإنى لأدعو الله أن يهبنى القدرة على أن لا يكون مستوى أدائى بعيدا بدرجة كبيرة عن مستواه .

وإننى لن أستطيع تناول سيرته العطرة فى هذا المجال لسببين أولهما : أن أى إنسان مهما أوتى من بيان لا يستطيع تلخيص هذه السيرة الثرية بالأعمال والمواقف تلخيصا يوفىها حقها فى الدقائق المتاحة ، والسبب الثانى هو أنكم ومجتمع المتخصصين أدرى الناس بالدرر التى تركها هذا العالم الجليل ، وفيض النور العظيم الذى أضاء به التراث لينهل منه كل من أراد أن يصل ماضينا بحاضرنا ، ولكنى أستأذنكم فى أن أتحدث عن بعض الخواطر

التي تخطر بسبالى كلما مر هذا الرجل بذاكرتى وكلما استعرضت سيرته العطرة ، فهى مليئة بالنقط المضيئة التى تبهر العيون وتستحث الإنسان على أن يتخذ قدوة . فبادئ ذى بدء إننى أعتقد أن الله قد اصطفى هذا الرجل وجعله من الأخيار ، فلقد أنبته نباتا حسنا فى أسرة ذات فضل وعلم فهياه بذلك للقيام بما قام من أعمال وما أخرج من درر ، وإلا فكيف نفسر اختياره مهنة من أشق المهن فى الأدب ، وهى مهنة تحقيق التراث التى تتطلب صبرا وأناة وأمانة بالإضافة إلى القوة الجسمانية ، وهى فى اعتقادى أشق من الدراسات الأدبية والإبداع والترجمة إذا أنها تتطلب فهما عميقا لأصول اللغة ومعرفة وثيقة بمؤلف الكتاب وأسلوبه ، واستيعابا للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والشعر والشعراء والنثر والكتاب ، وما إلى ذلك من معلومات ومعارف لا يستغنى عنها المحقق المدقق ، هذا بالإضافة إلى المشقة البدنية فى قراءة المخطوطات ومقابلة النسخ المختلفة للمخطوط الواحد ، والتحقق من التحريف والتصحيح ، وبالرغم من هذه المشقة كلها فقد حقق ما يربو على ١١٥ كتابا وذيلها بالفهارس ، وجددير بالذكر أن

بصماته واضحة على فن الفهرسة وإبداعه فيه لا يخطئه أى باحث ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كتب المقالات ، وأنتج البحوث وألف الكتب . لقد بدأ التحقيق وهو فى السادسة عشرة من عمره وظل يحمل الأمانة حتى توفاه الله وهو على أعتاب الثمانين ولم يشأ أن يؤثر نفسه بهذه الخبرة فى التحقيق فألف كتابا فى تحقيق النصوص ونشرها ليكون هاديا لمن يجد فى نفسه القدرة على انتهاج هذا النهج ، ولقد قدره المجتمع العلمى واعترف بعلمه وهو لا يزال شابا . ولعل أوضح دليل على ذلك انهيار القواعد والتقاليد الجامعية أمامه ، فلقد انتقل من مدرس ابتدائى إلى مدرس بكلية الآداب فى عام ١٩٤٥ أى بعد تخرجه فى دار العلوم بثلاثة عشر عاما ، ثم تدرج فى سلك الوظائف الجامعية حتى الأستاذية ، ومن آيات التقدير أن مجمعنا هذا منحه جائزته الأولى فى التحقيق والنشر عام ١٩٥٠ ، كما ظفر بجائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب عام ١٩٨١ .

ولقد كان إلى جانب ذلك كله إنسانا ورعا عطوفا ، وسيرته مليئة بالمواقف التى تتجلى فيها رعايته لتلاميذه ونصبرته للحق ، ولعلكم بعد هذا كله تتفقون معى على أنه

كان مصطفى وكان من الأخيار ، وأنه قدوة حسنة ، وطوبى لمن اقتدى به ونهج نهجه . سيداتى وسادتى :

لقد قضيت فى رحاب المجمع كما أسلفت أكثر من عشرين عاما ، عملت خلالها خبيرا بلجنة الفيزيكا ، وتعلمت الكثير من أساتذتى الذين أعتز بالتلمذ لهم ، وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، أستاذ الفيزيقيين الأستاذ مصطفى نظيف رحمه الله ، وأستاذى الفاضل الدكتور محمود مختار أمد الله فى عمره ومتعته بالصحة والعافية ، وأستاذى الدكتور محمد مرسى أحمد رحمه الله والأستاذ الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش رحمه الله والأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس رحمه الله وأستاذى الفاضل الدكتور شوقى ضيف متعه الله بالصحة والعافية . لقد تعلمت منهم جميعا أصول المهنة ، وأدعو الله أن يوفقنى لأريد من جهدى وأسهم فى مجالات أخرى غير مجال الفيزيكا ، وأعاهد الله على أن أبذل ما وسعنى من جهد فى خدمة لغة القرآن الكريم ، وأن أكون عند حسن ظنكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سيد رمضان هدارة

عضو المجمع

كلمة المجمع
في استقبال العضو الجديد الأستاذ الدكتور
عبد الحافظ حلمي محمد
للأستاذ الدكتور محمد يوسف حسن
عضو المجمع

استيعاب العلوم الطبيعية تدریساً وبحثاً .
وشواهد هذا الحب وهذا الإيمان متمثلةً
بجلاءٍ في إنجازاته الكثيرة في هذا المجال :
من كتبٍ مؤلّفةٍ ومترجمةٍ ، ومن بحوثٍ
ومقالاتٍ علميةٍ نشرتها له كبريات
المجلات ، واستضافته من أجلها مؤتمرات
وندوات في العالم العربي وخارجه؛ ومن
تبحرٍ في تاريخ العلم العربي ، وعضوياتٍ
مرموقةٍ في هيئاته ومحافله ، وأبحاثٍ
أصيلةٍ وفريدةٍ فيه؛ أما إنجازاته العلميةُ
المتخصصةُ فغزيرةٌ وثريةٌ ومتميزةٌ ومنشورةٌ
في مجلاتٍ علميةٍ عريقةٍ متشرةٍ في أطوال
العمورة وعروضها : بمصرَ والهند
والولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ،
ورومانيا وهولاندا والكويت . وأما عضوياته
العلميةُ والأكاديميةُ فمتنوعةٌ ومرموقةٌ في
مصر وفي خارج مصر .

ذلكم ، أيها السادة ، هو ،
عبد الحافظ حلمي محمد الذي تحدث

الأستاذ الدكتور إبراهيم مذكور
رئيس مجمع الخالدين :
السادة الخالدون أعضاء المجمع :
أيها السيدات والسادة ضيوفنا الكرام :
إنه ليومٌ جدٌ عظيمٌ ومرموقٌ من أيام
مجمع اللغة العربية المجيدة ، نستقبل فيه
عضواً جديداً عظيماً ومرموقاً . هو علم
من أعلام البيولوجيا ، مرجع عالميٌ من
مراجع علم الأحياء الدقيقة وطفيليات
أمراض الحيوان منها على وجه الخصوص ،
أكاديميٌ ثبتٌ ، معلّمٌ فذٌ ، حاذقٌ لفن
الصحافة العلمية ، أسطورةٌ في تبسيط
العلوم الطبيعية والتثقيف العلمي
للجماهير ، مترجمٌ موهوبٌ فنانٌ . وهو
أيضاً محبٌ للغة العربية الشريفة ، متيمٌ
إثرها ، كلفٌ بتقصي أسرارها ، صارمٌ
الالتزام بقواعدها وأصولها ، منقّبٌ عن
كنوزها ، خيرٌ بمعادن جواهرها ، عارفٌ
ببِحور لآلئها ؛ عميقٌ الإيمان بقدرتها على

الإنجليز منذ نيّفِ وثلاثين سنةً في كبريات دورياتهم العلمية عن رسالته للدكتوراه عندما نشرتها له كاملةً جامعة القاهرة باللغة الإنجليزية التي كُتبت بها ؛ فأشادوا بها عَرَضاً ونقداً وتقريظاً . وطار اسم «محمد» في الآفاق العلمية هناك بعد هذا العرض ، « ومحمد » هو اسم الشهرة العلمي لعبد الحافظ . وأشاد الباحثون والمطبّقون في تخصص مالاريا الطيور في بحوثهم ودراساتهم بتعبيرات مثل «بنية محمد» لطفلي كذا وكذا ، وغير ذلك من تعبيرات علمية تقترن باسمه في هذا المجال . ذلكم : عبد الحافظ حلمي محمد الذي عاد من بعثته العلمية في بريطانيا إلى مصر في أول العَقد السادس من القرن ليتدرج في مناصب الجامعة حتى تولى عمادة كلية العلوم بجامعة عين شمس في أواسط السبعينيات ؛ والذي تشعب وتنوع نشاطه الأكاديمي في الجامعة ، وفي الجمعيات العلمية ، والمؤتمرات ، ومحافل الفكر والثقافة ، ومضامير الصحافة العلمية والتثقيف العلمي للجماهير ؛ فكان فيها كلّها العضو المبرّر ، أو المقرر الحاذق ، أو المستشار السديد الرأي ، أو الخبير النابه

أو نائب الرئيس . شغل هذه المناصب في : المجمع المصري للثقافة العلمية ، في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، في أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا ، في جمعية علم الحيوان المصرية وأختها البريطانية ، في الأكاديمية المصرية للعلوم ، في مجلة «العلم» المصرية رائداً من رواد تأسيسها ومستشاراً لها منذ أول السبعينيات حتى اليوم ، وفي مجلة «العلوم» الأمريكية محرراً مرموقاً ومترجماً مُجيداً ، وفي جمعية تاريخ وفلسفة العلوم المصرية أميناً عاماً بل راعياً دائماً .

هذا ، أيها السادة ، « عبد الحافظ حلمي محمد » الذي لم يغب بعيداً عن وطنه منذ عودته من بعثته العلمية ، باستثناء مشاركاته في المؤتمرات العالمية التي يدعى لها ، إلا بعد تاريخ حافل يانع الثمر في خدمة الجامعات والهيئات العلمية والثقافية بمصر ؛ وإلا بعد أن توطدت مكانته الأكاديمية وذاع صيته العلمي ، وتخرجت على يديه أجيال من قادة البحث العلمي في وطنه الآن . وعندئذ لبي دعوة من دولة عربية ناشئة في مجال التعليم العالي والبحث الجامعي فأمضى بها

سنوات قدم فيها خدمات علمية جلية ،
وأسهم بسخاء ونجاح في إرساء قواعد
التعليم العالي والبحث العلمي والثقافة
العلمية الجماهيرية بها ؛ كما خدم هناك
اللغة العربية في مجال الاستعمال العلمي ،
أسهم في كل هذه الميادين بأثار مشهودة ،
مشكورة له ومذكورة ، ثم عاد إلى الوطن
أستاذًا متفرغًا في جامعته التي شهدت أوج
لمجاراته وإمجازاته ؛ عاد مرغوبًا في خدماته
وخبراته هنا وهناك من كل المؤسسات التي
أخلص لها العمل وأدى الأمانة ، سواء
منها التي بالوطن أو التي في الخارج ، وإن
القائمين عليها ليقصدونه دائما أو يرأسونه
طامعين في توجيهاته وآرائه وخبراته .

وما إن عاد عبد الحافظ إلى الوطن
حتى عاوده الشوق القديم يدفعه بكل
حرارة إلى محط اهتماماته وأحب معاهد
نشاطاته إلى نفسه ، إلى مجمع اللغة
العربية ولجنة علوم الأحياء به ، التي عمل
بها خبيراً منذ أول السبعينيات ، فأخلص
وتفاني وأبدع عدة سنوات حتى اخترتموه
عضواً بين الخالدين .

هذه، أيها السادة ، أضواء خاطفة
فقط على منجزات عبد الحافظ حلمي

العلمية ، ونشاطاته الثقافية ، واجتهاداته
في اللغة العربية لغة للعلوم ، وجهوده في
نشر الثقافة العلمية ، لم أعد فيها
بالتفصيل أو الترتيب الزمني شهادته
والقابه العلمية ووظائفه التي تقلدها
وأبحاثه التي أنجزها ونشرها طوال أربعة
عقود من الزمان ، ولم أحص فيها كتبه
ومترجماته ورياداته في الصحافة العلمية
المحلية والعالمية ؛ فهذا كله كان بين أيديكم
في ثبّت وافٍ مضمّن بتاريخه العلمي
والوظيفي إبان ترشيحه لنيل عضوية
مجمعكم الخالد . لكن ما هو جدير بالآ
يفوتني التنويه به هنا والذي لا تسجله مثل
هذه الأثبات الرسمية هو عبد الحافظ
حلمي الإنسان ، والصديق ، ورجل
المواقف الشجاع العاشق للحق ،
وعبد الحافظ المربي والشخصية الموسوعية
والثقافية .

وهيات أن يكفى الوقت المتاح في
هذا المقام للإحاطة بكل ما ذكرت من شيم
كرام ؛ وهو فيها جميعا كرام عن كرام
فقد كان والده - عليه رحمة الله - مربيًا
نموذجيًا ذا تاريخ مشرف في مجال
التعليم ، كما كان أيضا محاميا فذاً موهوباً

ذا حجة ساطعة وتاريخ حافل في عالم المحاماة ، بعد أن ترك مهنة التعليم . وقد كاد عبد الحافظ أن يرث مهنة المحاماة عن والده من شدة ما طُبع عليه من حب في دعم الحق وإظهاره لولا التحاقه بكلية العلوم . ولالتحاقه بها قصة طريفة ، فقد كان والده - رحمه الله - يرقب دون تدخل اختيار ولده لتخصصه في السنة النهائية من المرحلة الثانوية . ويبدو أن الوالد كان مرتاحاً لاختيار الفتى شعبة الآداب ودخوله فصلاً فيها أنشأته المدرسة خاصة لمن يرغب التخصص في اللغة العربية . ويعترف عبد الحافظ أن الناقد من أصحابه أنكروا عليه هذا الاختيار ، وتكاثروا عليه متساءلين هل يرضى أن يمضي حياته معلماً للغة العربية ؟ ويعترف أيضاً أنه لا يدري لماذا لان لهم فنقل نفسه إلى شعبة العلوم ، ويبدو أن الوالد لم يرض في أول الأمر عن هذا التحول حتى التحق الفتى بكلية العلوم ، ودرس علم الحيوان ، فرآه الوالد فيما يرى النائم يذبح جملاً ويُخرج من جوفه أشياء كثيرة ناصعة البياض ، فأول الرؤيا بأنها خير كثير يكتبه الله لولده في دراسة علم الحيوان ، وقد تحققت الرؤيا ، ولو أن الوالد في بعض المناسبات اللاحقة قال لولده إنه كان يصلح لدراسة القانون والاشتغال بالمحاماة ، فجاء

رد الفتى بروح المحامى الأريب مدافعاً عن اختياره في الوقت نفسه غير منكر ميله واستعداده الفطري ، قال : « يا أبت إن القوانين الوضعية من صنع الناس ، أما الكائنات الحية التي اخترت دراستها فهي من صنع الله ، وأنا أحب أن أدرس مخلوقات الله » . ومع ذلك فإن عبد الحافظ مارس مهنة المحاماة بالفعل بعد أن تخرج وصار أستاذاً لعلم الحيوان ! وإن كان ذلك بطريقة غير مباشرة . فقد أتاه صديق ذات يوم متلبلاً بال من قضية له كان يائساً من إثبات حقه فيها ، فلما اقتنع عبد الحافظ ببراءته عكف على أوراق القضية وأعد مذكرة قدمها الصديق للمحكمة فكانت سبباً مباشراً لكسبه القضية . هذا موقف كان بساحة المحكمة ، لكن عبد الحافظ وقف نفسه دائماً على الذود عن الحق ومساندة أصحابه في كل مجال وبكل جهد وصدق .

وإذا تحدثت عن عبد الحافظ الإنسان فإنني أبخسه حقه إذا ظننت أنه يمكنني أن أجلى ولو بعض جوانب إنسانيته الراقية في دقائق معدودات . وإنني لأحار فأسائل نفسي : هل أتكلم عن حلمه أم عن مروءته ونجده ، أم أتكلم عن المفهوم العالى للصدقة عنده ، أم أتكلم عن إثاره أم عن بشاشته وهشاشته ؟ أم أتكلم عن

تواضعه ؟ أم عن إيمانه وحسن تدينه ؟ أم
أتكلم عن وفاته ؟ لكننى أختار هنا بعض
الجوانب من كل هذا . فإذا ذكرت البذل
والإيثار ، فهو مثال فيهما لم نعد نسمع
عنه إلا فى كتب التراث . فما عرفت
طوال خمسة وثلاثين عاما من صداقتى له
أنه تقاعس يوما عن خدمة إنسانية يمكنه
القيام بها سواء فى صورتها المعنوية أم
المادية ، بل إنه ليذكرنى فى هذه الخلة بهرم
ابن سنان الذى قال فيه زهير بن أبى
سلمى : « تراه ، إذا ما جئته ، متهللاً

كأنك تعطيه الذى أنت سائله »
فقاصدوه من أصحاب الحاجة وطالبي
المشورة لا يخيب قصدهم عنده أبداً ،
يلقون عنده البذل الدافع والرأى النافع ،
مضافا إليهما الابتسامة الحلوة والكلمة
الطيبة والتمنيات الصادقة .

أما عن أمثلة وفاته فهى كثر ، وأبرزها
حديثه عن شيوخه ومعلميه وذكره الدائم
لهم ، وعلى رأسهم معلّمه الأول والده
عليه رحمة الله . كم سمعت منه عن
أمثال عبد الحميد النجاني ، وعلى الجندى ،
وأحمد فؤاد الأهواني من معلميه الذين
أثروا فى حياته فى مرحلة ما قبل الجامعة
ومن أمثال كامل منصور ، ومحمد ولى ،
وحماد الحسينى ، و شورت ، رحمهم الله ؛
ورشاد الطوبى ، ومحمود حافظ ،

وجارنام : أطال الله فى أعمارهم ومتعهم
بالصحة من شيوخة الكبار فى مرحلة
الجامعة ، يذكر لهم فضلهم دائماً ويشيد
بعلمهم ويثنى على خلقهم .

أما عن مفهومه للصدقة ، فأنا
أعرف الناس به ، فإنه ليعرف المعنى
الاسمى لها ، وإنه ليستमित ويضحى
بالكثير فى سبيل الحفاظ عليها . وإنه
ليخلص لصفية النصح فيصارحه بخطئه إذا
كان مخطئاً ويحذره ويصبره ؛ وإنه
ليشجعه بكل حماس ويسانده بكل قوة إذا
رآه على جادة الحق . تقصده لتسرّ إليه
بذات نفسك فيحفظ السر ويمنحك المشورة
والرأى الصائب ، وتلجأ إليه بهمومك من
أزمة أو محنة فتجد عنده القلب المفتوح
الحانى ، وتجد عنده السلوى والمواساة
الصادقة ، والكلمة الحلوة التى هى بلسم
لجراح النفس .

لقد طالت زمالتى له على صداقة
متينة عمراً طويلاً نعمت فيها بكل هذا
الصفاء والنقاء والمروءة ؛ كنا صديقين
صدوقين فى السراء والضراء ، وفى اليسر
وحين الأزمات ، وكانت تدعم صداقتنا
وتزيدها وثوقاً اهتمامات مشتركة علمية
وروحية وحياتية ، وإن أقوى هذه
الاهتمامات التى ربطت بين هذه المناحى
جميعاً لهى حبنا المشترك للغة العربية ،

اللغة العريقة المشرفة بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، اللغة الفاتنة الساحرة فى فنونها وعلومها . كم التقينا وسعدنا باللقاءات فى خدمة لغة الضاد فى مجال تثبيت مكانتها وشق طريقها وتمهيدها للأداء العلمى : من تأليف وتبسيط للعلوم ، وترجمة لأمّهات الكتب العلمية حديثها وقديمها ، وإحياء وتحقيق للتراث العلمى العربى ، وتحرير للمقالات العلمية . وتخطيط وإصدار للمجلات العلمية ولم تعدم لقاءاتنا تلك فى رحاب الضاد جلسات سمر ممتعة واستمتاع بالروائع من نشر وشعر يرويها أحدنا ويستمتع الآخر أو يعلّق .

وجمعتنا أيضا صلوات أخرى فكرية طوال سنى صداقتنا فى مجالس أحيائها اهتمامنا المشترك بعلم الحياة حديثها وقديمها ، ويعلم الأرض : مهد الحياة ومهبط العقل ومسرح التطور . ومجال آخر كان يستهوينا الجلوس له ، ذلك مجال تاريخ العلوم الطبيعية وفلسفتها وبخاصة عند العرب . وعبد الحافظ أستاذ مبرر فى هذا المضمار . وأخيرا وليس آخرا لا أنسى مجال تبسيط العلوم والصحافة العلمية ، كم جلسنا وخططنا ويبحثنا ، وحلمنا . فتحققت الأحلام وصار معظمها اليوم واقعا ملموسا .

أما عن عبد الحافظ الشخصية الموسوعية فحدث ولا حرج ، هو طراز نادر فى موسوعيته ، تجدد ضالتك عنده فى أى مجال ، إن لم يكن فى الحال ، فبتزويدك بكتاب عنها أو مقال . سألوا برتراند راسل أعظم علماء وفلاسفة القرن العشرين عن المتخصص فأجاب : « هو من يعرف كل شيء عن شيء ، ويعرف شيئا عن كل شيء » ؛ وهذا خير تعريف لعبد الحافظ حلمى المتخصص المثقف ، الذى أقدمه لكم اليوم أيها السادة الخالدون ليأخذ مكانه علما بينكم ، يؤكد عظمة هذا المجمع الخالد فيما خلا وفيما سيأتى من السنين بمن يجتنب من قمم تجمع بين التعمق والعبقرية فى العلم ، وبين التمكن من اللغة وامتلاك ناصيتها . أقدم لكم الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمى محمد علما تفخر به ساحة الخالدين ، يعيد إلى الذاكرة عبقرية أحمد زكى ، وأستاذية مصطفى نظيف ، وموسوعية عبد الحلیم متتصر ، وتفردية حامد جوهر . عاش هذا المجمع قلعة للأعلام ومدرسة للأجيال

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد يوسف حسن

عضو المجمع

كلمة العضو الجديد
الأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد
في حفل استقباله عضوا بالمجمع

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين ، ولى التوفيق
والنعم ..
والصلاة والسلام على رسوله الأمين،
الذى أوتى جوامع الكلم .
سيدى الأستاذ الجليل رئيس المجمع :
سادتى النجب أعضاء المجمع :
أعجز عن التعبير عن عظيم امتنانى
لكم ، وقد أذنتم لى أن أنتسب إليكم وأن
أختلف إلى نادىكم ، بعد أن ظللت خيرا
بالمجمع يحوم حولكم ردحا من الزمان ،
ولا يلم بمجلسكم إلا بضع مرات كل عام .
ولكن ماذا يقول العيمى فى حضرة المصطفين
من أئمة الفصاحة وأمرء البيان ؟ ليس له ،
وقد انعقد لسانه ، إلا أن يدع فؤاده ينبض
بعظيم الشناء عليكم وصادق الدعاء لكم .
أما أخى ، الدكتور محمد يوسف
حسن ، فهو يطوق جيلدى بمآثر جملة :

قَدمنى إلى المجلس الأعلى للشؤون
الإسلامية منذ نحو ثلاثة عقود ، ثم زكَّانى
لديكم ، وما هو اليومَ يجمئنى ويُطربنى
وهو يقدمنى إلى حضرتكم . . . وتلكم
منه مئة أخرى ا وقد خلع على الأخ
الكريم من المديح ما لو صدقت بعضه
للمأنى تيهها وغرورا . . لوكم فى العرس
أبهى من عروس . وإنما هى عينُ الرضا ،
وإنما هو قلب الصديق المحب العطوف ،
جزاه الله وجزى أساتذتى فى لجنة علوم
الأحياء والزراعة ، عنى خير الجزاء ، ورحم
عَمَمين عظيمين منهم رحلا عنا هذا العام .
أيها السادة . . لقد كان طريقى إليكم
طويلا متشعب السبل ، ويضيق وقتكم
الشمين حتى عن التنويه ببعض معالمة ،
فاكتفى بلفظات .
منذ أكثر من نصف قرن من الزمان ،
كان الفتى فى الصف الرابع الثانوى ،

أوسنة شهادة الثقافة العامة . وذات صباح ،
جاء مفتش اللغة العربية (أو الموجّه ، كما
يتلفنون في وصفه هذه الأيام) ليختبر
التلاميذ وأستاذهم . وطلب المفتش من
يشرح قول الشاعر :

قَبَابٌ كَمَا تُزْجَى القَبَابِ عَلَى المَهَا

ولكن من ضُمت عليه أسودُّ

فبادر الفتى إلى الإجابة كما تعلّمها ،
ولكن بدا عليه أنه لم يقتنع ببعض ما فيها
فأردف على استحياء قائلاً : وكان
الأولى بالشاعر أن يقول : تُرْحَى القَبَابِ ،
لا تُزْجَى « . ولا بدُّ أن الفتى قد
أعجبه تقمُّصُ دور الناقد الأدبي ، كمن
كان يقرأ لهم في «رسالة» الزيات و«ثقافة»
أحمد أمين ، فاستطرد قائلاً : « ولعلها من
تصحيف النُسخ ! »

وهنا انعكس المفتش ، وكان سمهريّ
القوام ، وقال : «ما أسمك ؟» وخيل إلى
الفتى أنه قد دخل التاريخ وسُجِّل اسمه بين
رواد النقد الأدبي عندما دوّن المفتش اسمه
في مفكرته الرسمية ذات الغلاف السميك .

بل إن سذاجته صوّرت له أن هذه الواقعة
كان لها فضلٌ في فوزه في مسابقة الأدب
العربي التي عقدتها وزارة المعارف في
صيف ذلك العام !

وكان امتحانٌ تحريري ، ثم امتحان
شفوي رأس لجنته المجمعى الكبير الدكتور
طه حسين نفسه . وسأل أحد أعضاء
اللجنة الفتى : أظن أن طه حسين يستطيع
أن يكتب أدبا فكاهيا ساخرا ، إذا أراد ؟
فردّ الفتى دون تردد : «نعم ، إنه
يستطيع ، وشاهدي ما قرأناه له الآن في
كتاب الأيام ، وهو قوله : وكان الفتى
يمشى حافيا في نعلَيْه ! » قالها وعيناه
شاخصتان إلى عميد الأدب العربي . . .
وارتاح باله وهدأ رُوعه حين رأى ابتسامته
العريضة المشهورة ترتسم على وجهه .

وفي الربيع التالي ، سنة اثنتين
وأربعين ، تسلّم الفتى جائزته من وزير
المعارف ، أحمد نجيب الهملاي باشا ، في
حفل متواضع في ديوان الوزارة حضره أبوه
أستاذُه ، رحمه الله .

وكانت الجائزة منحة مالية ، ومنحة دراسية في الجامعة ، ومجموعة متقاة من كتب الأدب ، يتوجها مصحف شريف فخم الطباعة .. وتضم مجلدين من «العقد الفريد» ، ومجلدا من «إمتاع الأسماع» للمقريزي ، و «مع المنبى» لطف حسين ، و «ديوان حافظ إبراهيم» وجزءا من «شاهنامه الفردوسي» لعبد الوهاب عزام ، وكتابا مترجما ضخما عن «المجتمع ومشاكله» لجروف سامويل دأو ، وترجمة عربية لموجز تاريخ العرب لسيد أمير على ، وترجمة عربية لرواية «الطلسم» لسير وولتر سكوت ، وأخرى «اللسيمفونية الريفية» لتوماس هاردي ا

هذه كلها حزموها بشريط رقيق من سندس أخضر . ولم يكن هذا من الحزم في شيء ، فسرعان ما انفك الرباط ، وانفطت الكتب ، وبذل الفتى غاية جهده في لملتها بين ذراعيه الواهتين طوال الطريق . . . فلما بلغ البيت كانت يدها ترتجفان حتى انسكب على ملابسه قدح

القهوة الذي حاولت أمه ، رحمها الله ، إنعاشه به بعد هذا الإرهاق الشديد .
وقد عرف الفتى منذ ذلك اليوم أنه حُمِّلَ أمانةً ثَقِيلَةً !

وقد قَصَصْتُ عليكم هذه الحكاية ، وأنا أتمنى عليكم ، وأنتم رعاة العريية وسدنتها الأماناء ، أن يكون للمجمع قولٌ وفعلٌ في البحث عن الناشئة في التعليم العام من المهويين في اللغة العربية وتشجيعهم وتعهدهم . . هذا بين الأسباب الكثيرة التي أعلم أنكم تأخذون بها للنهوض باللغة العربية ورفع شأنها .

ثم لما كان ما كان من التحاق الفتى بكلية العلوم ، بدلا من كلية الآداب أو دار العلوم ، ودَّع الفتى هواه وظنَّ «الأ تلاقيا» ولكن خاب ظنه لحسن الخط ا . . . وذلك أنني بعد أن حزتُ الدكتوراه خرجتُ من وصاية كلية العلوم على ، مع ولائي لها ووفائي بحقوقها وحقوق العلم على ، وتأكدتُ لي أنني ، حيثما مضيت ، أحمل اللغة العربية في فؤادي وعلى

كاهلى الضعيف ، وتحملنى اللغة العربية على متونها القوية . فكانت اللغة العربية عُدَّتى حين قدَّمتُ مقررات بلسانها الفصيح فى كليات العلوم بمصر وبعض البلاد العربية الأخرى - وكليات العلوم لاتزال معاقل للعجمة والرطانة ، وحين كتبت وحاضرت منافحا وداعيا إلى تعريب تدريس العلوم فى الجامعة، وحين نقلت إلى العربية عدداً من كتب العلوم ميسرة للقارئ العربى فى أسلوب يبرأ من غربة أصله الإنجليزى ، على الرغم من التزامى المتزمت بالنص المترجم ، وحين ألفت للتعليم العام كتباً فى علم الأحياء بأسلوب يُقنع العقل ويستميل القلب . كذلك حين هممت لتسخير العلم لخدمة فهم تفسير القرآن الكريم والإسهام فى إعداد معجم علمى لألفاظه ، كانت اللغة العربية عونى فى ارتياد الكتب الجليلة الصفراء ، وفى تجنب مزالق التأويل المخالف للنص القرآنى الشريف . واللغة العربية هى التى مكنتنى من أن أفهم ويفهم عنى عندما شاركت فى

مجالس البحث مع علماء الدين وفقهاء اللغة . ولما اتجهت نحو تجلية جوانب التراث العلمى العربى كانت العربية هى الضوء الكاشفَ ومفتاحَ المُعمَّيات . وفى فلسفة العلم ، تظل الأفكار حيسةً مبهمة حتى تكتسى بأثوابٍ من العبارات البليغة الدقيقة ، ثم فى مجمعكم هذا الموقر كانت عريبتى ، وما زالت ، عُدَّتى وعتادى ، عندما أسهر الليالى الطوال منقبا عن مصطلحات عربية للعلوم المستحدثة ، متصيداً من ذخائر الفاظ اللغة الصَّحاح الملاح ! وهكذا كانت اللغة العربية معى دوماً وسيلةً وغايةً ، هى أشرف الوسائل والغايات . فاللغة العربية قد خدمت علمى ، كما أننى خدمتها بعلمى ، لأسهم معكم ، ومع رفاق هنا وهناك ، فى تجديد حيويتها ، وهى التى أراد الله لها الخلود بحفظ كتابه العزيز إلى آخر الزمان . ومن عجب أن كلية العلوم ، قد انتهت بى إلى حصن اللغة العربية الحصين . «إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» .

فهانذا بعد هذا السبح الطويل في
خضم الحياة ، أُرز إلى مجمعكم وألوذ به
في خاتمة المطاف ، مرددا قول راشد
السُّلَمي :

فألقت عصاها ، واستقر بها النوى
كما قرَّ عينا بالإياب المسافرُ
وقد وجدت بينكم نفسى ، كما
يقولون في هذه الأيام ، ولقيت عندكم
هواى المفتقد ، متغنيا مع أبى تمام :

نقل فؤادك حيثُ شئتَ من الهوى
ما الحبُّ إلا للحبيب الأولِ

أيها السادة الأجلاء : في هذا الزمان
الذى اتسعت فيه آفاق المعرفة الإنسانية ،
وتشعبت مباحث العلوم وأغرقت في
التخصص ، أصبح الإلمامُ بها ، بلَّةُ
التمكُّن منها ، ضربا من المحال . ولكن
مجمعكم يبلغ الكمال بتكامل أعضائه ،
فالجسد لا يحسن أداء وظائفه بتكرار
أعضائه المتشابهة ، وإنما بتنوعها . وقد
أعجبنى ما اقتبسه بعضهم عن ابن قتيبة ،
وهو قوله : «من أراد أن يتأدب فليتسع في

العلم» والعلم هنا هو كل علم وكل
العلم .

وفضلا عن شرف غايته ، يخلد
مجمعكم الكريم بلمسات البرِّ والوفاء ،
فهو جادٌ في غير جهامة ، حفى بأعضائه
الجدد ، يستقبلهم باشا حانيا ، كما أنه
يحسن وداع من يتقل منهم إلى دار البقاء .
وهو يقدم واجب الوفاء للراجلين على
الترحيب بالقادمين . ثم إن له سنَّة
حميدة، إذ أنه يوحى للخلف بذكر سلفه ،
وهذه لعمري حكمة بالغة .

وسبحان خالق الموت والحياة .
إننى أنضم إليكم شاغلا لمكان خلا
بوفاء عَلم من أعلام الاقتصاد في
مصر والعالم ، وهو المغفور له
الأستاذ الدكتور محمد زكى شافعى ،
الذى لم أسعد بلقائه ، ولكننى شرفت
بخلافتى إياه .

وقد تخرج سلفى العظيم ، المنصورى
النشأة ، فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ،
بمرتبة الشرف سنة اثنتين وأربعين . ثم

حصل منها على دبلوم القانون الخاص ثم دبلوم الاقتصاد فى سنتى أربع وأربعين وخمس وأربعين ثم أوفد إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث نال درجتى الماجستير والدكتوراه فى الاقتصاد من جامعة برنستون سنتى ثمان وأربعين ، وخمسين ، وعاد من بعدها إلى الوطن مدرسا للاقتصاد بكلية الحقوق .

ولما أنشئت كلية للاقتصاد والعلوم السياسية سنة تسع وخمسين كان الشافعى ، وهو لم يبلغ وقتذاك بعد الأربعين من عمره ، العميد الأول المبدع لها على غير مثال سابق فى الجامعات العربية ، فأرسي قواعدها ونظمتها وتقاليدها ، حتى أضحت بين أغز ما يتطلع الشباب إلى الالتحاق به من كليات الجامعات .

وفى سنة خمس وسبعين اختير الشافعى وزيرا للاقتصاد ، ولكنه لم يلبث أن عاد فى العام التالى إلى محراب العلم الأثير عنده فظل أستاذا ثم أستاذا متفرغا بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية إلى آخر عمره .

وكان لسلفى العظيم نشاط علمى كبير ، فقد نشر بين عامى خمسين وسبعين خمسة كتب باللغة العربية وكتابين باللغة الإنجليزية ، فى نظم البنوك والنقد والتنمية الاقتصادية ، كما نشر فى بيروت والقاهرة ستة عشر بحثا ، كان اهتمامه فى معظمها بقضايا النقد والتنمية الاقتصادية فى العالم الثالث .

وقد لمع الشافعى فى المحافل العربية والدولية ، فقد عمل أمينا مساعدا لجامعة الدول العربية للشؤون الاقتصادية من سنة ثلاث وسبعين إلى سنة خمس وسبعين ، كما مثل مصر فى مؤتمرات دولية فى جنيف والجزائر ونيودلهى ، وقام بأدوار رئيسية فى تلك المؤتمرات ، ودعى أسناذا زائرا لجامعة جراتز سنة تسع وستين ، بل إنه قد اختير خبيرا بالأمانة العامة للأمم المتحدة بنيويورك بين سنتى ثلاث وخمسين وست وخمسين ، ثم خبيرا لدى مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية سنة تسع وستين ،

وخبيراً لدى مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة الإنسانية سنة إحدى وسبعين . واختير الأستاذ الدكتور محمد زكى شافعى رئيساً للجمعية المصرية للاقتصاد السياسى . والإحصاء سنة ثلاث وثمانين . ثم توجت الدولة هذه المنزلة الرفيعة التى تبوأها الشافعى فى مصر وفى البلاد العربية وغير العربية ، وفى الهيئات الدولية ، فمنحته جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية .

وفى السادس عشر من أبريل سنة ست وثمانين ، قدم الأستاذ الدكتور أحمد عز الدين عبد الله الشافعى للمجمع ، هاهنا ، تقديمًا كريمًا شاملاً استقيت منه ما لم أكن أعلمه عنه ، وكان الدكتور أحمد عز الدين زميلاً له فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، فكان قَمِينًا بالدقة والإصابة حين تحدث عنه قائلاً : «فوجدته شخصية واضحة لاخبيء عندها ، تتسم بالهدوء وطيب العشرة والأخوة ، والتواضع ، واحترام النفس واحترام الآخرين» .

وكان المجمع يعول على الشافعى فى أن يتابع الشوط وأن يستكمل ما بدأه الدكتور عبد الحكيم الرفاعى الذى كان قد وضع اللبنة الأولى فى المصطلح العلمى الاقتصادى - كما قال كبير المجمعين الأستاذ الدكتور إبراهيم مذكور ، بعباراته البليغة الوجيزة .

ولكن لم يكد يمضى عامان حتى مرض الشافعى مَرَضَتَهُ الأخريرة فكاد يميتها بالكتمان ، وكأنما أراد أن يأخذ ريته للقاء الله ، فتحلّى بالرضا والاحتساب وحسن التسليم ، ولم يدع العلة تتراءى فى وجهه فما انقبضت أساريره ولا ضاقت ابتسامته ، ولا قلّت حلاوة حديثه ، كما قال عنه الدكتور أحمد السعيد سليمان ، رحمهما الله جميعاً .

ولكن الشافعى كان قد أخلص فى عمله وأمد المجمع بنوع جديد من المصطلح الاقتصادى فيه من شمول الفكر ، وعمق الفلسفة ، والتعرض لمشكلات الخلائق أكثر مما فيه من حديث التكاليف والشحن

والمخازن ، كما قال عنه أحمد السعيد ،
هاهنا أيضا .

فقبل أن يغادر الشافعيُّ دنيا الفناء إلى
عالم البقاء ، كان قد سجل في مجمع
الخالدين تاريخا مشرفا وعملا مجيدا
وأسلمنى الشعلة متقدة وضيئة ، وإننى
لأعاهدكم أمام الله على أن أحافظ عليها

راكيةً مضيئة ، حتى أسلمها إلى من
يخلفنى حين يشاء الله .

أيها الحفل الكريم :

شكر الله لكم تفضلكم بشهود هذا
الاجتماع ، وكريم إنصاتكم لى ...
وجزاكم الله خير الجزاء ...
والسلام عليكم ورحمة الله .

عبد الخافظ حلمى محمد

عضو المجمع

كلمة المجمع

فى استقبال العضو الجديد الأستاذ

الدكتور عبد العزيز صالح

للأستاذ الدكتور محمود حافظ

عضو المجمع

إياها رملاء لك هم صفوة من الجهابذة
والعلماء ، يقدرون علمك وخبرتك
ومكانتك ، هذه الثقة أفسحت لك مكانا
عزيزا فى هذا المجمع العظيم كعبة العربية
وحصنها الحصين الذى حمل لواءها أكثر
من نصف قرن عاليا خفاقا نحو السماكين ،
ورفع علمها شامخا سامقا فى الخافقين .
ولست فى حاجة إلى القول إن المكانة
التي تنعم بها اليوم وأنت بها جدير لمكانة
رفيعة حقا طالما اشْرأبت إليها الأعناق
وتطاولت الرؤوس ، وكثيرا ما هفت إليها
قلوب وتطلعت إليها آمال فأهتكت تهنئة
خالصة عضوا بين سدنة اللغة العربية
وحماتها فى مجمع الخالدين .

ولد زميلنا فى الثالث عشر من مايو
عام ١٩٢١ وقد نشأ بحى الخليفة بالقاهرة
ذلك الحى الشعبى القديم الذى قامت فيه

سيدى العالم الجليل رئيس مجمع
اللغة العربية وشيخ المجمعين :
سادتى العلماء الأجلاء :
سيداتى وسادتى :

عندما حان وقت الترشيح لعضوية
المجمع من بين علماء مصر البارزين لمع فى
ذهنى اسم عالم جليل برز فى علوم الآثار
والتاريخ القديم وأبلى فيهما أحسن البلاء
حتى غدا بين العلماء المعاصرين له فى هذا
المجال أرسخهم قدما وأعمقهم أثرا
وأعلاهم منزلة وقدرًا ، ذلكم هو العالم
الموسوعى الأستاذ الدكتور عبد العزيز
صالح ، العميد السابق لكلية الآثار بجامعة
القاهرة الذى نستقبله اليوم عضوا بمجمع
الخالدين .

ولا أحسبك أيها الزميل العزيز إلا
سعيدا حقا بهذه الثقة الغالية التى منحك

آثار إسلامية كثيرة متميزة تقدمتها مساجد ومشاهد بعض السيدات من عترة الرسول الكريم ومنهن سكيئة ورقية وعائشة ونفيسة وبعض آثار شخصيات أخرى مثل صلاح الدين وشجرة الدر وقايتباى وشيخون والسلطان حسن وكثير مما من شأنه أن يزكى فى النفوس روح التدين وعبق التاريخ وحب الفنون الإسلامية .

وبعد أن حفظ مايسر من سور القرآن الكريم فى كتاب الحى ومدرسته الأولية بدأ تلميذنا دراسته النظامية فى مدرسة بنا قادن الابتدائية ، وكانت هى وسميتها بنا قادن الثانوية ضمن خمس مدارس تتبع الخاصة الملكية وتحرص على تميز مستوى الدراسة فيها ، كما تنمى الاستعدادات الشخصية لتلاميذها - ونظرا لتفوقه الأدبى واللغوى فقد كوفئ تلميذنا حينذاك بعدة مؤلفات وجوائز .

وفى دراسته الجامعية تخرج فى قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ثم أكمل دراسته فى علم المصريات القديمة فى المعهد العالى للآثار بالجامعة نفسها - وتزامنت بعض دراساته لعلم المصريات

القديمة مع دراسة أخرى لدبلوم التربية والعمل لبضع سنوات مدرسا فى التعليم العام ونشر أولى مقالاته فى عام ١٩٥٠ بعنوان " آثار شارع المعز لدين الله " . . حيث شبه هذا الشارع بسجل مفتوح سطرت على صفحاته عن يمين وعن شمال معالم مجد قديم جمع بين مطالب الدنيا ومطالب الدين وشهد بروعة الفن الإنشائى والزخرفى المصرى فى عصوره الإسلامية المتعاقبة - وتوالت بعد ذلك بحوثة ومقالاته منذ تعيينه مدرسا مساعدا بكلية الآداب بجامعة القاهرة فى عام ١٩٥٣ ثم أتم رسالته للدكتوراه عن " التربية والتعليم فى مصر القديمة " وأجيزت بتفوق فى يونيو عام ١٩٥٦ وقد نشرها باسمه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى عام ١٩٦٦ وكانت هى الرسالة الأولى الموسعة فى ميدانها العلمى بمصر والخارج بعد أن كان أغلب ما يستشهد به فى تاريخ التربية والتعليم فى العالم القديم يستقى عادة من تراث الإغريق والرومان والصين دون مصر وحضارتها التليدة إلا فى مقالات قصيرة متفرقة .

أصدر الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح ٤٦ كتابا وبحثا علميا منشورا في مصر والخارج باللغتين العربية والإنجليزية في مجالات التاريخ والتربية والتعليم واللغات والآداب والعقائد والفنون في الحضارة المصرية والحضارات الشرقية القديمة - وقد اتسمت هذه الدراسات بأمانة الأداء والصدق العلمى وعمق التحليل واتساع الأفق كما عبرت عن مدرسة فكرية مصرية متميزة تنفذ إلى روح الحضارة المصرية القديمة وتكشف عن حقيقة جوهرها فيما تبحث فيه من تاريخها وخصائص عقائدها ولغتها وآدابها وفنونها مع عقد المقارنات الموضوعية بينها وبين واقع الحياة الفعلية فى البيئات والمجتمعات المصرية والشرقية استهدافا لما يربط بين حاضرها وماضيها . وقد صوّبت هذه الدراسات ذات المنهج العلمى الواضح المتكامل عديدا من المفاهيم الأجنبية عن الحضارة المصرية القديمة وخرجت بنظريات وآراء جديدة موثقة عدلت بها بعض المسلمات التقليدية فى ميدانها كما قدمت بعض الحلول للمشكلات التاريخية المتعلقة بها .

والكشوف الأثرية العلمية التى أجراها الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح ذات أهمية بالغة فقد كان له دوره فى الكشف عام ١٩٥٥ عن برديات مصرية بمنطقة تونة الجبل بالمنيا تضمنت نصوصا ديموطية تضيف الجديد عن نظم المعاملات فى القانون المصرى القديم كما كشف فى هضبة الجيزة منذ عام ١٩٧٠ عن آثار حى سكنى صناعى لقطاع من الطبقة العاملة المتصلة بمعبد شعائر الهرم الثالث وقد تضمن هذا الكشف مصنعا للبردى يعتبر فريدا فى نوعه كما عبرت بقايا مساكن هذا الحى عن المستوى الاقتصادى والحرفى لأصحابها خلال القرن ٢٣ قبل الميلاد . ومنذ عام ١٩٧٦ توالى بحوثه ودراساته العملية للكشف عن المعالم الحضارية الرئيسية لمدينة أونو القديمة (أى هليوبوليس وعين شمس) أولى المراكز الكبرى للفكر والثقافة الجامعة فى العالم القديم وكشف منها حتى الآن عن بقايا ١٤٠ وحدة سكنية وإدارية وصناعية لقطاع من الطبقة الوسطى الدينية والمدنية خلال القرنين ١٢-١١ قبل الميلاد كما كشف عن

بقايا ثلاثة معابد وحصن ملكى من عصر
الرعامة وكان لذلك كله صدى علمى
كبير فى الأوساط الأثرية العالمية .

وتجاوز العطاء العلمى للدكتور صالح
نطاق الحضارة المصرية القديمة فأصدر
دراسات موسعة عن تاريخ وحضارة العراق
وعن الحضارات العربية القديمة فى شبه
الجزيرة العربية بشمالها وجنوبها وبخاصة
فىما يتعلق بحياتها الاجتماعية والصلات
اللغوية والثقافية بين مصر القديمة وبينها -
كما ألقى الضموء عن وجود تأثيرات
معمارية وفنية مصرية قديمة واضحة فى
بعض المنشآت المعمارية للحيانيين والأنباط
القدماء فى مدائن صالح بشمال الحجاز منذ
القرن الخامس قبل الميلاد وحتى القرن
الأول الميلادى وذلك مما أرجع العلاقات
الحضارية بين مصر وبينها إلى ما قبل بداية
العصور الإسلامية بنحو ألف ومائتى عام
وهو أمر له أهميته البالغة .

وللأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح
نشاط كبير فى الكثير من الهيئات الأدبية
والفكرية والثقافية على الصعيدين القومى

والعربى وعلى الساحة الدولية فهو عضو
بالمجلس القومى للثقافة وعضو فى شعب
التعليم الجامعى والثقافة والعلوم الإنسانية
والتراث الحضارى والأثرى بالمجالس
القومية المتخصصة وعضو بالمجمع العلمى
المصرى ونائب رئيس الجمعية المصرية
للدراسات التاريخية ورئيس شعبة البرديات
المصرية القديمة فى مركز الدراسات البردية
بجامعة عين شمس ، وعضو لجنة
الموسوعة الأفريقية للأعلام باليونسكو ،
وعضو اللجنة التأسيسية للمؤتمرات الدولية
لعلم المصريات كما أنه عضو فى جمعيات
بريطانية وكندية وألمانية عالية متخصصة
فى الآثار وتاريخ الحضارة ، وقد حاضر
وشارك فى عدة ندوات ومؤتمرات عقدت
فى كمبردج ببريطانيا وجرينوبل بفرنسا
وبرلين وتوبنجن ومونستر وميونخ بألمانيا
ومكسيكوسيتى بالمكسيك وتورنتو بكندا
بالإضافة إلى بلاد عربية عديدة وبخاصة
المملكة العربية السعودية التى رأس
فيها أيضا قسم التاريخ بجامعة الملك
عبد العزيز والملك سعود .

وقد عمل الأستاذ الدكتور صالح مقررا للجنة مشروع معجم مصطلحات الآثار في التعليم العالي بمكتب تنسيق التعريب بالرباط عام ١٩٨٦ كما كتب مجموعة من البحوث المتخصصة في قاموس القرآن الكريم الذي تنجزه حاليا مؤسسة التقدم العلمي بالكويت .

وتكريما له وتقديرا لمكانته العلمية فقد خصصت هيئة الآثار المصرية العدد الخاص بعام ١٩٨٦ في مجلة حولياتها الأثرية ليصدر باسمه .

وقد نال جائزة الدولة التشجيعية لعام ١٩٦٢ ثم كرمته الدولة أيضا بنيل جائزة الدولة التقديرية لعام ١٩٨٦ .

سيدي الرئيس :

سادتي الزملاء :

هذه لمحة عن حياة هذا العالم الموسوعي الذي نستقبله اليوم في هذا المحراب عضوا وزميلا بمجمع اللغة العربية مجمع الخالدين ، وهي كما ترون حياة زاخرة بالعطاء والعمل المثمر البناء ، وإنني على يقين أنه بعلمه وخبرته ومكنته سيكون خير عون للمجمع ليُمضي بقيادته الرشيدة وعلمائه الأعلام في مسيرته الرائدة نحو إعلاء شأن العربية ودفعها إلى آفاق رحبة من التطور لتواكب الإيقاع السريع الذي نشهده اليوم في تقدم العلم والمعرفة .

والله ولي التوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمود حافظ

عضو المجمع

كلمة العضو الجديد

الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم
والفنون ، فى حاضرها المتنامى ، وفى
مستقبلها المنشود ، وهو ما نود الإسهام فيه
بجهد متواضع ولكنه بأقصى الاستطاعة
بمشيئة الله تعالى .

أما على المستوى الشخصى ، وما
يتعلق بكرم المجمع والكلمة البليغة التى
ألقيت اليوم فى استقبالى ، فلا أكاد أجد
من عبارات التقدير اللائقة ما يفى بعميق
امتنانى ، وجزيل شكرى للأخ العالم
الفاضل ، الأستاذ الدكتور محمود حافظ ،
على فيض حديثه عن شخصى المتواضع ،
ونبل مشاعره الكريمة فى تقديمه لى بصفاتٍ
وسجايا ، هو الأولى بها ، وهو نعم
القدوة فيها .

فله منى أخلص الشاء وصادق الوفاء .

السادة الأجلاء :

تقليد كريم من غير شك ، ما
جرى عليه هذا المجمع الموقر ، مجمع

العالم الجليل ، رئيس المجمع :
الزملاء الكرام ، أعضاء المجمع :
يشرفنى أن أتوجه بعظيم الحمد
والإجلال ، ابتداءً ، لله العلى الحكيم ،
ان أولانى ثقتم الغالية ، حين تفضلتم
مشكورين بانتخابى عضوا عاملا بمجمعكم
الموقر ، صرح اللغة العربية الشامخ ،
الذى أحاط بأصولها العريقة ، وآدابها
الوفيرة ، وعلومها الرائدة ، ومعاجمها
المنوعة ، وبحوثها النامية ، مع مستويات
الفكر العالمى المعاصر ، ومستحدثات
التقنيات والخبرات والمعارف .

ومع كل هذه المهام المنوطة بالمجمع ،
والآمال المعقودة عليه ، وما تفضلتم بإنجازه
منها مشكورين ، علماء المجمع ، كان
طبيعياً أن يظل اللحاق بعضوية مجمعكم
مطلباً عزيزاً ، وأملاً مرجوياً ، لكل
باحث مدقق ، فى علوم العربية وتراثها
الكبير ، فضلاً عما تنهضون به من تعريب

الخالددين" ، من تأكيد صلة الخلف بالسلف من بين أعضائه ، وتوثيق الروابط الروحية بين كل عضو وزملائه ، وما يتمثله هذا وذاك من معانى الوفاء ، والتآخى فى الآداب والعلوم والإنسانيات ، تحت مظلة لغوية كبيرة ، يتعاون فيها صفوة من أعلام مصر وبقية البلاد العربية ، وبعض علماء الاستشراق الكبار ، تعاوناً علمياً صافياً مثمراً .

وجرياً على هذا التقليد الحميد ، أشرفُ اليوم بحديث مُجملٍ عن عَلمٍ من أعلام المجمع الراحلين ، أوليتُ شرف خلافته فى كرسية العلمى بالمجمع ، وهو المغفور له الأستاذ الدكتور محمد مرسى أحمد . وقد أمضى رحمه الله زهاء ربع قرن فى عضوية هذا المجمع منذ أن استقبله الأستاذ العلامة مصطفى نظيف فى عام ١٩٦٢ ، إلى أن أبته وودعه باسمه واسم المجمع كذلك الأستاذ الجليل الدكتور محمود مختار فى نوفمبر من عام ١٩٨٩ .

وقد أشادا بفضلله فيما نهض به من شؤون التعليم والبحث العلمى ، والترجمة

والتأليف ، والإدارة الجامعية ، ورئاسة وزارة التعليم العالى .

وكان الدكتور مرسى قد تميز خلال دراسته الجامعية بنبوغه المبكر ، فبدأ مرحلة البكالوريوس فيها فى سن السادسة عشرة ، وبعد أن اجتارها بامتياز مشرفُ أوفد إلى جامعة أذنبرة التى أعفته من التحضير لدرجة الماجستير نظراً لتفوقه ، ومنحته درجة الدكتوراه وهو فى الثالثة والعشرين ، وحصل بعدها على دبلوم التخصص فى البحوث الرياضية من جامعة كمبردج - وهكذا عاد إلى جامعة فؤاد الأول مدرساً للرياضة البحتة فى عام ١٩٣٢ ، وبعد أن اجتاز درجة الأستاذ المساعد أصبح أستاذاً لها قبل أن يتخطى الخامسة والثلاثين من عمره .

ولعل متطلبات هذا النضج الفكرى المبكر والمتكرر ، قد أضنت جسده نوعاً ما فناء بها لسنوات طوالٍ فى جواتيم حياته ، رحمه الله رحمة واسعة .

ومن طريف ما يرويه عنه زميله الأستاذ الدكتور محمود مختار ، وهو صديقه الصدوق ، وصنوه فى الدراسة والتخصص

والتعليم والبحث العلمى والسمعة الكريمة ،
أن أستاذهما الكبير الدكتور على مصطفى
مشرفة منحه فى أحد اختبارات الجامعة
مائة وعشرين درجة من مائة درجة ،
مبرراً ذلك بأنه قد أجاب على أسئلة أكثر
 مما يتطلبه الحد الأقصى للدرجة .

ولن ندعى معرفة وافية بما تخصص
فيه الأستاذ الدكتور مرسى من علوم
الرياضيات ، ويكفى التنويه بما عرف عنه
من الحرص على اتباع المنهج العلمى
والتفكير الرياضى . وكان التفكير الرياضى
وثيق الصلة فى حد ذاته بالفكر الفلسفى
خلال العهود الزاهرة من العصور القديمة
ذاتها .

وكان من ذلك أن روى الفيلسوف
الأشهر أرسطو أنه حضر ذات مرة مع
رملائه محاضرة لأستاذهم أفلاطون عن
"الخير" وكانوا يتوقعون أن يسمعوا فيها
جديداً عن الفضائل أو الأمور الفاضلة ،
وإذا بهم قد استمعوا إلى فلكٍ وحساب ،
وكلام عن الواحد والمحدود ، وإذا بهذا
كله ينفذ إلى أعماقهم ويجعلهم يفكرون
فى الخير من حيث لا يحتسبون .

وقيل إن أفلاطون أعلن على مدخل
أكاديميته قوله : " من لم يكن رياضياً لا
يدخل علينا " ، وفى ترجمة أخرى " من
لم يكن مهندساً لا يدخل إلينا " .

ولم تكن الرياضيات تعنى عنده
الحساب والفلك والهندسة بأغراضها
العملية ، بقدر ما كانت تعنى جوهرها
الثابت ، والنظر إلى العدد فى ذاته ، لا
العدد المحسوس أو المادى .

ونتقل من هذه المجاملة للرياضيات
والمهندسين إلى مجاملة أخرى لقدماء
المصريين ، وهى أنه رغم تقدم علوم
الرياضيات عند الإغريق عاب أفلاطون
على أسلافهم أنهم كانوا أقل عناية
بالحساب من المصريين . وذكر فى مؤلفه
عن "القوانين" من الطرق المصرية لتعليمه ،
ما يعتبر لو صحَّ خبره مفخرة للحضارة
المصرية القديمة .

وأخيراً فلقد أثبت الأستاذ الدكتور
محمد مرسى أحمد جدارة فى شتى
المناصب الجامعية العليا التى أوليها عميداً
لكلية العلوم بجامعة القاهرة ، وكيلاً لهذه
الجامعة ، ومديراً لجامعة عين شمس ،

ورئيساً لجامعة القاهرة ، ووزيراً
للتعليم العالي ، ثم أميناً لاتحاد الجامعات
العربية .

وكان من أوئل الداعين إلى إحياء
التراث العلمى العربى ، وتعريب العلوم
الحديثة ، وتعريب التعليم الجامعى ، ونشر
الثقافة العلمية باللغة العربية ، كما كان من
العاملين على توثيق الروابط بين علمائها
وباحثيها عن طريق تبادل الصلات مع
الجامعات العربية والأجنبية ، والاشتراك
فى الندوات والمحافل العلمية ، وعضوية
الجمعيات والمؤسسات الثقافية والمؤتمرات
المتخصصة .

حضرات السيدات والسادة :

من المتفق عليه أن آفاق اللغة العربية
مع ما اتصفت به من الرحابة والثراء ،
والعمق والتنوع ، كثيراً ما يُستعان فى
بعض مداخلها بما يناسبها من الدراسات
التخصصية الأخرى .

ومن أقرب هذه الدراسات إلينا
دراسات ألفاظ الحضارة ومصطلحات
التاريخ والآثار بخاصة ، ثم الدراسات
المقارنة بين اللغة العربية واللغة المصرية
القديمة ، وبقاياها الدارجة فى المجتمع
الشعبى المعاصر ، لا عن طريق المقارنات
اللفظية للمفردات فحسب كما جرت عليه
العادة حتى الآن ، وإنما كذلك عن طريق
المقارنات بين قواعد اللغتين .

ومطلب آخر نود إنجازه باسم المجمع ،
وهو إصدار معجم واف لمصطلحات الآثار
فى صيغها الأجنبية والعربية . وقد سبق
أن بذلت بعض الجهود فى مصر والمغرب
لتحقيق هذا المطلب ، وشاركتُ فى بعضٍ
منها ، إلا أنها لم تكتمل ، وتتطلب
دفعات قوية لبعثها ، ونرجو أن نصل بها
إلى حد الكفاية بمشيئة الله تعالى .

وشكراً لحضراتكم ، والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته .

عبد العزيز صالح

عضو المجمع

استقبال أربعة أعضاء لغويين جدد

الترزى من كلمته تلاه العضو الجديد
الأستاذ الدكتور بدوى أحمد طبانة فألقى
كلمته .

ويعد ذلك تحدث العضو الجديد
الدكتور إبراهيم عبد الرازق البسيونى فألقى
كلمته . وتلاه العضو الجديد الأستاذ
الدكتور عبد السميع محمد أحمد فألقى
كلمته .

وكانت آخر كلمات الحفل للعضو
الجديد الأستاذ مصطفى عوضين
حجارى .

وفيما يلي نص الكلمات :

فى الساعة الحادية عشرة من صباح
يوم الأربعاء ٩ من ديسمبر سنة ١٩٩٢م
عقد مجلس المجمع جلسة علنية لاستقبال
الأعضاء اللغويين الأربعة الجدد وهم:

* الدكتور بدوى أحمد طبانة .

* الدكتور إبراهيم عبد الرازق البسيونى .

* الدكتور عبد السميع محمد أحمد .

* الأستاذ مصطفى عوضين حجارى .

وقد ألقى كلمة المجمع فى هذا الحفل

الأستاذ إبراهيم الترزى عضو المجمع الذى

قام باستقبال الأعضاء الأربعة الجدد معددا

مآثر كل واحد منهم فى خدمة العربية

وآدابها . ويعد أن فرغ الأستاذ إبراهيم

كلمة المجمع
في استقبال الأعضاء اللغويين
الأربعة الجدد
للأستاذ إبراهيم التريزى
عضو المجمع

أستاذى الجليل رئيس المجمع :
أيها السادة :
سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ،
ويعد :
فصاروا قلةً تُنوءُ بأعباءِ لجان المجمع ، بعد
أن كانوا كثرةً كاثرةً ، ينهضون بتبعاتِ
اللجان اللغوية ، باذلين لها نشاطاً أو فراً
وأوفى ، مع مشاركةٍ فى اللجان العلمية
لا تزيدهم رهقاً . ثم فاءَ الله على المجمع
بمن نستقبلهم اليوم من مشيخة علماء اللغة .
الشيخ الدكتور إبراهيم عبد الرازق البسيونى :
أولُ هذه المشيخة اللغوية أقبلَ إلينا من
أزهرنا الشريف ، وهو الشيخ الدكتور
إبراهيم البسيونى . . سادنٌ جليلٌ من سدنةِ
النحو والصرف بالأزهر ، ومن أوتادهما
الرؤاسى ، عكفَ عليهما باحثاً دارساً ،
يُنقى وِرْدَهُما المورودَ من شوائبِ تراكمتْ
فيه على مدى العصور ؛ ليعودَ به إلى
نهجِ العربى الأصيل ، بعد أن غمَّ هذا
النهجُ على الدارسين فى تفسريات
وتعقيدات ، وتاهتْ معالمه فى تعليقاتِ

فقد شرفنى زملائى أعضاء المجمع
الأجلاء باستقبالِ كوكبةٍ ذريةٍ من الأعضاء
الجدد ، تنطلق باسمِ الله لتدورَ فى الفلكِ
المجمعى ، كواكبَ وضيئةً مضيئةً : وضيئةً
بحبهم لغةً اصطفاهما الله لذكره الحكيم ،
مضيئةً بعطائهم الجليلِ لهذه اللغة
المصطفاه ، وما نامله منهم من عطاءِ
مجمعى منشود ، نتطلعُ إليه ، ونعوّلُ عليه ،
بعونِ الله تعالى وتوفيقه .
أيها السادة :
رحلَ عن المجمع أعضاء شوامخ من
علماء الفصحى وشيوخها ، كابرًا وراء
كابِر ، حتى تناقصَ عددُ الأعضاء اللغويين ،

زادته علة ، وتأويلات زادته ضلّة ،
وافتراضات سقيمة عقيمة ، أوغلت في
افتراضاتها حتى قالوا : "خرق الثوبُ
المسّار" ، فاخترقوا بهذا المثال حاجزَ
العقل والمنطق ، واستباحوا حمى أعرق
قاعدة نحوية ؛ وهى رفعُ الفاعلِ ونصبُ
المفعول ، بحجة وضوحهما !

وكم شقى النحو كذلك حين أبحرتُ
سفينته في بحار المناطق ، فتقاذفتها تياراتُ
التقديراتِ وافتراضِ العوامل ، فكانت
صيحةُ ابنِ مضاءٍ - فى القرن السادس
الهجرى بالأندلس - صيحةً إنقاذٍ للنحو
من ذلك كله ، وقد أطلقَ هذه الصيحةَ من
محبسها بين رُكام المخطوطاتِ استاذنا
الدكتور شوقى ضيف ، بتحقيقه كتابَ ابنِ
مضاء : "الردّ على النحاة" .

فالشأنُ فى أىّ قانونٍ أن يُوضَعَ
للتطبيق ، وكيف يُطبَّقُ إذا اعتراه تعقيدٌ
وغُموضٌ !؟

ولهذا كانت القوانينُ ضوابطَ واضحةً
ليسهلَ تطبيقها فى المجتمعات والدُّول . .
وأولى بالنحو - وهو قانون الكلام - أن
يكون كذلك ، ليسهلَ تطبيقه على
الكلمات والجُمَل .

ولهذا نهض الشيخ إبراهيم البسيونى
برسالة إحياء الدراسات النحوية فى الأزهر
مع صفوة من علمائه ، فى طليعتهم شيخاه :
محمد على النجار ، ومحمد محيى الدين
عبد الحميد ، ثم زميله الدكتور محمد
رفعت فتح الله - وثلاثتهم من أعضاء
المجمع الراحلين - فلم يكونوا مجردَ سدنةٍ
لما كتبه السابقون فى النحو ، وبخاصة فى
العصور المتأخرة ، حيث دار أكثرها حول
مُتون أخذ شارحوها فى تفسير ألفاظها
وتحليلها ، مُوغلين فى استطرادات
يستعرضون بها قدراتهم اللغوية والأدبية
والمنطقية ، فإذا بهم قد بُعدوا عن منهل
النحو الأصيل !

أخذ شيخنا إبراهيم البسيونى مع هذه
الصفوة من نُحاة الأزهر يُعيدُ الدراساتِ
النحوية إلى شريعتها ، فى نهجٍ علميٍّ
قويم ، فهو يرى أن التجديدَ فى مناهج
علوم اللغة والنحو يجب أن ينهض على
الأصول الثابتة ، للغتنا ، وألاً يخرج عن
ضوابطها العامة فى نحوها وصرفها ،
وذلك حيث يقولُ فى كتابه "رحلة مع
القياس والسماع" : "إذا أردنا إحياءَ
العربيةِ والمحافظةَ عليها على أسسٍ سليمةٍ

ثابتة ، وإذا أردنا تيسيراً للنحو وتجديداً
لمناهجه ، ووضع قواعدٍ في صورة حديثة
تعتمدُ المنهجَ العلميَّ طريقاً ، فلا مناص
من استعراض الأصول التي نستمدُّ منها
قوانينَ لغتنا ، ونُرسِّمُ هديها في تطبيق
كلامنا ، ثم نُسجِّلُ من جميعها الظواهر ،
ونتخذُ من هذه الظواهرِ القواعدَ التي تربطُنا
بقراءنا ، وتراثنا الحضاري الخالد في جميع
المجالات ، وأنواع المعارف والفنون .

ثم يمضي الشيخ البسيوني في الدعوة
إلى التجديد قائلاً :

' وعلى ذلك نستطيع أن نُحدِّدَ موقفنا
من النحاة السابقين ؛ فلا شك أننا
محتاجون إلى النظر فيما استخلصوه من
قواعدٍ لنستهدي به ، ولا ريب أننا
واجدون في تراثهم الذي خلفوه لنا نماذجَ
عاليةً من الفكر الرفيع الواسع الأفق ،
وسنجدُ فيه أيضاً مالا يوافق عقليتنا ،
ونستطيع أن نفيد من كل ذلك باحتذاء
الصواب ، وتصحيح الخطأ ، وليس عيبهم
أنهم أَلْفُوا وتعمَّقوا ، وأتوا بالغثِّ والسمين ،
ولكن عيبنا أننا تحجَّرنا على ما وصلنا من
علومهم . وتضاءلنا أمام عقولهم الجبارة

وجهودهم الرائعة ، وارتضينا بالاتباع ،
وجنحنا إلى اجترار ما قرَّروه ، ونظرة
'واحدة' إلى إنتاجنا في الميدان اللغوي -
خاصة في النحو - تُثبتُ خمولنا وتكاسلنا
من قرون عديدة . إن المحافظة على
مآ ورثه لنا الأقدمون إنما تكون بنشره
وإذاعته ، وتغذيته بعناصر جديدة للحياة
والنماء ، بالزيادة عليه ، ونفى ما فيه من
ضعف ، أمّا أن نُنصِّبَه هياكل ، ونقومَ
دونها سَدَنَةً ، فإننا بذلك نُمكنُ له في
التجمد والتخلف ، وإذا بالركب يمضي ،
ويتركه حيث هو ، غير عابئٍ بنواح
النائحين !

والشيخ البسيوني لا يتوقف في دعوته
إلى التجديد عند حدود الدراسات النحوية
والصرفية ، فهو يدعو كذلك إلى تجديد
متن اللغة ، وإثرائها بالفاظ مستحدثة تعبر
عن حضارة العصر ، بتأدابه وعلومه
وفنونه، ومخترعاته التي تَجِدُّ يوماً بعد
يوم ، مادامت هذه الالفاظ المستحدثة لا
تخرج عن سنن العربية ، وضوابطها
العامة ، فيقول :

"الحياة نامية متجددة بما تشتمل عليه من أفكار وظواهر في شتى النواحي الأدبية والفنية والعلمية ، من مصنوعات ومخترعات لم تعرض للعرب في حياتهم الساذجة ، فليس هناك بُدٌّ من التجديد والابتكار وتوليد الألفاظ . . وإن الطعن في قيمة كلمة بحجة أنها لم تُذكر في المعاجم أو أن العرب لم تستعملها فيه تَحْجِيرٌ واسع ، وتجميد للغة من حيث يُراد لها النمو والثبات ، ولا بأس إذا تركنا لفظة عربية إلى أخرى مولدة ، إذا كانت الأخيرة أسهل وأخف وأعذب ، ولنا في العرب أنفسهم أسوة ، حين تركوا كثيرا من كلماتهم إلى أخرى أعجمية" . .

ولا يفوت شيخنا البسيوني أن يُنوه في كتابه هذا بقرارات المجمع في تيسير بعض قواعد النحو وغير ذلك من شؤون اللغة ، ويعلق على كثير من بحوث أعضائه .

وللشيخ البسيوني كتاب آخر في النحو عنوانه: "النفي ومدخله في كلام العرب" ، وله في علم الصرف كتاب "المنهج الصرفي في الإبدال والإعلام والتعريض والتقاء الساكنين والإدغام" ، واشترك مع الدكتور

صباحي عبد الحميد في تأليف كتاب "الهادى إلى تصريف الأفعال" .

وقد حظي "علم العروض" بالتفاتت من الشيخ عالج فيها بعض قضاياها .

ذلكم هو الشيخ إبراهيم البسيوني الذي صادف يوم مولده أن يكون مثل البارحة ، فقد ولد في الثامن من ديسمبر في العام الحادى عشر من هذا القرن ، بمدينة المحمودية في محافظة البحيرة ، حيث تلقى تعليمه الأولي ، وحفظ القرآن الكريم ، ثم التحق بالأزهر الشريف ، فتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بمعهد الإسكندرية ، وحصل على الثانوية الأزهرية عام خمسة وثلاثين ، ثم انتقل إلى القاهرة ليلتحق بكلية اللغة العربية ، وتخرج فيها بعد سنوات أربع ، واصل بعدها تعليمه في الدراسات العليا ، في قسم تخصص المادة ، بشعبة النحو والصرف ، فحصل على شهادة العالمية بدرجة أستاذ (وهي تعادل درجة الدكتوراه) ، وبعد سنوات سبع أمضاها مدرسا في معهد شبين الكوم الدينى عاد إلى كلية اللغة العربية مدرسا ، ثم ترقى في سلم التدريس بها حتى حصل

على درجة أستاذ اللغويات . وفى
الستينيات أُعير إلى الجامعة الإسلامية
بليبيا ، فأمضى بها ست سنوات عاد بعدها
إلى القاهرة أستاذاً بكلية اللغة العربية ، ثم
اختير وكيلاً لها سنة ثلاث وسبعين ، وبعد
ثلاثة أعوام أُحيل إلى المعاش ، ليصبح
أستاذاً متفرغاً بالكلية ، ورئيساً لقسم
اللغويات . ويحوتُ الدكتور الشيخ إبراهيم
البيسونى أكثرها غير مطبوع ، ولعلَّ
تلاميذه - وهم أساتذةٌ كثر - ينهضون
بطبعها ؛ ليفيد الباحثون من علم شيخهم
القدّ ، الذى نهج لهم سبلاً تيسير النحو ،
وأخذ يُجسّد نسيج اللغة بيد حاذقة
صنّاع !

الأستاذ الدكتور بدوى أحمد طبانة :

وثانى هذه المشيخة اللغوية أستاذى
الدكتور بدوى طبانة ، وهو ذو نسبٍ عريقٍ
فى علوم البلاغة العربية ، خرّجَ علمه من
رَحِمِها ، فكان علمه من أبرّ أبنائها ،
انتماءً لأصولها البيانية ، وولاءً لقيَمِها
الجمالية والفكرية . وبهذا الانتماء والولاءِ
مضى علمه البلاغى يُشقُّ آفاقَ النقدِ الأدبى ،
قديمه وحديثه ، ويُعالج قضايا اللغوية

والأدبية ، على نهجٍ علمى قويم ، قوامه
رصدُ الظواهر وإحصاؤها ، وتصنيفُها ،
وتأثيرها وتأثرها ، كاشفاً عما قد يكون
بينها من وشائج ظاهرة وباطنة . . ثم
يأخذُ فى تفسير هذا كله ، وتحليله وتعليقه
. . متتبعاً إلى نتائج لا تلبثُ أن تُصبح
لِبَنَاتِ وَضَاءَةٍ فى الصّرحِ الشامخِ لعلوم
البلاغة العربية !

وُلد الدكتور بدوى طبانة فى الثامن
من سبتمبر عام أربعة عشر من هذا القرن ،
فى ناحية "سِرْسِنَا" بمدينة "الشهداء" فى
محافظة المنوفية ، حيث حفظ القرآن
الكريم ، وأمضى مرحلة الدراسة
الابتدائية . ثم رحل إلى القاهرة . ليتلقَى
تعليمه الثانوى ، ثم التحق بتجهيزية
دار العلوم ، التى أهلتَه للالتحاق بدار
العلوم حيث تخرّجَ فيها عام ثمانية
وثلاثين .

وبعد ثلاث سنوات أمضاها مدرساً
بالمرحلة الابتدائية بوزارة المعارف رحل إلى
العراق ، للتدريس بدار المعلمين العالية
ببغداد ، حيث عُهدَ إليه بتدريس البلاغة
العربية ،

كان عمدةُ الدرسِ البلاغيِّ في مصر
كتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي ،
وشروح تلخيصه ، وفي مقدمتها شرحُ
السعد ، أما عمدةُ الدرسِ البلاغيِّ في
العراق فكان كتاب "الطراز المتضمن
لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" ،
لمؤلفه يحيى بن حمزة العلوي ، وهو أحد
أئمة اليمن العلماء في القرن الثامن
الهجري . وكان كتاب الطراز هذا هو
الذي كُلفَ الشاب "بدوى طبانة" بتدريسه
لطلاب دار المعلمين العالية ببغداد ، فعكف
على دراسته وتدريسه ، مستغرقاً جهده في
استيعاب مادته ومسائله ، وما ورد بشأنها
من آراء ، أخذاً نفسه بالرجوع إلى
مصادرها في العديد من المؤلفات البلاغية .
وبهذا العكوف على كتاب "الطراز"
ومصادره البلاغية أخذ يتخلقُ مستقبلاً
المدرسِ الشاب ، مبشراً بميلاد باحثِ بلاغيٍّ
فدّ ، أقبل على الدراسات البلاغية القديمة
يشقُّ طريقاً لاجباً بين سبلها الوعرة المتداخلة !
كانت البلاغة العربية الجميلة قد
اعتقلت اعتقالاً غير جميل ، في متونٍ

شعرية وغير شعرية ، أخذَ شارحوها
يصولون ويحولون في حلبة الشروح
اللفظية ، التي تراكم عجاجها حتى ناء به
كاهلُ الدرسِ البلاغيِّ ، كما رُميت علومُ
البلاغة بعلم المنطق وعلم الكلام ، فهيمنا
عليها طويلاً ، حتى كادت تُصبح مجرداتٍ
عقليةً في كثير من أصولها البيانية !
وهكذا واجه الشاب "بدوى طبانة"
درس البلاغة ، الذي كان يقوم على
أصول وفروع ، وشروح متوارثة ، تداخل
فيها كثير من العلوم ، وأخذت تجترُّ
أحكاماً وشواهد ، غشاها ما غشاها من
تكرارٍ وجمود ، حتى صارت تُعاني غربةً
علميةً وأدبيةً ، في عصرٍ أخذ يُموجُ
بحضارةٍ حديثة ، تستنهضُ فيه روحَ التجديدِ
والتقدم ، في علومه وآدابه وفنونه !
ولهذا أخذ بعضُ الأساتذة الرواد
يتطلعون إلى التماس نهجٍ علميٍّ حديثٍ
للبحثِ البلاغيِّ ، يُطهرُ البلاغةَ العربيةَ من
كل شوائبٍ دخيلة ، ويؤهلُّها للقدرة على
التجديد والتقنين لما استحدثته الأدباءُ
المعاصرون من أساليب وفنون .

وإذا كان الدكتور بدوى طبانة قد سبقه إلى معالجة البلاغة وتجديدها أساتذة رواد ، منهم أحمد الشايب ، وأحمد ضيف ، وإبراهيم سلامة ، وأحمد حسن الزيات ، وأمين الخولى - فإن الدكتور طبانة قد تفرّد بينهم بأن جعل معالجة كل قضايا البلاغة همّة الأكبر ، وجعل من تجديدها وتطويرها غاية الكبرى ، فاستفرغ جهده ووقته للبحث البلاغي والنقدي ، ووقف عليه نشاطه العلمي والتعليمي .

عاد من العراق إلى مصر بعد ست من السنين ، ليلتحق بقسم الدراسات العليا في كلية دار العلوم ، ويحصل على الماجستير ثم الدكتوراه في البلاغة والنقد الأدبي ، وتتابع تدرّجه في التدريس الجامعي بكلية دار العلوم حتى وصل إلى درجة أستاذ لكرسي البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن ، فرييس لهذا القسم ، ثم خطبت علمه جامعات عربية ، هي جامعة بغداد ، والجامعة الليبية ، وجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ، فتخرّج على يديه أفواج من أساتذة البلاغة والنقد الأدبي ، في

مصر والعالم العربي ، وقد عاد أخيراً إلى كليته (دار العلوم) أستاذاً غير متفرغ ، وعضواً في مجلس إدارتها .

ذلكم الأستاذ الدكتور بدوى طبانة فارس البلاغة العربية ، الذي مازال - بحمد الله - يشد قبضته القوية على لوائها ، وظل أكثر من نصف قرن يذل في سبيلها كل طاقاته ، فكان عطاءه العلمي والتعليمي وافراً زاهراً ، عظيم الأثر في إحياء البحث البلاغي ، وتأليف أقلام الباحثين حوله ، من تلاميذ : أساتذة البلاغة والنقد الأدبي ، في الجامعات العربية . ومؤلفات الدكتور بدوى طبانة غزيرة متنوعة منها :

البيان العربي ، وعلم البيان ، ومعجم البلاغة العربية ، والتيارات المعاصرة في النقد الأدبي ، ودراسات في نقد الأدب العربي ، وقدامة بن جعفر والنقد الأدبي ، وأبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ، وقضايا النقد الأدبي ، والنقد الأدبي عند اليونان ، والسرقات الأدبية ، ونظرات في أصول

الأدب والنقد ، ومعلقات العرب ،
وفرسان الحلبة في الشعر العراقي الحديث ،
ومعروف الرصافي ، وأدب المرأة العراقية ،
وطلائع النهضة في الشعر السعودي
الحديث ، ودراسات نقدية ، ومن شعراء
العصر ، والصاحب بن عباد ، وشاعرية
أحمد محرم ، والمثل السائر في أدب
الكاتب والشاعر ، والفلك الدائر على
المثل السائر ، ومقدمة في التصوف
الإسلامي .

وله تحت الطبع :

البلاغة الجديدة ، ونظرات في أصول
الأدب والنقد ، وخواطر إسلامية . وإذا
كان المقام هنا لا يتيح أن نعرض لهذا
الإنتاج الغزير المتنوع ، فلا يفوتنا أن ننوه
ببعض مؤلفاته الفدّة في علم البلاغة ،
بكتابه "علم البيان" درس فيه مباحث هذا
العلم على نحو جديد ، حيث عالّج كل
مبحث فيه بدراسة تاريخية فنية نقدية ،
موضحاً أثره في الصياغة الأدبية .

وبعد كتابه "علم البيان" رأى أن
يردّفه بكتابه "البيان العربي" الذي تتبّع فيه
علم البلاغة ، منذ نشأته في رحاب القرآن

الكريم ، للبحث في إعجازه البياني ،
حتى استقامت لعلم البلاغة أصوله
وقواعده ، ثم مضى معه في نموه وتطوره ،
على يد أعلامه النابهين إلى عصرنا الحديث ،
عارضاً مناهجهم في البحث البلاغي ،
دارساً مؤلفاتهم ، مناقشاً آراءهم ، كاشفاً
عن تأثيرهم بمن سبقهم ، وتأثيرهم فيمن
لحقهم ، منوهاً بما يكون لهم من تجديد
وتطوير في الدراسات البلاغية .

والدكتور بدوى طبانة في ذلك كله
يتحرى سلامة النص الذي يعرض له في
أوثق مصادره ، ويُقيم ميزانه النقدي على
قواعد أصيلة قويمية ، ولا يتوقف عن
الإدلاء برأيه في كل قضية أو مذهب أو
رأى ، فظهرت شخصيته العلمية المستقلة
في كل مؤلفاته بكل جلاء ، فحين يُحدثنا
عن العلامة الفذّ عبد القاهر الجرجاني يقول:
"لعلّ من البصواب أن يُقال إن
عبد القاهر واضحُ أسس المنهج التحليلي
في دراسة البيان ، أو المعاني العقلية ،
ومُسَايرة العبارات لها ودلالاتها عليها .
ولعلّ هذا القول أكثر صدقاً وأكثر تقريراً
للواقع من القول بأن عبد القاهر واضحُ

أساس علم البيان ، أو واضح أساس علم المعانى بالمعنى الاصطلاحى الذى لا يعرف الناس سواه ، وقد رأينا أن عبد القاهر ، وهو رجل المعنى والفكر والمنطق لم يتخل عنه الذوق الأدبى الذى يسير بالقارئ نحو تلمس صفات الجمال فى العمل الأدبى .

ثم يرى أن كتاب " البديع " للخليفة العباسى الشاعر العالم " ابن المعتز " أول كتاب فى البلاغة العربية بالمعنى الصحيح ، وأن كلمة " البديع " التى جعلها ابن المعتز عنواناً لكتابه كان مفهومها عاماً عند أهل الأدب ، يشمل كل ما عرف من فنون البلاغة ، ويستدل على ذلك بأن أول فن بحثه ابن المعتز فى كتابه هو " الاستعارة " ، ثم بحث فى التشبيه والكناية ، وغير ذلك من الفنون البلاغية ، ثم يقرر الدكتور طبانة أن البلاغة لم تعرف هذا التقسيم الذى انتهت إليه إلا فى القرن السابع الهجرى ، على يد أبى يعقوب السكاكى ، صاحب " مفتاح العلوم " حيث جعل البلاغة علمين ، هما علم المعانى وعلم البيان ، وجعل علم البديع تابعاً لهما .

ولأيسعنى قبل أن أختتم كلمتى فى

تقديم أستاذى الدكتور بدوى طبانة إلا أن أشيد بمعجمه الفريد " معجم البلاغة العربية " الذى أحصى فيه فنون البلاغة وأدواتها ومصطلحاتها ، والذى أمضى فى إعداده أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، وأخذ يضيف إلى كل طبعة من طبعاته الأربع العديد من مواد المعجمية البلاغية ، وإن هذا العمل الجليل الذى نهض به وحده لهو من أعمال الجامع اللغوية ، وهو جدير بأن يفيد منه مجتمعنا فى لجانه اللغوية ولجنة الأدب .

الأستاذ الدكتور عبد السميع محمد أحمد :

وثالث هذه المشيخة اللغوية الأستاذ الدكتور عبد السميع محمد أحمد . . وهو شيخ أقام فى رباط " مدرسة الألسن " ، التى أنشأها أول مرة رائد الثقافة والتعليم بمصر فى العصر الحديث " رفاعة الطهطاوى " عام خمسة وثلاثين وثمانمئة وألف ، لتكون نافذة تطل منها مصر على أوربا ، بعلومها وآدابها وفنونها ، ثم أغلقتها يد السلطة الغاشمة الغشيمة ، فأطبق عليها إهمال ونسيان ، حتى صارت نسياً منسياً .

وعلى الرغم من افتتاح الجامعات ،
جامعة بعد جامعة ، حتى كادت تُغطى
أقاليم مصر ، ظلَّ التعليم العالى بحاجة
إلى " مدرسة الألسن " فأطلَّت فكرةُ إنشائها
من جديد ، وأعيدَ إنشاؤها فى العام
الحادى والخمسين من هذا القرن .

وُلد الدكتور عبد السميع فى السادس
من نوفمبر من سنة خمس عشرة وتسعمئة
وآلف . فى القاهرة ، حيث تلقى تعليمه
الابتدائى والثانوى بالأزهر الشريف ، ثم
التحق بدار العلوم ، وتخرَّج عام أربعين ،
ليشتغل بالتدريس فى بعض المدارس
الابتدائية والثانوية . ولكنَّ رغبةً عميقةً فى
نفسه أخذت تُنارعه ، منذ تخرُّجه فى دار
العلوم لدراسة اللغات ، فالتحق بكلية
الأداب بجامعة القاهرة ، وحصل على
دبلوم اللغات الشرقية فى فرع اللغات
السامية القديمة ، ثم نال شهادة الدكتوراه
فى اللغة الجعزية (الحبشية القديمة) .

وعينَ الدكتور عبد السميع مدرساً
بمدرسة الألسن عام ستة وخمسين ، ومنذ
عملَ بها وهو يناضل حتى تتبوأ مكانتها

اللائقة بها بين كليات التعليم الجامعى ،
فقد كان المتخرجُ فيها لا يحقُّ له أن يتجاوز
درجة الليسانس إلى الدراسات العليا ،
التي تُتاحُ لنظيره فى الكليات الجامعية .
فكان على خريج مدرسة الألسن أن يلتحقَ
من جديد بكلية جامعية ، تُتيح له
الالتحاقَ بالدراسات العليا ، للحصول
على الماجستير والدكتوراه !

واختير الدكتور عبد السميع وكيلاً
لمدرسة الألسن عام سبعة وستين ، وعميداً
لها بعد عامين ، وهو لم يرحح حلبة
النضال من أجلها ، حتى أحرزَ النصرَ عام
انتصارِ مصر - عام ١٩٧٣ - فعبرَ بمدرسة
الألسن إلى حرم الجامعة ، فصارت إحدى
كليات جامعة عين شمس . وتابَع عبوره
الجامعى ، فعبرَ بها من حَى الزيتون إلى
رحاب جامعة عين شمس ، حيث أنشأ لها
مبنىً جديداً فريداً ، حملَ لَمساته الفنية
التي تُعبر عن طابعها العلمى وتاريخها
العريق !

بهذا قَبِضَ اللهُ تعالى لمدرسة الألسن
عالمين جليلين ، فكان لرفاعة فضلُ

الإنشاء ، ولعبد السميع فضلُ الإحياء ، حيث صارت كليةً جامعيةً مرموقة ، تُؤدى رسالةُ منشئها العظيم ، الذى أقام له الدكتور عبد السميع ندوةً علميةً باسم "ندوة رفاة" ، وأعاد "غرفة رفاة" التى تُعنى بترجمة الروائع الأجنبية من الآداب والعلوم ، كما أشرف على إصدار "صحيفة الألسن" التى تحفل ببحوث أساتذتها فى مختلف اللغات .

وها هوذا الدكتور عبد السميع لا يزالُ فى رباط "كلية الألسن" - بعد إحالته إلى المعاش - أستاذًا متفرغًا ورئيسًا لقسم اللغة الصينية بها .

وللدكتور عبد السميع بحوث عديدة متنوعة ، أجهدنى تتبعها فى مصادرها ، فمنها بحوث كثيرة ، لا مطبوعة ولا مجموعة - شأنها فى ذلك شأنُ بحوثِ لشيخنا البسيونى - ومن حقِّ هذه البحوثِ القيمةِ عليهما أن يُطلقًا سراحها ، فتخرج إلى الناس حتى يفيد منها الباحثون ا

ومن البحوث المطبوعة للدكتور عبد السميع مؤلفه الكبير "قوانين الملوك" وهو دراسة مقارنة باللغتين العربية والجعزية

(الحبشية القديمة) ، أثبت فيها بالأدلة / القاطعة أن هذا الكتاب الذى يُعدُّ الكتابَ التشريعىَّ الكُنسىَّ للكنيستين : المصرية والإثيوبية قد اقتبس مؤلفه "ابن العسال" الكثيرَ من أحكام الفقه الإسلامى ، فقد كان "ابن العسال" - وهو مسيحىُّ مصرىُّ - أحدَ الكتاب البارزين فى الدولة الأيوبية بمصر ، فى القرن السابع الهجرى . ثم كتب الدكتور عبد السميع بحثيه : "الهبة فى القانون الإثيوبى" و "الوديعة فى القانون الإثيوبى" مؤيداً بهما ما جاء فى كتاب "قوانين الملوك" .

وللدكتور عبد السميع بحثٌ فى "تعليم اللغة العربية غير الناطقين بها" ، وبحوثٌ فى أمهات المراجع التاريخية ، فى السيرة النبوية لابن هشام ، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وتاريخ ابن خلدون ، وتاريخ العلماء والرؤاة فى الأندلس لابن الفرضى ، وغير ذلك من البحوث .

وأختتم حديثى عن مؤلفات الدكتور عبد السميع بالتنويه بكتابة القيم "المعاجم العربية" ، وهو دراسة تحليلية تاريخية ،

تُبرز الخصائص اللغوية لثلاثة عشر معجماً ،
بدءاً بمعجم " العين " للخليل بن أحمد ،
وانتهاءً بالمعجم الكبير والمعجم الوسيط ،
اللذين أخرجهما مجمعنا . وقد أشاد
الدكتور عبد السميع بجهود المجمع
المُعجمية ، بعد دراسة ضافية لهذين
المعجمين ، منهجاً ومادة ، وقال في
المعجم الكبير :

" إن محاولة إظهار " المعجم الكبير "
التي يُقدم عليها المجمع اللغوي بالقاهرة
تستحق التقدير العظيم ، ويتنظر الحريصون
على اللغة العربية أن تجتمع الجهود وتتضافر
حتى يتوالى ظهور أقسامه ، واحداً بعد
آخر ، وليس من المنتظر أن يُعاصر الجيل
الحاضر تمام هذا العمل ، فإن اللبنة التي
توضع الآن في البناء ستحفز الأبناء إلى
إتمام تشييده " .

ثم يقول : " واهتمام المعجم بتوضيح
صلة اللغة العربية بأخواتها الساميات جدير

بأن يضعه في مكانة لم يُسبق بها ، وينبغي
الأ يضمن المجمع بمزيد من إيضاح هذه
الصلة " .

ثم يختتم حديثه عن المعجم الكبير
بقوله : " وطبيعي أن المعجم يستمد مادته
بما سبقه من كتب اللغويين ، وما سُجِّلَ
من ثروة يصعب أن يُحاط بما هو موجود
منها الآن ، ويتعذر بطريق أولى ، أن
يُحدس ما ضاع من كنوز عداً عليها الزمن
ولعل شيئاً من هذا يجعل إصدار معجم
تاريخي للغة العربية مهمة شاقة تحتاج إلى
توزيع الأعباء ، و " تكليف " القادرين
على أن يُسهموا في إعداده في إطار تنظيم " .
ويسعدني أن أقول للدكتور عبد السميع :
إن لجنة المعجم الكبير بالمجمع تتطلع إلى
انضمامه إليها ، لتفيد من خبرته المعجمية ،
وتشدُّ جهوده أزرَ جهودِ أعضائها وخبرائها
ومُحرريها ؛ لإخراج أوفى معجم في
تاريخ العربية .

الأستاذ مصطفى حجازى :

وآخرُ المشيخة اللغوية التي نستقبلها اليوم صديق حميم ، وزميل كريم ، هو الأستاذ مصطفى حجازى . . رفيقى القديم على درب المعجم الكبير . . قَبِضَ اللهُ لَنَا أَنْ نَدْخَلَ المَجْمَعِ مَعًا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ . . ثُمَّ قَبِضَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعًا فِي عَمَلِنَا المَجْمَعِي المَعْجَمِي . . حَيْثُ كَانَ "المعجم الكبير" يَتَخَلَّقُ فِي رَحِمِ لِحْتِهِ الكَبِيرِ ، الَّتِي كَانَتْ تَضُمُّ مَشِيخَةً جَلِيلَةً مِنْ أَعْلَامِ العُلَمَاءِ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَاللُّغَاتِ الشَّرْقِيَّةِ وَالأَدَبِ ، وَالفَلَسْفَةِ وَالاِقْتِصَادِ وَالقَانُونِ وَالشَّرِيعَةِ ، وَمُخْتَلَفِ العِلْمِ الطَّبِيعِيِّ ، فَكَانَ عَمَلُنَا المَعْجَمِي البَاكِرُ مَعَ هَذِهِ اللِّجَةِ مَدْرَسَةً مَعْجَمِيَّةً تَعَلَّمْنَا فِيهَا الكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مَحَاوِرَاتِهِمُ الفَدَّةُ تَكْشِفُ لَنَا آفَاقًا جَدِيدَةً عَدِيدَةً ، مِنْ العِلْمِ وَالأَدَبِ وَالفُنُونِ ، تَزِيدُ "المعجم الكبير" نَمَاءً وَثَرَاءً ، وَتَجْعَلُهُ المَعْجَمَ الأَكْبَرَ لِلأُمَّةِ العَرَبِيَّةِ ، فِي عَصْرِنَا الحَاضِرِ |

كُنْتُ وَمُصْطَفَى نَدِيمِي لُغَةٍ وَأَدَبٍ ، عَلَى مَائِدَةِ المَعْجَمِ الكَبِيرِ ، نَتَعَاطَى مَا فِي

بطون معاجم اللغة من فرائد ، وما فى دواوين الشعر من شواهد ، تُرْفِدُ بِهَا مَعْجَمَنَا الكَبِيرَ ، فَقد كُنَّا زَمِيلَيْنِ فِي إِعْدَادِ مَوَادِّهِ ، ثُمَّ زَمِيلَيْنِ فِي مَرَاجَعَةِ مَا يُعَدُّ ، الزَمَلَاءُ مِنْ مُحَرَّرِي المَعْجَمِ . وَأَشْهَدُ لَقَدْ وَجَدْتُ مُصْطَفَى حَاذِقًا بِالصَّنَاعَةِ المَعْجَمِيَّةِ ، فَلَيْسَ كُلُّ عَالِمٍ بِاللُّغَةِ أَوْ النُّحُوِّ وَالصَّرْفِ مَعْجَمِيًّا ، فَالمَعْجَمِيُّ رَحَالَةٌ لُغَوِيٌّ إِلَى مُخْتَلَفِ مَصَادِرِ المَعْرِفَةِ ، مِنْ مَعَاجِمِ أَعْلَامِ وَبُلْدَانِ وَحَيَوَانِ ، وَأَدَبِ وَتَارِيخِ وَحَضَارَةِ ، وَمُصْطَلِحَاتِ عِلْمِيَّةٍ وَفَنِيَّةٍ . . فَالصَّنَاعَةُ المَعْجَمِيَّةُ . . إِذَا كَانَتْ تَقْتَضِي عِلْمًا وَاسِعًا بِاللُّغَةِ وَالنُّحُوِّ وَالصَّرْفِ وَاللُّهْجَاتِ ، فَإِنَّهَا تَقْتَضِي كَذَلِكَ ثِقَافَةً مُوسَّوعِيَّةً بِسَائِرِ العِلْمِ وَالأَدَبِ وَالفُنُونِ .

ولد مصطفى فى العاشر من يناير سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة وألف ، فى قرية "برمبال" الجديدة ، بمحافظة الدقهلية ، وهى قرية رائد التعليم الحديث فى مصر « على مبارك » الذى يَضْرِبُ إِلَيْهِ مُصْطَفَى بِعِرْقِ خُؤُولَةٍ . وَتَلَقَّى تَعْلِيمَهُ الأَوَّلِيَّ بِمَدْرَسَةِ القَرِيَةِ ، حَيْثُ حَفِظَ القُرْآنَ الكَرِيمَ

وجوّده برواية حفص عن عاصم ، فتَهَيَّأَ
بذلك للالتحاق بالأزهر الشريف طالباً
بمعهد دميّاط الابتدائي ، ثم انتقل إلى
معهد الزقازيق ليحصلَ منه على شهادة
الثانوية ، التي أهَلَّتْهُ لدخول كلية
دار العلوم ، حيث تخرّج فيها عام خمسين ،
وحصل في العام التالي على دبلوم في
التربية وعلم النفس من المعهد العالي
للمعلمين .

وبعد اشتغالٍ بالتدريس نحو سنوات
عشر في المرحلتين الإعدادية والثانوية ،
انتقل إلى العمل بالمجمع محرراً بالمعجم
الكبير ، وتدرّج فيه حتى صار مديراً عاماً
للمعجمات وإحياء التراث .

وأعير عام ستة وسبعين إلى جامعة
الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ، فشارك
في إنشاء "مركز البحث العلمي وإحياء
التراث" ، ثم عاد بعد عام إلى المجمع ،
وفي عام اثنين وثمانين أنهى عمله المجمع
ليبدأ عمله في الكويت ، رئيساً لقسم
التراث العربي بوزارة الإعلام .

ثم عاد إلى القاهرة عام ثمانية وثمانين
حيث عمل خبيراً بالمجمع في "المعجم

الكبير" ، وعضواً في لجنة إحياء التراث
بالمجلس الأعلى للثقافة .

وإني إذ أحدثكم اليوم عن مصطفى
فحديثي حديثُ صديقٍ خبير ، وليس في
الناس أصدقُ حديثاً عن المرءِ ممَّنُ أتبعَ له
أن يَطلِّعَ على خبايا نفسه ، ولا يُتَّاحُ هذا
إلا لصديق . . . وليس في الناس أعرفُ
بالمرءِ من صديقٍ لازمه في سرّائه وضرّائه ،
وزامله في عمله وعلمه ، فسبّره وخبّره ،
ولا يَنبُتُكَ مثلُ خبير !

لقد جَمَلَ اللهُ مصطفىَ بخِلالِ حميدة ،
يطولُ فيها الحديثُ ، ولكنَّ خَلَّةً واحدةً
تَبْرُزُ سامقةً ، تَمُدُّ ظلالها على سائرِ خِلاله ،
وهي خَلَّةُ "الأناة" . . فكلُّ خُلُقٍ فِيه
يَتَسِمُ بالأناة ، والأناةُ تُنْضِجُ السلوكَ فإذا
هو سَوِيٌّ رَضِيٌّ ؛ فهو لا يَجِبُّهُكَ بموقفٍ
يُوقِعُكَ في حَيْرَةٍ ، ولا يَبْدَهُكَ بأمرٍ يأخُذُكَ
على غِرَّةٍ . . فانت معه في أمانٍ من نفسه ،
ومن نفسك . . في أمانٍ من نفسه لأنك
معه تَنَعَّمُ بالطمأنينة ، وفي أمانٍ من نفسك
لأنها معه تَخْلُدُ إلي السكينة . . وصفةُ
"الأناة" قد تَغْلُغَتْ في جَوَانِحِ نفسه ،
حتى ظَهَرَتْ في جَوَارِحِ جسده ؛ فهو

يَأْخُذُ كُلَّ شَيْءٍ وَيَدْعُهُ فِي هَوَادَةِ وَرَوِيَّةٍ ،
يَتَحَرَّكُ عَلَى مَهْلٍ ، وَيَمْشِي الْهُوَيْنَى ،
وَيَتَحَدَّثُ فِي تُوْدَةٍ ، بَلْ إِنْ مَلَامَحَ وَجْهِهِ
تُعَبَّرُ عَنْ انْفِعَالِهِ فِي رِفْقٍ ، فَلَا تُسْتَفْزُ
مَلَامَحُهُ بِاخْتِلَاجِ غَضَبٍ ، وَلَا تَكْفَهْرُهُ وَلَا
تَزْوَرُّ ، فَهُوَ هَادِيٌّ صَبُورٌ .. وَقَدْ أَهْلَتْهُ أَنَاتُهُ
إِلَى أَنْ يَلِجَ عَالَمَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِخَطِيئِ
مَطْمَئِنَّةٍ ، وَأَنْ يَتَعَرَّفَ تُرَائِهَا فِي مُشَابِرَةِ
وَمُصَابِرَةِ ، وَيَعْرُكَ مَعَاجِمَهَا "بَدِيمَةً حَتَّى
لَأَنْتُ عَرِيكَتُهَا لَهُ ، فَذَابَتْ لَهُ بِاللُّغَةِ صِلَةٌ
حَمِيمَةٌ ، غَرِيْبُهُ لَدَيْهِ مَأْلُوفٌ ، وَبَعِيدُهَا
مِنْهُ قَرِيْبٌ ، فَكَأَنَّ بَعْقَلَهُ جِهَازَ اسْتِشْعَارِ
لِغْوَى ؛ فَهُوَ يُدْرِكُ أَيْنَ تَكْمُنُ الْمَادَةُ اللُّغَوِيَّةُ
فِي بَطُونِ الْمَعَاجِمِ ، وَأَيْنَ يُسْتَدْعَى الشَّاهِدُ
مِنْ دَوَابِ الشُّعْرَاءِ .. وَقَدْ جَعَلَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ
يُمْتَلِئُ عَلَى تَحْقِيقِ نَفَائِسٍ مِنَ الْمَخْطُوطَاتِ
الْعَرَبِيَّةِ إِقْبَالَ الْوَائِقِ الْخَبِيرِ ، فَحَقَّقَ كِتَابَ
"بَهْجَةِ الزَّمَنِ فِي تَارِيخِ الْيَمَنِ" لِابْنِ
عَبْدِ الْمَجِيدِ الْيَمَانِيِّ ، وَكِتَابَ "الْمَنَارِ
وَالدِّيَارِ" لِأَسَامَةِ بْنِ مَنْقُذٍ ، وَالْجُزْءَ الْآخِرَ
مِنْ كِتَابِ "نَهَايَةِ الْأَرْبِ" لِلنُّوَيْرِيِّ ، كَمَا
شَارَكَ فِي تَحْقِيقِ أَجْزَاءٍ عَدِيدَةٍ مِنْ مَعْجَمِ
"تَاجِ الْعُرُوسِ" لِلزُّبَيْدِيِّ ، الَّذِي تُصَدِّرُهُ وَزَارَةُ

الإعلام بالكويت ، وحقق الجزء العاشر
من "المحكم" لابن سيده ، وراجع كتاب
"خلق الإنسان في اللغة" للحسن بن
محمد بن أحمد ، الذي حققه الدكتور
أحمد خان ، بتكليف من المنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم .

وقد أتاح له علمه باللغة الفارسية أن
يؤلف كتابين : أولهما "صفحات عن
إيران" ، بالاشتراك مع الأستاذ صادق
نشأت ، والآخر "الدروس العربية لتلاميذ
المدارس الإيرانية" .

وفي مجال النشاط المجمعى أشرف
على إصدار الجزء الثاني من المعجم الكبير ،
والمعجم الوجيز الذي قدّمه في طبعته
الأولى بمقدمة ضافية ، وخلف المرحوم
الأستاذ عبد السلام هارون في الإشراف
على طبع معجم ألفاظ القرآن الكريم ..
وشارك المرحوم الأستاذ محمد شوقي أمين -
عضو المجمع الراحل - في إصدار الجزء
الأول من كتاب "الألفاظ والأساليب" ،
والجزءين : الثاني والثالث من كتاب "في
أصول اللغة" ، كما أشرف على العديد
من كتب التراث اللغوي التي صدرت عن

المجمع ، وعلى إعداد فهارس لديوان الأدب للفارابي ، وفهارس لكتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني . وحقق للمجمع الجزءين : الأول والثاني لكل من كتاب "التنبيه والإيضاح المعروف بحواشي ابن برّي على الصّحاح" ، وكتاب "التكملة والذيل والصلة لما فات صاحب القاموس من اللغة "للزبيدي" . كما حقق كتاب "الشوارد" للصاغاني ، وقد نوه المرحوم الأستاذ على النجدي ناصف - عضو المجمع الراحل - بتحقيقه كتاب التنبيه والإيضاح ، حيث قال في تصديره لهذا الكتاب :

"وقد نهض بتحقيق "حواشي ابن برّي" الأستاذ مصطفى حجازي ، وهو لغوي متميز ، يصحب اللغة ، ويكب على النظر فيها ، درساً وبحثاً ، وإعداداً وإشراقاً ، وقد آتى الحواشي من جهده وخبرته كل ما تقتضيه دواعي الإجابة والإتقان ، تحريراً للنص وضبطاً لمفرداته ، وتخريجاً لشواهده ، في تتبع لا قصور معه ولا اكتفاء" .

كما نوه المرحوم الاستاذ الدكتور محمد مهدي علام - نائب رئيس المجمع الراحل - بتحقيقه كتاب "التكملة والذيل والصلة" ، فقال في تصديره له :

"ومن حسنات المحقق أنه شرح - في دقته المعهودة - منهج المصنف وفضله في هذا الشرح أنه لم يجده مفصلاً في مقدمة المؤلف ، بل استخلصه من متابعة ما استدركه المصنف على القاموس" .

"أما المقارنة التي تخللت العمل ، بين منهجه وأسلوبه هنا ، وبين المنهج والأسلوب الذي كان المصنف قد اتبعه في كتابه "تاج العروس" فتتجلى في دقتها "شنيئة حجازية" - إذا ساغ لي أن اصطنع هذا التعبير ، بعد خبرة طويلة ، وممارسة متواصلة ، للعمل السعيد الذي كان من حظي أن اشترك فيه مع هذا الزميل الكريم في مجال التحقيق اللغوي" .

أما كتاب "الشوارد" الذي نال به الأستاذ مصطفى حجازي جائزة الدولة التشجيعية في تحقيق التراث عام خمسة وثمانين ، فقد جاء في تصديره قول

المرحوم الأستاذ الدكتور محمد
مهدي علام :

"ومن الإنصاف ألا أترك هذا التصدير
دون أن أذكر قليلا من فضل محقق هذا
الكتاب : الأستاذ مصطفى حجارى . لقد
سعدتُ ببلقائه والعمل معه فى مجال اللغة ،
فى مجمع اللغة العربية ، قرابة ربع قرن ،
فوجدته واحداً من أقلّ القليل الثقات فى
البلغة ، الذين تتدفق معارفهم الوثيقة على
أطراف ألسنتهم " !

أيها السادة :

هذه هى الكوكبة الدرّية اللغوية من

الأعضاء الجُدد ، الذين أشرف اليوم
باستقبالهم ، وكلّ منهم نابه نابغ فى
فرع تخصصه العلمى ، ولكنّ فروعَ
تخصصاتهم تخرُجُ كلّها من أرومة واحدة ،
هى لغتنا العربية .. فالاختلافُ هنا إلى
اتلاف ، والتنوُّعُ إلى تجمُّع ، والتعدُّدُ إلى
توحد ، وبهذا كله يتحقّقُ التكامُلُ للعسلِ
المجمعى ، الذى نأملُ من الزملاء الجُدد أن
يُخلِصُوا له قلوبهم ، ويخلُصُوا له بكلّ ما
لديهم من علم ، وما فى طاقاتهم من عمل !
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إبراهيم التزى

عضو المجمع

كلمة الأستاذ الدكتور إبراهيم البسيونى

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

السيد الرئيس

السادة العلماء الأجلاء

تحية من عند الله مباركة طيبة وبعد

فإنه لشرف عظيم لى أن يقع اختياركم على لآكون بينكم وواحدًا منكم ، فالذى تختارونه معكم تطول قامته ، وترتفع هامته ، وكأنى بكم أيها السادة أردتم أن تكرموا رجلا عاش مع لغة الضاد قرابة خمسين عاما فى مواقع مختلفة تدرسا وإشرافا وإدارة .. فى الأزهر جامعا وجامعة ، وفى الصحافة تصحيحا ومراجعة ، فى داخل مصر وخارج مصر .. صحيح أننى نلت على امتداد حياتى تلك تقديرا كبيرا من الأجهزة التى عملت معها ، لكن اختيارى عضوا فى مجمع اللغة العربية هو واسطة العقد كما يقولون ، وأرفع وسام يزدان به صدرى ، ويجمل كل ما فات ، ويتألق به ما هو آت . ذلك

بأنكم قادة الفكر ، ورواد المعرفة من كل لون ، وحماة الفصحى التى هى أشرف اللغات ، وأوسعها دائرة وأغزرها مادة ، إنكم تزينونها ببحوثكم القيمة ، وما تميزونه من تعبيرات ، وما تثبتون من ألفاظ الحضارة وبهذا تذللون عصيها وتطوعونها لمقتضيات العصر ، وتيسرونها للقارئ والدارسين والكاتبين ، دون أن تنزلوا بها عن مستواها ، ولا أن تنالوا من الصرح الشامخ الذى أقامه الأئمة من أهل التراث .. فكيف بالله لا يشرف مع كل هذا من تختارونه عضوا معكم ولا يعظم شأنه فى الناس .. شكر الله لكم ، وبارك عليكم وسدد على طريق العلم والمعرفة خطاكم ، وأسأله تعالى أن يوفقنى ويعيننى على أداء واجبى نحو المجمع ورسالته لأكون عند حسن ظنكم وأهلا لهذه الثقة الغالية .

أيها السادة :

شاءت إرادة المولى جل وعلا أن أشغل مكان الأستاذ الدكتور تمام حسان .. والحق أن نخلو المكان من هذا العالم الجليل يعد خسارة كبيرة ؛ نظرا لتمكته وتعدد مواهبه، فبعد أن ظفر بدبلوم دار العلوم في سنة ١٩٤٣ حصل على إجازة التدريس في سنة ١٩٤٥، ثم أوفد في بعثة إلى إنجلترا للتخصص في علم اللغة ونال الماجستير في سنة ١٩٤٩، ثم حصل على الدكتوراه في سنة ١٩٥٢، وعاد إلى مصر ليحمل مدرسا بقسم فقه اللغة بكلية دار العلوم .

وفي سنة ١٩٦١ ندب مستشارا ثقافيا بسفارة مصر في لاجوس بنيجيريا ، وأنشأ صلات طيبة بين جامعات مصر وجامعاتهم .. وفي سنة ١٩٦٢ عاد إلى مصر وعين أستاذا للنحو والصرف والعروض في كلية دار العلوم ، ووكيلا لها .. وفي سنة ١٩٧٢ عين عميدا لهذه الكلية وأنشأ الجمعية اللغوية المصرية وانتخب أول رئيس لها ، ثم أعير إلى جامعة محمد الخامس بالمغرب ، وظل هناك إلى عام ١٩٧٩ م .

وجدير بالذكر أن الدكتور تمام كان مع

علمه الفياض ، وطنيا يمتلىء قلبه بحب الوطن وحماسة الشباب ، ففي حرب ١٩٥٦ تطوع للقتال في صفوف المحاربين لدحر العدوان الثلاثي ، على الرغم من أنه كان على أبواب الكهولة وأصر على ذلك إصرارا حازما جعل المسؤولين عن المعركة يقبلون تطوعه ويوادر المشيب قد وخطت عارضيه .

وفي مجال البحث العلمي نتاجه موفور فقد ألف أربعة كتب هي : مناهج البحث في اللغة ، واللغة بين المعيارية والوصفية ، واللغة العربية معناها ومبناها، وكتاب بعنوان الأصول .. كما ترجم عدة كتب أخرى من الإنجليزية إلى العربية .. وله بحث عمار نشر بمجلة الكلية بعنوان : منهج نحاة العرب ، وبحث آخر نشر بإحدى مجلات المجمع عنوانه «من طرق القرآن الكريم» وهو بحث جامع لفنون التعبير القرآني من وجهتي اللغة أو البلاغة . جزاه الله خيرا على ما بذل للعلم والوطن من جهد مشكور ، ومد في عمره وأعانه

وهو يؤدي فريضة الثقافة والمعرفة في بلاد المسلمين .

وتبقى كلمة شكر وعرفان للأديب الأريب صاحب القلم الرشيق ، والعبارة الشائقة ، الذي يحمل روحا طيبة ، ونفسا مخلصا ، وأدبا جما ، وعِلما نافعا

الأستاذ الفاضل إبراهيم التري ، عضو المجمع ورئيس تحرير مجلته .. نشكره على تفضله بكل ما قال ، من بديع المقال ، في كلمة الاستقبال ، والله من وراء القصد ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة الأستاذ الدكتور بدوى طبانة

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

ونسأل الله تعالى أن يفتح لنا أبواب

رحمته ونحن نلج هذا المحراب ، ويسر

لنا صادق القول وصالح العمل ، لنلحق

بركب الناجين من عباد الله الصالحين .

سيدى الرئيس الجليل

سادتى العلماء الأجلاء فى مجمع

الخالدين .

عجب أن يعيا اللسان ، ويعجز

البيان فى هذا اليوم المشهود الذى

تستقبلوننى فيه ، وأحاول أن أعبر عن

شكرى لكم واعترافى بعظمة صنيعكم ،

وعرفانى بجميلكم ، وقد يزداد العجب إذا

كان العى والحصر من رجل صناعته

المحاضرة والمذاكرة والمحاورة ، أفنى فيها

زهرة حياته .

والحقيقة أن الشكر الذى أحاول أن

أرجيه إليكم ليس ألفاظا أو أجراس حروف

تلوكها الأفواه ، وإنما هو تعبير عن مشاعر

سيدى الرئيس الجليل

سادتى العلماء الأجلاء أعضاء مجمع

الخالدين .

سيداتى وسادتى شهود هذا الحفل

الكريم .

أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ،

له الحمد فى الأولى والآخرة ، له الحكم

وإليه المرجع والمآب .

وأصلى وأسلم على من اصطفاه ربّه

هادياً ومبشراً ونذيراً ، لينقذ البشرية من

جهالتها العمياء ويقودها إلى المحجة

البيضاء ، إلى صراط الله العزيز الحميد ،

وأنزل عليه ذكراً حكيماً ، وقرأنا كريماً ،

بلسان عربى مبين ، وعلى آله الأطهار ،

وصحابه الأبرار ، ومن تبعهم من المهتدين

الهداة ، الذين آمنوا بالحق وكانوا له من

الدعاة .

تعتلج في الصدر ، وعواطف يفيض بها
القلب ، وأحاسيس تضطرب في أعماق
النفس ، ولا تقوى على الصعود إلى
عذبات اللسان ، فما أعظم ما حبوتوني
من فضل ، وما أوليتموني من ثقة توجتم
بها سعيي في خدمة العلم ، وأتختم لي بها
هذا المقام المحمود بينكم لأكون حبة في
هذا العقد الفريد من سدنة اللغة العربية ،
وهي ثقة أعتدّ بها ، وأعدّها أسمى من كل
منصب ، وأكبر من كل جائزة ، وأرفع من
كل وسام ، لصدورها عن تلك النفوس
الزكية ، والقلوب الكبيرة ، والعقول
الواعية التي أودعها الله كنوز الحكمة ،
وقطوف المعرفة النافعة .

وأسأل الله أن أكون أهلاً لها ، وأن
يقدرني على شكرها ، فإن من تمام نعمة
الله على عبده أن ييسر له سبيل شكرها ،
فإن شكر النعمة نعمة تضاف إلى نعمة :

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً

على له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضلته

وإن طالت الأيام واتصل العمرُ

وشكر المنعم سبحانه بلزوم طاعته ،
وشكركم أيها السادة لا يكون إلا بالعمل
الدائب والجد الموصول في خدمة الأهداف
الشريفة التي تجردتم لخدمتها ، وعملم
لتحقيقها . وتلك مهمة أحسب لها ألف
حساب ، وأشفق منها كل الإشفاق ، ولا
حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

أيها السادة :

لقد كان في طليعة الأهداف التي
قصد إليها أولو الغيرة على تراث هذه الأمة
الحراس على مقوماتها الأصيلة بإنشاء هذا
المجمع المبارك الحفاظ على سلامة اللغة
العربية ، والنهوض بها حتى تتسع طاقتها
لاستيعاب متطلبات الحضارة التي لا تكف
عجلتها عن الدوران ، والحاجة المتجددة
في مجالات الفنون والعلوم التي لا يتوقف
ركبها عن المسير ، ما دام عقل الإنسان
يعمل ويجد ويتأمل في ملكوت السموات
والأرض ، وما أودع الله في مخلوقاته من
آثار قدرته القادرة ، وأسرار حكيمته
البالغة .

وكان الذى دعا إلى التفكير فى إنشاء
هذا المجمع وتحديد أهدافه هو الإشفاق
على لغة العرب ، بعد أن ترددت دعوات
مارقة خبيثة إلى زلزلة كيان العربية العتيد ،
وتقويض هيكلها الراسخ ، متذرعة
لدعوتها بتعلات كاذبة ، وأسباب مفتعلة ،
تغرى السذج من أبناء العربية بالزهد فى
لغتهم والتنكر لها مما لم نسمع بمثله من
أصحاب اللغات الأخرى .

ولا شك أنه كان للاستعمار دوره
الفعال فى إشعال تلك الفتنة فى أوليات
القرن الذى نعيش فيه بتشجيع أولئك
المارقين - وهم من صنائعهم وعملائهم -
على الجهر بتلك الدعوة الخبيثة . بل لقد
كان من المستعمرين أنفسهم من زعم أن
علة العلل فى تخلف العرب عن اللحاق
بركب الحضارة تكمن فى استمساكهم
باللغة العربية التى تعوقهم عن تحصيل
العلوم والمعارف لعجزها عن استيعاب تلك
المعارف الجديدة ، والتعبير عنها . واغتر بهم
مخدوعون ومأجورون يتسبون إلى هذه
الأمة ، ويعيشون بين ظهرانيتها . وغايتهم

من ذلك تحطيم إرادة الأمة ، وإفقادها الثقة
بمقوماتها الأصيلة ، وفى مقدمتها وحدة
اللسان الجامع لشمليها ، ولغة قرآنها ،
وأحكام شريعته ومستودع آدابها ،
لأسباب لا تخفى !

وما يزال أعداء هذه الأمة يتربصون
بها الدوائر ، ويزهدونها فى كل مأثور من
تراثها ، حتى صارت معاول الهدم
والإخراب أقوى من عوامل النهوض والبناء ،
حتى أثارت تلك الثورة الهدامة شاعرية
شاعر النيل حافظ إبراهيم ، ودفعته إلى
إنشاء قصيدته المعروفة التى أجراها على
لسان اللغة العربية :

رجعت لى نفسى فاتهمت حصاتى

وناديت قومى فاحتسبت حياتى

والتى قال فيها :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية

وماضقت عن آى به وعظمت

فكيف أضيق اليوم عن وصف آله

وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن

فهل سألوا الغواص عن صدقاتى

وإذا كانت الحاجة إلى مجمع اللغة العربية قد برزت قبل إنشائه بسنين فإن أمتنا العربية تبدو اليوم أشد حاجة إلى هذا المجمع ، وإلى الجهد الصادق الذي يبذله رجاله الصادقون .

لقد حمل الاستعمار عصاه ورحل عن ديار العروبة يجر أذيال الهزيمة عندما صحا العرب من رقدهم ، وأفاقوا من غفلتهم ، ولكنه خلف وراءه بعض الأذئاب المفسدين وتسَلَّت إلى منابرنا الثقافية دعوات غريبة ، بل دعوات مريبة ، أخذت تروج للواقعية ، وتدعو إلى العامية . وكان أصحاب هذه الدعوات لا يعرفون من الواقعية إلا وجهها القبيح الذي يدعو إلى التحلل من القيم والأعراف التي تقوم عليها المجتمعات الإنسانية ، وهي أعراف وقيم تمثل حصيلة التجارب التي خاضتها كل أمة في مسيرتها الطويلة عبر القرون ، وأخذت تهدبها ، وتنفي نخبها ، وتبقى على الصالح النافع منها ، لتبنى عليه كيانها ، وتجعل منه مقومًا لحياتها ، ودليلاً علي وجهها ، وسمّة مميّزة من سماتها .

ولكن هذه القيم أخذت تتهاوى قيمة بعد قيمة . وليس يعيننا في هذا المقام حديث عما أصاب القيم الدينية ، أو القيم الخلقية ، أو القيم الاجتماعية ، ولكننا نكتفى بإشارة سريعة لما أصاب لغتنا وأدبنا ، فقد كثر الدعاة إلى العامية بدعوى أنها لغة الجماهير ، وأصبحنا نقرأ ونسمع صيحات التمجيد والإطراء لما يسمى «الأدب الشعبي» ، وكان الأجرى أن يسمى «الأدب العامي» حتى يتحدد المفهوم ، لأنه ليس من شرط الآداب الشعبية كما عرفت الآداب الإنسانية كلها أن تكون بلغة العوام . وتلك قضية ليس هذا مجال تفصيلها ، ولكننا نقول إن هذا اللون قد حظى بكثير من العناية حتى صارت له أقسام خاصة في بعض جامعاتنا ، وتخصص في دراسته عدد من الباحثين حصلوا على أعلى الدرجات الجامعية .

ولا بأس عندنا بدراسة هذا الأدب على أعلى المستويات على أنه تراث أو سجل لأحداث أو تقاليد حياة لبعض الشعوب ليلحق بالمصادر التاريخية لتلك

الشعوب ، أو يلحق بعلم الاجتماع لأنه
يصور حياة هذه المجتمعات وتطورها عبر
العصور . وذلك أولى من دراسته على أنه
أدب عربى ؛ لأنه لا تجتمع فيه خواص
هذا الأدب الذى هو قبل كل شيء تعبير
لغوى ممتاز .

وقد يسمى الشعر العامى فى بعض
مواطن العروبة «الشعر النبلى» ولا بأس
عندنا بهذه التسمية التى تفصله عن الأدب
العربى ، وإن كان يكبر عندنا أن يكون
منشوده عربا يعيشون فى قلب الجزيرة ،
حتى لقد نضطر إلى أن ننشد مع فيلسوف
المعرة قوله :

أين امرؤ القيس والعذارى

إذ مال من تحت الغبيط

استنبت العُرب فى الموامى

بعذك واستعرب النبىط

ثم كانت بدعة «الأدب الهادف» الذى

يساير الواقعية فى الفكرة كما يساير الواقعية

فى العبارة . إلى غير ذلك من العلل

والآفات التى أصابت لغة العرب وأدبها فى

الصميم ، وهان شأن الملتزمين بجادة

الصواب فسكتوا على الخارجين عليها ،
وربما جاروهم فى بدعهم مخافة أن
يوصموا بالرجعية أو التخلف أو الجمود ،
وهى أوصاف طالما نبز بها أهل الجذ
والحفاظ فى هذا الزمان .

ولا يرجى لكشف هذه الغمة إلا

مجمعكم الموقر ، وعلماءه العاملون .

* * *

ويعد ، فىلانى أشكر لأخى وصديقى

العالم الأديب الأستاذ إبراهيم الترزى ما

حيانى به ، وما خلع على من شمائله التى

أرانى عاجزا عن بلوغها .

وإذا كان فى نقاد الأدب من يتردد فى

قبول الغلو فى المعانى والأوصاف ، فإن

فيهم من يذهب إلى تفضيله على الحدود

الوسطى ، ويرى فيه توجيها إلى الغايات

المثلى التى ينبغى أن يسعى إليها الساعون ،

ويعمل لمثلها العاملون .

وكذلك أراد صديقى إبراهيم الترزى

بأدبه المعهود أن يوجهنى نحو المثل الرشيدة

التي نتطلع إليها جميعا .

وهو فى الحالتين مشكور مأجور على
ما أثنى به ، وما وجه إليه .

سيداتى ، سادتى :

يذكرنى هذا الموقف المشهود فى رحاب
هذا المجمع المكين بأساتذة كبار من رجاله
العاملين سبقوا إلى دار البقاء بعد أن أبلوا
خير البلاء فى إرساء دعائمهم ، وتوطيد
أركانهم ، وإعلاء بنيانهم ، وكلهم من أولى
العزم ، وأقطاب العلم . رحمهم الله
جميعا ، ولا حرمانا أجرهم .

ويذكرنى بطائفة من فضلائهم المقدمين
أحسنوا الظن بهذا الضعيف ، فقدمونى
إليكم وفى طليعتهم من الراحلين أساتذتنا
الكبار الدكتور على عبد الواحد وافى ،
والدكتور عبد الحليم متتصر ، والدكتور
محمد مهدي علام ، أجزل الله ثوبتهم ،
وأنزلهم منازل الأبرار فى جنات النعيم .
والله يحفظكم . ويبارك أعماركم
وأعمالكم .

وكلمته عن سلفه الأستاذ عبد العزيز محمد

« وهو الذى جعلكم خلائف
الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض
درجات ليلوكم فيما آتاكم »

(الأنعام ١٦٥)

« ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من
بعدهم لننظر كيف تعملون »

صدق الله العظيم (يونس ١٤)

وهكذا خلق الإنسان ليحيا ما قدرت
له الحياة فى دنيا الابتلاء والاختبار التى

يتفاوت فيها البشر بمقدار ما كسبوا من
الحسنات ، وما اجترحوا من السيئات ،
يجيئون ثم يمضون فى أجيال متلاحقة يقفوا
بعضها بعضا ، ويكون أسلاف وأخلاف ،
وسرعان ما يصير الخلف سلفا . وطوبى
لمن اعتبر ، وويل لمن غره السراب ، واتبع
هواه فكان من الغاوين .

وقد قضى الله بحكمته البالغة أن أقوم
بينكم هذا المقام ، وأشغل فراغا كان يملؤه

سلفى المرحوم الأستاذ عبد العزيز محمد ،
وأؤينه بكلمات أرجو أن توفيه بعض حقه ،
وإن حقه لعظيم .

وما أشبه موقفى هذا بموقفه يوم
استقبله هذا المجمع الموقر وهو يؤين سلفه
الأستاذ الجليل حامد عبد القادر رحمه الله ،
وموقف الأستاذ حامد عبد القادر وهو
يؤين سلفه عيسى اسكندر المعلوف .
حلقات متصلة يقفو بعضها بعضا فى تاريخ
هذا المجمع ، وفى ذلك عبرة أى عبرة لمن
يريد الاعتبار .

والمرحوم الأستاذ عبد العزيز محمد
علم من أعلام هذا المجمع الموقر ، وهو
عالم كبير ، وفقه خطير ، عملاق من
جيل العمالقة فى فقه القانون ، وقطب من
أقطاب القضاء فى مصر ، وصل فيه بجده
وذكائه واستقامته وإخلاصه إلى القمة التى
بلغها عدد من أعلامه المعروفين فى تاريخ
القضاء المصرى فى هذا القرن من أمثال
عبد العزيز فهمى ومحمد كامل مرسى
وعبد الرزاق السنهورى وغيرهم من
الأعلام النابهين .

ولا غرو أن يبلغ هذا المبلغ بعد أن
أخلص حياته الطيبة المباركة لخدمة العدالة
محامياً يدافع عن المظلومين ، ويسترد
حقوق المغلوبين ، وقاضيا يفصل بين
المتخاصمين ، وأستاذا يفيد طلابه فى
جامعتى القاهرة وعين شمس وفى جامعة
بغداد من خبرته الواسعة ومعرفته العميقة
بالقانون وبأصول التقاضى ، وبأحثا محققا ،
ومؤلّفا خبيرا له آثاره المذكورة فى فقه
القانون المدنى الذى ألف فيه كتابين يعدان
فى مقدمة المراجع التى يعتد بها ، ويعتمد
عليها .

وفى الفترة التى قضاها فى العراق
أستاذا فى كلية الحقوق بجامعة بغداد كتب
شرحاً للقسم العام من قانون العقوبات
العراقى وشرحاً آخر للقسم الخاص من
ذلك القانون .

ولم يكفه ذلك الجهد المضنى الذى
بذله فى المحاماة والقضاء والتدريس
الجامعى والتأليف ، بل إنه أسهم فى
تعديل كثير من القوانين التى يجرى عليها

القضاء المصرى ، كما أسهم فى تعديل قانون هذا المجمع ، وفى كثير من الأعمال النافعة التى تتصل بتخصسه وثقافته القانونية المتبحرة .

ذلكم أيها السادة هو الرجل الذى ودّعه بالأمس مجمعكم الكريم ، بعد هذه الصفحة الحافلة بجلال الأعمال التى سجلها فى كتاب التاريخ بالعرق والكفاح ولزوم الصراط المستقيم .

وما أظن أننى استطعت الوفاء له بما هو أهل له من الثناء والإطراء ، أو القيام بما ينبغى لمثله من التأبين أو الرثاء .

وأعترف أننى لا أستطيع أن أضيف جديداً إلى ما قرره العالمون بسيرته ، والمتتبعون لمسيرته من جهابذة القضاة وفقهاء القانون الذين أجمعوا على إكباره ، وأشادوا بفضائله ، وقيامه بواجبه بإخلاص وكفاية وتجرد ، وفى صمت الحكماء الذين لا يعرفون الدعوى ، ولا يراءون الناس ، ولا يستجيبون إلا لداعى الحق ، ونداء الضمير .

ويصفونه بسعة العلم ، وغزارة المعرفة ، والتثبت ، والأناة ، وقوة الحجّة ، وسلامة المنطق ، وغير ذلك من الفضائل اللازمة لمن يلون أمور الناس ، ويعملون على إصابة الحكم ، وإحقاق الحق .

أيها السادة :

إن البحث عن المعرفة هو عمل الصفوة من البشر ، والوصول إلى الحقيقة هدف من أهم أهداف الإنسان العاقل الرشيد الذى يتطلع دائما إلى الكمال ، ولكنه لا يدّعيه ، وغاية الفيلسوف العاشق للحكمة التى وصفها رسول الله ﷺ بأنها ضالة المؤمن ينشدها فى كل زمان ومكان .

وكان السفسطائيون يقولون إنهم هم الحكماء ، وإنهم معلمو الحكمة للناس ، حتى كان سقراط الذى قال متواضعا إنه ليس حكيما ، وإنما هو محبّ للحكمة ! وكذلك أيها السادة كان الأستاذ عبد العزيز محمد واحداً من عشاق المعرفة ، الباحثين عن الحقيقة فى ترفع ، وفى بعد

عن الزهو أو الإدلال بما يوفق إليه ، فقد
جمّله الله بالتقوى ، وزينه بالفضائل
النفسية وفي مقدمتها فضيلة التواضع التي
هي حلية المتمكنين من العلماء العاملين ،
حتى كان التواضع سمة من سماته البارزة ،
وكأنه غريزة من غرائزه التي طبع عليها .
وقد أحلّه هذا المحل الرفيع تواضعه
وترقّعه ، وحبّه للعلم ، وكلفه بالمعرفة
التي عاش طالباً لها ، وساعياً إليها ،
وحريصاً عليها منذ نعومة أظفاره حتى
استوفى أجله المقدور .

ولم يجد الأستاذ عبد العزيز محمد
في تعريفه لنفسه في الكلمة التي ألقاها
على هذا المنبر يوم استقباله في هذا المجمع
خيراً من قوله الذي عبّر فيه عن هذا

الشغف بالمعرفة في عبارته الوجيزة في
لفظها ، العظيمة في دلالتها :

«ولو أذن لي أن أقدم نفسي لقلت :
طالب معرفة ناشئاً وشاباً وكهلاً ، هجر
بلده في الصعيد في السابعة حيث لم يجد
سيلاً لما ينبغي ، وأقبل على القاهرة حيث
بدأ تعليمه ، وحيث أتم دراسته في الحقوق ،
وظل طالب معرفة حين مارس المحاماة ،
وحينما جلس للقضاء . وكان ذلك في
كل عمل تولاه ، وها هو «ذا» يسعى في
كحولته إلى مجمعكم الموقر طالباً المزيد من
المعرفة ، راجياً أن تكرموا وفادته ، وأنتم
لذلك أهل !»

تغيبه الله بواسع رحمته ورضوانه ،
وجزاه خير ما يجزي به العلماء العاملون .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

بدوى طبانة

عضو المجمع

كلمة الدكتور عبد السميع محمد أحمد

فى حفل استقباله عضوا بالمجمع

وبهذا القدر أذكر للأستاذ الجليل
الدكتور محمد توفيق الطويل علمه الغزير
وفضله الكبير ، فقد كان فيلسوفا شغف
بالفلسفة والأخلاق ، وكتب وألف
وحاضر ، وقاد صفوة من أبنائه فى
الجامعة بعد أن تخرج فى كلية الآداب
بالقاهرة ، فعين معيدا بها وتنقل فى سلك
التدريس حتى صار رئيسا لقسم الفلسفة
بالكلية ، وعبر مصر إلى الخارج معارا
وأستاذا زائرا فى كلياتها وجامعاتها ،
وانتهى به المقام فى جامعة الكويت نحو
ست سنوات بين سنتى ١٩٧٨ و ١٩٨٤ ،
وجذبتة المؤتمرات والندوات العالمية
والمجلس الأعلى للثقافة مقررا للجنة
الفلسفة والاجتماع . وشغل المكان الذى
كان يشغله الدكتور منصور فهمى ،
والدكتور أحمد لطفى السيد والأستاذ
مصطفى عبد الرازق ، والدكتور رئيس

السيد الرئيس

السادة الزملاء

سيداتي سادتي :

يطيب لى أن أمثل بينكم الآن ، وإنها
لامنية غالية عزيزة أن أقف هذا الموقف
فأخاطب جماعة العلم وأساطين الأدب
وأفذاذ المعارف فأشكر لهم كل الشكر
اختيارى لأكون بين هؤلاء الأفاضل أغترف
ما يغترفون وأسهم كما يسهمون ، وأشكر
للأستاذ الجليل الدكتور رئيس المجمع الموقر
موافقته على انتخابى ومصادقته على هذا
الرأى .

وأشكر للأخ الأستاذ إبراهيم الترسى
هذه الكلمات الجميلة التى قدمنى بها
لإخوانى السادة ، لقد أضفى على من
سجاياه ومن أخلاقه ، ووهبنى ما لا
أستحق ، فشكرا له ألف شكر .

المجمع الحالى الدكتور مدكور والدكتور عثمان أمين ، فكان خليفة لأهل الفلسفة الذين قدّموا لهذا الفرع من فروع المعرفة الخير الكثير وأناروا للشادين طريقهم وبسطوا لهم قواعده .

والمجمع فى حاجة إلى شتى التخصصات ، فيضم ، كما يضم الآن ، اللغويين والأدباء والعلميين والقانونيين والفلاسفة والفنيين والتشكيليين ، وغيرهم . وقراراته ملزمة ، وآراؤه واجبة ، وإن كنا نرى الآن عزوفا عن بعض قراراته وآرائه فليس هذا خطأ المجمعين .

وإذا كان الدكتور الطويل قد ألف فى مبدأ حياته العلمية كتاب « الأحلام فى الفكر الإسلامى » ، وقدمه الأستاذ الجليل مصطفى عبد الرازق ، فإن مؤلفات وأعمال وخبرات الدكتور الطويل سارت فى نفس الدرب ، درب الفلسفة والأخلاق ، فأخلص لهذا الفرع من فروع المعرفة . يقول فى ختام كتابه « فلسفة الأخلاق » : إن الإنسان هو الكائن الأخلاقى الوحيد ، لأنه من بين سائر الكائنات هو وحده الذى

يمكن أن يضيق بواقعه ، ويتطلع جادا واعيا إلى ما ينبغى أن تكون عليه حياته . . إن الإنسان لا يكون مميزا عن سائر الكائنات بخير مثل أعلى يدين له بالولاء «وولاؤنا للدكتور الطويل يكون بذكره كلما عرضنا لما قصد له ، وتطلبنا من الإنسان أن يتحلى به حيث يكون .

والمجمع يجدد شباب اللغة ، ويحيى ما اندثر فيها أو قبع بين صفوف المؤلفات والمراجع ، أو ما أخفاه الزمن والحاجة إليه ماسة ، أو ما تردده الألسنة الآن ويحتاج إلى التصويب ، أو ما يهتدى إليه العلم من مصطلحات جديدة . ووسائل العلم الموروثة تفيد فى إرجاع هذه المصطلحات إلى قواعد اللغة أو تجد وسائل أخرى لاحتضانها وضمها إلى ثروتها .

واللغة كائن حي ، يتطور وينمو ، ويتسع ، فيضم فيما يضم ، هذه المصطلحات الجديدة ، ويخضعها لأساليب اللغة العربية ، لغة المجمع ، وهو يعلم تماما أن العربية حافظت على قواعدها ونظامها أكثر من ستة عشر قرنا ، وأنها

لغة علم وفن وهي لا تضيق بالمصطلحات الجديدة ، لأن القرآن الكريم قد جاء حافظا لها من اندثار ، أو تخلف ، أو اختفاء كما اختفى غيرها أو غاب عن التداول ، أو تواري إلى جديد بحبها .

وإن النظرة العلمية غير المتحيزة تعترف بما للغة العرب من تفوق ، والمستشرقون أنفسهم يقد كثير منهم إلى العواصم العربية أساتذة رائدين ، أو أعضاء في الجامع . وليس يبعد أن نرى في مصر أمثال ماكس ماير هوف المتجنس بالجنسية المصرية ، أو كارل بروكلمان الباحث العربي أو نللينو أو يرجشتراسر أوليتمان .

حقا بدأ العرب عند ظهور الإسلام بترجمة كتب اليونان في الطب والكيمياء والفلسفة ، وكذلك فعلوا مع الفرس والهند ، ولكنهم ، وبعد أن انتشر الإسلام واستقر الحكم العربي ، نجد العقل العربي المتفتح يظهر ، ويتكبر ، وترجم كتبه إلى اللغة اللاتينية لغة العلم إذ ذاك . وترجم فيما ترجم إلى اللاتينية كتب اليونان وغيرهم التي حفظها العقل العربي ، وعن

طريق العرب حفظت الكنوز والذخائر ونقلت إلى أوربا وانتقل إلى أوربا كتاب الخوارزمي في الحساب عن طريق إسبانيا ، وقامت في أوربا مدرسة علمية جديدة تعرف باسم «مدرسة الخوارزميين» .

وقد أعجب ليوناردو ، الذي حضر من بيزا إلى باجة الواقعة على ساحل الجزائر الممتد على البحر الأبيض المتوسط ، بشرح أستاذه العربي حين قال له : إن أساتذة المدارس العليا في بغداد والموصل كانوا يكسرون بين العددين المكتوب أحدهما فوق الآخر عن طريق خط بينهما ، وتعلم كذلك حساب الأس ($2=2 \times 2=4$) وحساب الجذور مثل 2 وهي جذر 8 أو 4 وهكذا ، وزار دور الكتب في دمشق والإسكندرية ، كما تناقش مع علماء القصر في القاهرة وقد ولد ليوناردو حوالي سنة 1180 في بيزا [ص 61] فضل العرب على أوربا - لمؤلفته : سيجريد هونكه - ترجمه إلى العربية د. فؤاد علي حسنين] .

وهولاكو المغولي، الذي حُرّب بغداد
وأشعل فيها النيران ، لم يكن مقتنعا بعلم
الفلك الذي عنى به العرب ، واتخذ من
ناصر الدين الطوسي (١٢٠١ - ١٢٧٤)
الذي كان في خدمة الأمير الإسماعيلي
الذي قتله اتخذه وزيراً لماليته ، وشرح
ناصر الدين لهولاكو نظرية المرصد ،
فمنحه بعد إنشائه مبلغاً كبيراً من المال ،
وكان ناصر الدين يتابع سير النجوم
والكواكب في السماء زهاء ثلاثين عاماً من
حياته ، وكان في مرصد ناصر الدين كرة
مشملة على خمسة أطواق من النحاس
لقراءة مواقع النجوم ، وأول هذه الأطواق
هو دائرة نصف النهار ، وكان مثبتاً في
الأرض ، والثاني خط الاستواء ، والثالث
سمت الشمس ، والرابع خطوط العرض ،
والخامس الاعتدالان .

والأمثلة كثيرة على اهتمام العرب
بالعلوم وعلى تعصب بعض الناظرين إليهم

من زوايا مختلفة ولئن تخلفوا بعض الشيء
عن إختوتهم علماء الغرب وأخذ الأخيرون
علمهم وتجاربهم ، وتطويرهم لما نقلوه من
اليونان والرومان والفرس والهند ،
فعدّهم أن العلم لا وطن له ، وأن
النهضة التي ترى الآن في أوروبا وأمريكا
يرجع الفضل في بقائها وحفظها وتطويرها
إلى العرب ، كما يرجع الفضل إليهم فيما
ابتكرته عقولهم وملاحظاتهم المستمرة
وتجاربهم .

أيها السادة :

لقد كان الدكتور توفيق الطويل معنياً
بالشئون الإسلامية ، وبالغرب وكان
يضرب الأمثال بهم ، ويعود إليهم ، لقد
كان خليقاً به أن يحتل مكانه في مجمع
اللغة العربية ، وكان خليقاً به أن يحمل
مشعل الثقافة الفلسفية فيه ، وأن يصير
عضواً في لجنة الفلسفة بالمجمع ويشرف
على إعداد القاموس الفلسفي للطبع .

أيها السادة :
ولالأخ الأستاذ إبراهيم
لكم جميعا صادق الشكر لتفضلكم
الشكر لتفضله بهذه الكلمات
لاختياري عضوا في هذا المجمع العلمي ،
أضفاها على .
وللأستاذ الدكتور رئيس المجمع أصدق
والسلام عليكم ورحمة ا،
الشكر وأعمقه .

كلمة الأستاذ مصطفى حجازى

فى حفل استقباله. عضوا بالمجمع

الجديد ، فتصيرَ قادرةً على التعبيرِ عن كل
مستحدثٍ فى شتى فروع العلم وأنواع
المعرفة ، وتلك هى رسالةٌ مجمعكم
الموقر.

سادتى : لقد سعدتُ كلَّ السعادة
حين هتفَ بى الزميلُ الفاضلُ الأستاذُ
إبراهيم التروى ليزفُ إلى نَبأ فوزى بثقتكم
الغالية ، التى اعتزُّ بها ، وأرجو أن أكونُ
أهلاً لها ، فشرحَ بذلك صدرى ، وغمرَ
بالسعادةِ نفسى ، ولا غرورَ أن كان سرورى
بهذا الفورِ عظيماً ، فلقد جاء بعد أن
استؤذِنَ لى عليكم - من قبلُ - مرتين ،
قالتُ كلتاهما وما نالتُ ، وكانتا عارضاً
من الآمالِ أخلفَ ودقهُ ، وسحاباً من المنى
كذب برقهُ ، وعدتُ بعدهما من اليأسِ
على مثلِ قايي قوس ، لولا بقيةٌ من أملٍ
عاشت تغتذى بقولِ محمد بن يسيرِ
الرياشى :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة
والسلام على رسول الله سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين .

سيدى الرئيس الجليل

سادتى أعضاء المجمع الأجلاء .

أيها الحفل الكريم :

أرى لزاماً على أن أتقدم إليكم بجزيل
الشكر ، وعظيم التقدير ، لما أوليتُمونى
من شرفٍ كبيرٍ بانتخابى عضواً فى هذا
المجمع العريق ، فصيرتُمونى زميلاً لكم ،
أحملُ معكم أمانةَ الحفاظِ على هذه اللغةِ
الشريفة ، وأحملُ معكم عبءَ النهوضِ بها ،
لتبقى على الزمن خالدةً خلودَ كتابها المعجزِ ،
الذى «لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من
خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد» ولتواكبَ فى
تطورها ركبَ الحضارةِ المعاصرةِ فى مسيرتهِ
المسرعةِ ، ووثباته المتلاحقةِ ، ولتجمعَ إلى
أصالةِ ماضيها العريقِ حداثةَ حاضرها

لا تياسن وإن طالت مطالبة

إذا استعنت بصبر أن ترى فرجاً

اخلق بدي الصبر أن يحظى بحاجته

ومؤمن القرع للأبواب أن يلجأ

ثم كانت هذه هي المرة الثالثة التي

يُستأذن لي فيها عليكم ، وفاءً بالسنة الشريفة

فقد قال - عليه الصلاة والسلام - : «إذا

استأذن أحدكم ثلاثاً ، فلم يؤذن له ،

فليرجع» وهأنتم أولاء - أكرمكم الله - قد

أذنتم لي ، فالسلام عليكم ورحمة الله

وبركاته .

سيدي الرئيس ، سيداتي وسادتي :

إنه لتقليد حسن ، وسنة حميدة تلك

التي جرى عليها مجمعكم الموقر ؛ إذ

جعل من رسومه أن يُقيم مثل هذا الحفل

لاستقبال عضوه الجديد ، وأن يُنيب عنه

واحداً من أعضائه ، ليُلقي كلمة في

استقباله ، يقدمه بها إليكم ، ويعرف به

لديكم ، ومضت هذه السنة محمودة منذ

قام هذا المجمع العريق إلى اليوم ، وشيئا

فشيئاً صار هذا التقديم أقرب إلى التكريم،

وأصبح ذلك التعريف أشبه بالتقييم ،

وأحسبني سمعتُ الآن - فيما كرمني به

الزميلُ الفاضلُ الأستاذُ التروزي - من الثناء

والإطراء ما يملأ النفس زهواً وعجباً ،

حتى ظننته يتحدث عن إنسانٍ آخرٍ ليسني ،

وتمنيتُ أن أكونه ، وأخشى أن تكون عينُ

الرضا قد غلبت الصديقَ المخلص ، حتى

أرته مني ما لا أراه من نفسي التي أعرفُ

قدرها ، «وما هلك من عرفَ قدر نفسه»

كما يقولُ الرسولُ الكريم ، ورضيَ الله

عن أبي بكر الصديق ، فقد كان إذا مدح

دعا ربه فقال : «اللهم اجعلني عندك خيراً

عما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون» .

وأشهدكم - أيها السادة - أنني ما زلتُ -

كما كنتُ من قبل - طالبَ علم ، شرفُ

بالعمل في مجمعكم هذا نيقاً وثلاثين سنة؛

محرراً ، فرئيسَ تحرير ، فمراقباً ، فمديراً ،

فخبيراً ، وكان هذا المجمعُ جامعتي الثانية

التي تخرجتُ فيها على مشيخةٍ عظيمة

من أعضائه الأجلاء ، أذكر منهم -

ولا أحصيهم ، فهم زيدٌ على مئة -

فيهم : أحمد لطفى السيد ، والعقاد ،

وطه حسين ، والزيات ، وأمين الخولي ،

وعلى عبد الرازق ، ومحمود تيمور ،
ومحمد فريد أبو حديد ، ومحمد عوض
محمد ، وأحمد بدوى ، ومحمد خلف الله
أحمد ، ومحمود شلتوت ، ومحمد على
النجار ، وعبد الرحمن تاج ، ومحمد
محيى الدين عبد الحميد .

واستحدثت فى هذا المجمع صِلَّةً
جديدةً بأساتيدَ لى قدامى ، تَلَمَذَتْ لَهُمْ
فى دار العلوم - فى الأربعينيات - أذكر
منهم أستاذى الجليل رئيسَ المجمع الدكتور
إبراهيم مدكور ، - حفظه الله ورعاه -
وأذكر من الراحلين الخالدين : إبراهيم
مصطفى ، وزكى المهندس ، وعبد الحميد
حسن ، وحامد عبد القادر ، ومهدى علام ،
وعطية الصوالحى ، وعلى النجدى ناصف ،
وعلى السباعى ، وعلى الخفيف ، وعلى
عبد الواحد وافى ، وعباس حسن ، وعلى
الجندى ، وإبراهيم أنيس .

أولئك أشياخى فَمَنْ لى بِمِثْلِهِمْ
وأنى لهم مِثْلٌ على أبدِ الدهرِ ١٩
كما أتيج لى - فى هذا المجمع - مَدَدٌ
من معارفِ شتى - فى غيرِ مجالِ اللغة

والأدب - أفدتها من أعضاء كانوا فقهاءً
فى القانون ، من أمثال : عبد الحميد
بدوى ، والسنهورى ، وعلى بدوى ،
ومحمد مصطفى القللى ، ومن توابغ
الأطباء الأعضاء : أحمد عمّار ، ومحمد
كامل حسين ، ومحمد أحمد سليمان ..

ومن زملائهم العلماء ، فى الصيدلة
والكيمياء ، وفى علوم الطبيعة والأحياء ،
وفى التاريخ والجغرافية .. كنت أستمعُ
إلى هؤلاء وهؤلاء ، وهم يتحاورون فى
لجان المجمع ، وفى مجلسه ، ومؤتمره ،
فأفيدُ منهم أكثرَ مما يستفيد طلابهم فى
حلقاتِ الدرسِ ، وفى قاعات الجامعة ،
ثم مَضَوْا جميعاً إلى ربهم ، محمودةٌ
سيرتهم ، خالدةٌ آثارهم ، وكأنهم من عنى
شوقى بقوله :

كانوا أجلُّ من الملوكِ جلاله
وأعزُّ سلطاناً وأفخَمَ مظهرأ
أيها السادة الأجلاء : لقد شرفتمونى
حين منحتمونى ثقتكم الغالية ، فصيرتمونى
زميلاً لكم ، ثم ردتمونى شرقاً حين
بوأتمونى كرسيًا شغله قبلى صديقٌ عزيز ،

وعالمٌ فاضل ، هو المرحوم الدكتور أحمد السعيد سليمان ، الذي ترجعُ صلتى به إلى سنة ١٩٦٣ حين اختاره المجمعُ خيرًا للمعجم الكبير في اللغات الشرقية ، وكان عمله معي في المعجم يقتضينا أن نلتقي - في المجمع كل أسبوع - مرةً أو مرتين ، وكنتُ كلما التقيتُ به أنستُ من علمه وأدبه ما يُقربُه من نفسي ، ويحبُّبه إلي قلبي ، فلم تلبث صلةُ العملِ هذه أن تحولتُ إلى صداقةٍ حميمة ، ومودةٍ كريمة ، دامت بيننا تنمو وتزدهرُ على الأيام إلى أن اختاره الله لجوارِه ، فافتقدتُ برحيله أخًا مخلصًا ، وصديقًا وفيًا .

واني لأذكر له - رحمه الله - أنه كان يتعجلُ عودتي إلى المجمع من عملي في الكويت ، ولم أكد أعودُ حتى بادرَ إلي ترشيحي - ومعه أصدقاءُ فضلاء - لعضويةِ مجمعكم الموقر ، ولن أنسى يوم قابلني غداة الانتخاب - بعد ترشيحي للمرة الأولى - فتبسّم ضاحكًا ، وهو يقول : «فرقتُ دُوهُ» ودُوهُ في الفارسية - كما تعلمون - تعني اثنين ، يريد صوتين . ثم لقيني بعد ذلك بعام - عقب ترشيحي

للمرة الثانية ، وغداة يوم الانتخاب - فمأزحني متمثلاً بقول أبي النجم :
* والشمسُ قد كادتُ ولَمَّا تَفْعَلِ *
وأردفَ قائلاً - صادقًا أو مُجاملاً - : «في هذه المرة فرقتُ يك» ويك - في الفارسية ، كما تعلمون - تعني واحدًا ، ثم قال : لا بأس ، ولا بأس ، «والتالته تابتَه» كما يقولُ المثل ، فقلتُ له : إن شاء الله . ثم كانت الثالثة ، فصحّتُ نبوءته ، بعد أن فاتتني - برحيله - زَمالته :

وقد كنتُ أرجو أن أملأه حِقْبَةً
فحالَ قضاءِ الله دُون رَجائِيَا
سادتي الأجلَاء : وجريًا على سنة
المجمع في حديث الخالف عن السالف ،
أذكر لكم ما رواه لي سَلَفِي - الدكتور
أحمد السعيد - من سيرته الذاتية ، فقد
حدثني أنه ولد في مدينة المنصورة سنة
١٩٢٤ وكان أبوه من أهل القرآن ، رجلاً
صالحًا متدبرًا ، يشتغلُ بتجارة الغلال ،
وكان معروفًا بالصدق والأمانة ، يرضى الله
في تجارته ، ويتحرى الحلال في كسبه ،
فبارك الله له في ماله وولده وأهله ، وقد
حَرَصَ هذا الوالد الصالح على أن يأخذ

ولده بحفظ القرآن الكريم ، وتجويده ،
فاستظهر منه في سن مبكرة قدراً غير قليل ،
وكان ينسخ ما يحفظ من المصحف في
اللوح أولاً - على عادة أهل زماننا - فجاد
بذلك خطه ، واستقام بالقراءة لسأته ،
وقصحت بالحفظ لغته ، فكان له من كل
ذلك ما أورثه ثقة في النفس جعلته - على
صغر شخصه بين زملائه - يبدو كبير
الشخصية ، وظل متميزاً بين أقرانه
في دراسته الابتدائية والثانوية . ثم التحق
بكلية الآداب في جامعة فؤاد الأول
سنة ١٩٤٠ فاختار قسم اللغة العربية
التي أحبها ، وشغف بها ، فتخرج فيها
سنة ١٩٤٤ وهو في العشرين من عمره ،
ولعله كان أصغر دفعته سناً ، وعقب
تخرجه عمل مدرساً للغة العربية في
مدرسة للبنات من مدارس التعليم الحر ،
ولم يلبث بها إلا قليلاً حتى عين في وزارة
الشئون الاجتماعية في إدارة الدعاية
والإرشاد ، ثم في إدارة الجمعيات الخيرية .
وكان إلى عمله هذا طالباً مجتهداً في معهد
اللغات الشرقية الذي حصل على دبلومه -

المعادل للماجستير - في سنة ١٩٤٧ وكان
الأول على قسم اللغة التركية ، فرشحته
كلية الآداب للحصول على درجة الدكتوراه
في الدراسات التركية من السربون ، فسافر
إلى باريس سنة ١٩٥٠ واقتضاه الموضوع
الذي اختاره لدراسته السفر إلى تركيا ،
فرحل إليها ، وأقام بها عشرين شهراً
متنقلاً بين مكاتب استانبول وأنقرة وقونية ،
يجمع مادة رسالته ، ويجود لغته التركية
حتى أتقنها ، وأطلع على كثير من تراثها ،
ثم عاد إلى باريس ، فسجل موضوع
رسالته لدكتوراه الدولة ، وكانت من
قسمين :

الأول - وهو الرسالة الرئيسية ،
وعنوانها : «العقائد السرية للبكتاشية»
وهي إحدى الطرق الصوفية التركية ،
وأشرف عليها المستشرقان الفرنسيان :
ماسينيون ، وچان فال .

والقسم الثاني - وهو الرسالة
التكميلية ، ترجمة نص تركي عنوانه «دفتر
العشاق» المنسوب إلى المتصوف التركي
المعروف بعبد الله المغاوري ، ذي الشهرة

الشعبية لدى القاهريين ، والمدفون بهضبة المقطم ، وأشرف عليها الأستاذ «لويس بازان» .

وقد أئنت لجنة المناقشة على عمله ثناء طيبا ، ونوّهت بالجهد العظيم المبذول في الرسائلتين ، تأليفاً وتحقيقاً وترجمة ، ومنحته دكتوراه الدولة بمرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٥٦ فكان أول مصري نال هذه الدرجة العلمية الرفيعة ، في الدراسات التركية ، كما كان أول مصري يُدرّس اللغة التركية وآدابها ، وكان أساتذتها قبله من الأتراك .

وعاد الدكتور أحمد السعيد إلى مصر في أغسطس سنة ١٩٥٦ فعين معيداً بكلية الآداب ، ثم صار مدرساً ، فأستاذاً مساعداً ، فأستاذاً لكرسى اللغات الشرقية ، فرتبياً للقسم ، ثم أستاذاً غير متفرغ بعد بلوغه الستين ، وإلى أن لقي ربه راضياً مرضياً .

ولقد كان في حياته الجامعية مثالاً الأستاذ القُدوة ، يخلص في عمله ، ويحرص على نفع طلابه ، ويرعى النابغين

منهم ، ويحث أبناءه طلاب الدراسات العليا على الاستزادة من العلم بهذه اللغة التركية ذات الصلات الوثيقة بتاريخنا الحديث ، فنَهَضت على عهد الدراسات التركية والفارسية ، وتخرج على يديه نحو من ثلاثين دارساً ، أشرف على رسائلهم للماجستير وللدكتوراه ، وكان في إشرافه نعم المعين للطالب ، يساعده في اختيار الموضوع ، ويرسم معه منهج الدراسة ، ويرشده إلى المراجع والمصادر فيها ، ويظل يراعاه حتى يقدمه إلى لجنة المناقشة ، معتزاً به ، فرحاً بنيله درجته ، يراه ثمرةً يانعة لغرسه الطيب ، وما كان أسعده حين يتحدث عن أبنائه هؤلاء ، فخوراً بما بلغوه من مناصب مرموقة ، بين هيئات تدريس اللغات الشرقية في جامعات القاهرة ، وعين شمس ، والأزهر .

وكان للدكتور أحمد السعيد شرف تمثيل جامعة القاهرة في المؤتمر الدولي الثامن والعشرين للمستشرقين ، الذي عقد في كانبيرا بأستراليا سنة ١٩٧١ وكان الوحيد الذي ألقى بحثين في هذا المؤتمر ،

كما دُعِيَ أيضا للمؤتمر الدولي للدراسات التركية الذي عقد بأنقرة سنة ١٩٨٥ وألقى فيه بحثًا عن «الصحافة التركية في عهد محمد علي» وشارك أيضا في مؤتمر التراث الشعبي في الأدب التركي المنعقد في أنقرة سنة ١٩٨٩ وأسهم فيه ببحثه عن «المخلفات الوثنية في ملحمة بَطَال غازی».

السادة الأعضاء : هذه ملامح من شخصية الدكتور أحمد السعيد الجامعية ، أجملتها في إيجاز ، أما شخصيته المجتمعية ، فقد كان رحمه الله - كما عهدتموه - دائبَ النشاط ، ماضِي العزيمة ، وحين اختير خبيراً للمعجم الكبير في اللغات الشرقية سنة ١٩٦٣ - أقبل على عمله مخلصاً ، وأبدى من الكفاية لما نُدِبَ له ، ومن المعرفة بالعربية وآدابها ما لَقَّتْ إليه الأنظار ، وجذَّبه إلى دائرة الاختيار ، فانتخب عضواً في سنة ١٩٧٩ وشغل الكرسي الذي خلا بوفاة المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس ، فكان خيرَ خَلَّابٍ لخيرِ سلفٍ ، ومضِي راشداً ، يبذل جهده ، وينشدُ الكمالَ فيما يطلب

منه ، وراح يُسهمُ في لجان المجمع المختلفة ، فكان عضواً في لجان المعجم الكبير ، وفي الفاظ الحضارة ، وفي لجنة الكيمياء والصيدلة ، وفي الأحياء والزراعة ، وصار مقرراً للجنة التاريخ والآثار . وتشهدُ له هذه اللجان بسعة المعرفة ، وصدق التعاون ، كما يعرفُ له المجلسُ والمؤتمرُ إسهامه في جدِّ وإخلاصٍ ، وإثاره المجمع بجُلِّ وقته وجهده .

ولقد اختاره المجمع ممثلاً له في مؤتمرين :

أحدهما : المؤتمر الذي أقيم في بودابست احتفالاً بمرور مئة سنة على ميلاد عضو المجمع المراسل المستشرق المجري «عبد الكريم جرمانوس» وحالت دون سفره ظروفٌ ، فبعث إلى المؤتمر ببحثه الذي كتبه بالفرنسية .

والآخر : المؤتمر الذي أقيم في السربون سنة ١٩٨٩ - احتفالاً بمرور مئة عام على ميلاد رئيس مجمعنا السابق الدكتور طه حسين ، وحال دون سفره مرض طارئ ، فبعث إلى المؤتمر بحثاً

طريفًا في بابه ، كتبه بالفرنسية عن «طه حسين ناثرًا نحويًا» .

أما بحوثه الجمعية فمنها بحثه الذي ألقاه في مؤتمر المجمع للدورة السادسة والأربعين في «تأصيل بعض الدخيل من أسماء الملابس والأطعمة في كتاب الجبرتي» .

وبحثه الآخر الذي أسهم به في مؤتمر المجمع للدورة الخامسة والخمسين وعنوانه: «الفاظٌ حضارية بطل استعمالها» .

وأما إنتاجه العلمي فقد انتظم مجالات ثلاثة :

(أ) الأول : في التصوف والعقائد الباطنية لبعض الأتراك ، وصدرت له فيه الدراسات التالية :

١ - العقائد السرية للبكتاشية (بالفرنسية) .

٢ - دفتر العشاق : رسالة للصوفي التركي «عبد الله المغاوري» ترجمها عن التركية .

٣ - الموكوية : آدابها ومراسمها - مستنبطة من المثنوى - (بالفرنسية) .

٤ - وحدة الوجود ، وبعض الأفكار الباطنية لإسماعيل حقي البرسوى مترجم عن التركية .

(ب) والمجال الثاني : في الدراسات اللغوية والأدبية ، وله فيه الدراسات التالية :

١ - أوزان الشعر التركي وأشكاله (مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة) .

٢ - المخلفات الوثنية في الأدب الشعبي التركي (بالفرنسية) ط القاهرة وليدن .

٣ - تأصيل ما ورد في كتاب الجبرتي من الدخيل (ط دار المعارف - القاهرة) .

(ج) والمجال الثالث : في التاريخ والوثائق ، وقد صدر له فيه :

١ - مخطط لتكوين أرشيف إقليمي للعالم العربي (حوليات آداب عين شمس) .

٢ - تاريخ الترك في آسيا الوسطى - مترجم عن التركية (ط القاهرة) .

٣ - قيام الدولة العثمانية - مترجم عن التركية - (ط القاهرة) .

- ٤ - تاريخ الدول الإسلامية ،
ومعجم الأسر الحاكمة - في جزأين -
(ط القاهرة) .
- ٥ - التيارات الدينية والقومية في
تركيا المعاصرة (ط القاهرة) .
- ٦ - الوثائق التركية التاريخية الخاصة
بمشكلة طابا ، ترجمها بتكليف من وزارة
الخارجية المصرية .

سيداتي وسادتي :

لا أحب أن أطيل عليكم بسرِّ الإنتاج
العلمي للمرحوم الدكتور أحمد السعيد ،
فهو كثير ، وحافلٌ بكلِّ مبتكرٍ وطريفٍ ،
وحسبى أن أضْمَنَ كلمتي هذه قائمةً
بأسماء الكتب التي ألفها ، أو ترجمها ،
والبُحوث التي نشرها ، والمؤتمرات التي
حضرها . غير أنه لا يفوتني أن أشير إلى
أن المجمع - جرياً على عادته في الترشيح
لجائزة الدولة التقديرية - عرف للدكتور
أحمد السعيد قدره وفضلَه ، ورآه أهلاً لها ،
فرشحه مجلسُ المجمع - في سنة ١٩٩٠ -
لنيل هذه الجائزة ؛ لتكون تسويجاً لعطاء
علمي وثقافي ، استمر قرابة نصف قرنٍ

في المجمع ، وفي جامعات القاهرة ،
وعين شمس ، والأزهر ، وفي جامعة
الإمام محمد بن سعود ، وجاء تقديرُ
الدولة له بعد رحيله ، فمَنَحَت اسمَه
جائزةَ الدولة التقديرية في الآداب لسنة
١٩٩١ فكان ذلك تقديرًا لعطاءه ، وعزاءً
لأهله ، وتكريماً للمجمع الذي رشحه
لها .

وبعد :

فهذا - أيها السادة - هو سلفي ،
المرحوم الدكتور أحمد السعيد سليمان ،
وما أظنكم حين أحللتُموني محلّه ، قدرتم
أننى سوف أسدُّ مسدّه ، أو أغني غنائه في
تخصُّصه «أين أمانة من هند ؟» ولكنى
- فيما يُرجى منى - سأمضي معكم - إن
شاء الله - مخلصَ النية ، صادقَ العزيمة ،
باذلاً الجهدَ كلَّ الجهد ، ما وسَّعت الطاقةُ ،
وأعانت العافية ، فيما بقى من منى
عُمري ، والله من وراء القصد ، وما
توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وأليه
أنيب ، والسلام عليكم ورحمة الله .

مصطفى حجازي

عضو المجمع

من أنبياء المجمع

٥ - الأستاذ الدكتور/ أحمد علي
سالم الصباغ .

٦ - الأستاذ الدكتور/ حسن محمود
عبد اللطيف الشافعي .

وقد تم استقبال الأعضاء الثلاثة
(١ - ٣) في جلسة المجلس المنعقدة في
٢١/١٢/١٩٩٤ م .

وتم استقبال الأعضاء الآخرين
(٤ - ٦) في جلسة المجلس المنعقدة في
٢٨/١٢/١٩٩٤ م .

ثانياً - المراسلون :

صدر قرار الأستاذ الدكتور وزير التعليم
رقم ١٢٤٢ بتاريخ ١٨ من سبتمبر ١٩٩٤م
باعتماد انتخاب عشرة أعضاء مراسلين
جدد من العرب والمستعربين وهم :

- الأستاذ الدكتور/ شاندر
(إسكندر) فودور (المجر)

- الأستاذ الدكتور/ عبد الله يوسف
الفنهم (الكويت)

- الأستاذ الدكتور/ فرديكو
ليمهاوس (هولندا)

* تجديد انتخاب الدكتور إبراهيم
مدكور رئيساً للمجمع لمدة أربع سنوات :

صدر قرار الأستاذ الدكتور رئيس
مجلس الوزراء رقم ٢٣٤٣ بتاريخ
٥/١٠/١٩٩٤ ، باعتماد تجديد انتخاب
الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور رئيساً
للمجمع لمدة أربع سنوات قادمة .

* أعضاء جدد :

أولاً - العاملون :

صدر قرار السيد الأستاذ الدكتور
رئيس مجلس الوزراء رقم ٢٣٥٦ لسنة
١٩٩٤ م باعتماد انتخاب ستة أعضاء
عاملين جدد بالمجمع وهم :

١ - الأستاذ الدكتور/ أحمد مستجير
مصطفى .

٢ - الأستاذ الدكتور/ علي محمد
الحديدي .

٣ - الأستاذ الدكتور/ محمد الأمين
بسيوني .

٤ - الأستاذ الدكتور/ محمد السيد
غلاب .

البحوث والدراسات الإفريقية ، والدكتور
محمد عبده محجوب ، وكيل كلية الآداب
للدراسات العليا بجامعة الإسكندرية .

* لجنة الحاسبات :

الدكتور إيهاب السيد عبد الهادي
طلخان المدرس بقسم الحاسبات بكلية
الهندسة بجامعة القاهرة .

* لجنة المعجم الوسيط :

الدكتور ضاحى عبد الباقي المدير العام
السابق للمعجمات اللغوية وإحياء التراث .

* لجنة المعجم الكبير :

الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف
أستاذ ورئيس قسم النحو والصرف
والعروض بكلية دار العلوم .

الأستاذ محمد على الزميتى رئيس
قطاع المجمع السابق .

* لجنة التاريخ والآثار :

الدكتور صالح أحمد صالح الأستاذ
المتفرغ لترميم الآثار بكلية الآثار بجامعة
القاهرة .

- الأستاذ الدكتور/ فولفو دتريش
فشر (ألمانيا)

الأستاذ الدكتور/ محمد إحسان صالح
النص (سورية)

الأستاذ الدكتور/ محمد محمد
بنشريفة (المغرب)

- الأستاذ الدكتور/ محمد هيثم
الخياط (سورية)

- الأستاذ الدكتور/ محمود محمد
السيد (سورية)

- الأستاذ الدكتور/ محمد المختار ولد
إياه (موريتانيا)

- الفريق الأستاذ/ يحيى بن عبد الله
المعلمى (السعودية)

وافق مجلس المجمع على اختيار
السادة الأساتذة التالية أسماؤهم خبراء
جدداً بلجان المجمع :

* لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية :
الدكتور فاروق عبد الجواد شويقة ،
أستاذ الدراسات الأثروبولوجية بمعهد

*** لجنة الرياضيات :**

الدكتور محمد عبد الحميد عامر أستاذ
الرياضيات البحتة بكلية العلوم بجامعة القاهرة ،
والدكتور ناصر على حسن أستاذ الرياضيات
بكلية البنات بجامعة عين شمس .

*** لجنتي النفط والجيولوجيا :**

الدكتور عبد العزيز عثمان سلامة
الأستاذ المتفرغ بقسم التعدين والبتروك
بكلية العلوم بجامعة عين شمس .

*** الجوائز :**

فاز ثلاثة من أعضاء المجمع بجائزة
الدولة التقديرية لعام ١٩٩٤ م :
وهم الأساتذة :

١ - الدكتور/ محمود على مكى فى
الآداب .

٢ - الدكتور/ كمال محمد دسوقى
فى العلوم الاجتماعية .

٣ - الدكتور/ أبو شادى الروبى فى
العلوم الطبية .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

مهندس / إبراهيم السيد البهنساي

رقم الإيداع بدار الكتب ٦٣٢ / ١٩٩٧

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٤٢٧٦ - ١٩٩٧ - ٢٠١٤

